

مدن ومعالم (١)

الطائف

ودور قبيلة ثقيف من العصر الجاهلي
الأخيرة حتى قيام الدولة الأموية

الدكتور

عبد الجبار منسي العيسى

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

شوال ١٤٠٢ هـ - أغسطس ١٩٨٢ م

الطبعة الثانية

جمادى الأولى ١٤٠٣ هـ - فبراير ١٩٨٣ م

منشورات

دار الزفاعي

للنشر والطباعة والتوزيع

الرياض ص.ب: ١٥٩٠

ت: ٤٧٧٧٢٦٩

الغلاف من إعداد الفنان : محسن منصور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

بحمد الله وتوفيقه، تبدأ (دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع) إصدار العدد الأول من سلسلة جديدة ترمع موالاة اصدارها، إن شاء الله تعالى، من سلاسلها التي تقدمها لجمهورها فى المملكة العربية السعودية، وفى العالمين العربي والإسلامي.

هذه السلسلة الجديدة، هي سلسلة (مدن ومعالم) تهدف الدار من وراء إصدارها، أن تقدم لقرائها، تاريخاً وتعريفاً، للبلدان، والمعالم، داخل المملكة العربية السعودية، لتشكل هذه السلسلة إن شاء الله، نواة دائرة معارف، تخدم هذه المنطقة من العالم.

ولا تلتزم الدار فى اصداراتها لهذه السلسلة ترتيباً معيناً للمدن والمعالم، من حيث القداسة أو الأهمية أو القدم أو الضخامة، ولكنها تقدم ما يتهى لها من مادة هذه الاصدارات.

وان من نعم الله عز وجل، على هذه المملكة الناهضة، أنها والله الحمد تزدهر، وتكبر مدنها وتكثر، وتنشع قراها ومعالمها، ذلك فى ظل قائدها صاحب الجلالة الملك (فهد بن عبد العزيز) ادام الله وجوده، وبرعاية ولي عهده الأمين صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز، حي الله مجده وحفظه.

مدير دار الرفاعي
للنشر والطباعة والتوزيع
عبد العزيز أحمد الرفاعي

الرياض فى ١٤٠٢/٩/١ هـ

مقدمة

جثة هي الأسباب التي دفعتنى إلى الكتابة فى هذا الموضوع «مدينة الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية من العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية»، ولعل أهمها وأكثرها إلحاحاً هو الرغبة فى التعرف إلى تاريخ هذه المدينة باعتبارها ثالث مدن الحجاز الكبرى المهمة بعد مكة والمدينة. وكذلك محاولة إبراز الدور التاريخي الفعّال الذى لعبه أهلها على مسرح الحياة العامة آنذاك فى النواحي السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية قبل الإسلام، وحتى قيام الدولة الأموية.

غير أن الذى شجّعنى أكثر.. بل والذى زاد من إصرارى على التعلّق بالموضوع ومحاولة نبش ما خفى من آثاره فى ثنايا المخطوطات وبطون المصادر القديمة، هو أن دراسة الطائف وعلاقة سكانها بمن جاورهم من القبائل العربية الأخرى والمدن والمناطق المحيطة ومدى أثرهم فى الحياة العامة فى تلك الميادين المتعددة، كل هذه الأمور لم تحظ من جانب الباحثين والدارسين لتاريخ شبه الجزيرة العربية عموماً وإقليم الحجاز خصوصاً بالعناية والاهتمام ذاتها اللذين حظي بها تاريخ كل من مكة والمدينة.

ومن هنا تبدو دراسة هذا الموضوع أساسية من وجهة نظر التاريخ الإسلامي، وخصوصاً إذا تذكرنا قلة المتخصصين والباحثين فيه، وأن دروب هذا البحث لم تطأها سوى أقدام قلة الدارسين، أن لم تكن غير موطوءة بعد بأقدام حقيقية على الإطلاق فى بعض نواحيها المهمة.

فى دراستى هذه ركزت على قبيلة ثقيف العربية التى شكلت محور هذا البحث وقد تناولت دورها فى العصر الجاهلي الأخير حتى قيام الدولة الأموية، باعتبار أن هذه القبيلة تمثل واحداً من تلك التجمعات القبلية الكبيرة التى اشتد التنافس والصراع فيما بينها. كما أنى بينت أهمية مدينة هذه القبيلة كمركز من

مراكز الاستيطان نتيجة عوامل كثيرة ومتعددة، منها جودة مناخها ووفرة مياهها وخصوبة أرضها.. مما ساعد على قيام ملكيات زراعية واسعة فيها، إضافة إلى أهمية موقعها وإلى وجود ثروتي الصناعة والتجارة فيها. كل هذه جعلت المدينة مركزاً مهماً في نواحيها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والحربية.

إن التاريخ القديم للطائف يكتنفه الغموض عموماً.. ويكاد يكون هذا الغموض عميقاً وشاملاً في بعض نواحيه. والاستدلال عليه يفرض على الباحث التعامل مع الروايات المتناثرة والمتناقضة في أغلب الأحيان..، بعد تمحيصها طبعاً وتحكيم المنطق العلمي فيها، مما يتطلب أقصى غايات الجهد. فنحن لا نملك وثائق تاريخية كافية أو دقيقة لتاريخ الطائف، مما يجعل الخوض فيه دائماً عسيراً ومضنياً. ومحاولة السعي وراء الإطلالة العلمية على تاريخ هذه المدينة وسكانها تصطدم دائماً بعدم توفر المصادر التاريخية التي تروى ظمناً الباحث..، وهي أن توفرت فليست أكثر من روايات الاخباريين التي اقتصرت على العصر الجاهلي الأخير والتي يشوبها الغموض والابهام، على الرغم من تعرضها للطائف ونفوذها الديني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والحربي، وعلاقتها بالمدن المجاورة وباليمن والعالم الخارجي وقتذاك.

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الهادفة المركزة التي تستطيع كشف اللثام عن معلومات خبيثة قد تسهم في إيضاح الرؤية العلمية وتثير متاهات طويلة في تاريخ هذه المدينة وتاريخ سكانها.

وقبل اقامي على الكتابة في هذا الموضوع، قمت بدراسة استطلاعية لتشخيص أبعاده ومجالاته، وقد بذلت ما وسعني من جهد مثابر في البحث والتنقيب بين ثنايا المصادر التاريخية القديمة المختلفة وبعض المخطوطات التي في متناول يدي والتي أمكنني الحصول عليها، لكي أقدم هذا البحث المتواضع الذي أأمل أن يكون اسهاماً نافعة تساعد على إبراز تاريخ وأهمية هذه المدينة وحرص أهلها من الثقفين، بصورة خاصة، على أن يكونوا نذراً قوياً ومساوياً لقريش صاحبة اليد العليا في التجارة قبل الإسلام. كما توضح أيضاً كيف أن الثقفين بعد اسلامهم

ودخول مدينتهم في حوزة الدولة الإسلامية، صاروا من أشد القبائل العربية حرصاً على استمرار وانتشار هذا الدين الحنيف والذود عنه في شتى المحن التي تعرّض لها ولا سيما في محنة الردة.

لقد حاولت جهدى أن أضع هذه الرسالة في شكل بحث علمي شامل للمدينة وسكانها.. وهي قد اشتملت على ثلاثة أبواب رئيسية تضم عشرة فصول وتشكل وحدة عضوية متكاملة.

يتناول الباب الأول مدينة الطائف في العصر الجاهلي.. ويقع في أربعة فصول، يتحدث الفصل الأول منها عن سكان الطائف وعلاقاتهم الاجتماعية. ويناقش الفصل الثاني الأحوال الاقتصادية في الطائف وعلاقاتهم الاقتصادية بالمدن الأخرى، في حين يتناول الفصل الثالث علاقة ثقيف السياسية بالمدن والقبائل المختلفة، أما الفصل الرابع فيتعرّض لعلاقة ثقيف الخارجية مع الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية.

أما الباب الثاني فيتناول الطائف في عهد الرسول، ويقع في أربعة فصول يناقش الفصل الأول منها ديانة ثقيف وارتباطها بالنشاط الديني العام للقبائل العربية في موسم الحج. أما الفصل الثاني فإنه يلقي ضوءاً على نظرة ثقيف للدعوة الإسلامية ومحاولة النبي صلى الله عليه وسلم ضمّها إلى جانبه كمدينة منافسة لمكة قبل الهجرة الكبرى. والفصل الثالث يتناول موقف أهل الطائف من الصراع القائم بين مكة والمدينة بعد الهجرة. ثم يأتي الفصل الرابع ليبين دخول ثقيف في الإسلام.

أما الباب الثالث، فيتناول الطائف في عصر الراشدين ويقع في فصلين أساسيين. يناقش الفصل الأول منها دور أهل الطائف في عهد الخلفاء الراشدين ومشاركتهم في حركتي الردة والفتوح الكبرى. أما الفصل الثاني فيبين موقف ثقيف من الصراع على السلطة حتى قيام الدولة الأموية وبروز العصبيّة الثقيفية كبديل للعصبيّة القرشية.

بعد هذا العرض السريع الموجز للخطوط العريضة للبحث، لا يفوتني أن

أتوجه بالشكر العميق للأستاذ الدكتور محمد توفيق بليغ الذي كان له فضل الإشراف على هذه الرسالة التي هي في الحقيقة ثمرة طيبة أعتز بها من ثمار توجيهاته لي وأخذه بيدي وسط دروب هذا البحث الشاقة. أن نصائح لي، منذ أولى خطوات هذه الرسالة حتى نهايتها كبيرة كبيرة، بل هي أكبر من أن توفيا كلمات شكر.

وأتوجه بالشكر أيضاً، للأستاذ الدكتور حسين مؤنس رئيس قسم التاريخ الذي كان لعلمه وفضله وآرائه السديدة في نصحي وإرشادي خير عون لي على انجاز رسالتي هذه.

ويسرني أن أقدم كذلك شكرى الجزيل للأستاذ الدكتور محمد عواد حسين رئيس قسم التاريخ الأسبق الذي أعانني وساعدني في تسجيل هذا البحث، وللأستاذ الدكتور أحمد إبراهيم الشريف الذي أسهم إسهاماً صادقاً في توجيهي ومساعدتي أثناء اعداد هذا البحث، فله مني خالص الشكر وافر التقدير، وللأستاذ الدكتور شاكر مصطفى الذي قدم لي العون وتكريم باعرتي بعض المصادر النادرة.

وأخيراً، أقدم شكرى الجزيل لكل من قدم لنا يد المساعدة في سبيل انجاز هذا البحث. كما أشكر جامعة الكويت التي أتاحت لي فرصة الدراسة فيها.

لهؤلاء جميعاً، أكرر شكرى وعرفانى بالجميل، هذا وأرجو أن يكون هذا البحث في صورته النهائية هذه إسهاماً علمياً جاداً قد حقق أهدافه المرجوة.

والله ولي التوفيق

عبد الجبار العبيدي

الطائف فى العصر الجاهلى

- ١ - سكان الطائف وعلاقتهم الاجتماعية ٢٩ - ٤٨
- ٢ - الأحوال الاقتصادية فى الطائف وعلاقتها الاقتصادية
بالمدين الأخرى ٤٩ - ٧٩
- ٣ - علاقة ثقيف السياسية بالمدين والقبائل المختلفة ٨١ - ٨٦
- ٤ - علاقة ثقيف الخارجية مع الدول القائمة على أطراف
شبه الجزيرة العربية ٨٧ - ٩٢

مقدمة جغرافية عامة عن الطائف وأهمية موقعها

كلمة عامة عن شبه الجزيرة العربية :

عرفت جزيرة العرب بهذا الاسم بسبب احاطة الأنهار والبحار بها من جميع جهاتها، وعلى ذلك فحدودها من الشرق بحر عمان وخليج البصرة ونهر الفرات، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر وبرزخ السويس، ومن الشمال البحر المتوسط^(١). أما إذا أخرجنا بادية الشام منها فيكون حدها الشمالي العراق وشرق الأردن فيطلق حينئذ عليها شبه جزيرة، وهي تحتل موقعا ممتازاً بين قارات العالم الثلاث القديمة، فهي تقع في الركن الجنوبي الغربي من قارة آسيا^(٢). وجزيرة العرب في مجموعها صحراء تشبه الصحارى الأخرى التي لا زرع فيها ولا ماء، فهي مختلفة الأجزاء، بعضها مغطى بالكثبان الرملية وبعضها الآخر بالجبال والآكام، كما أن أجزاء منها غور منخفضة وأجزاء أخرى نجد مرتفعة^(٣).

ونتيجة لهذا الاختلاف في أجزائها المتعددة، قسمها الجغرافيون القدامى إلى خمسة أقسام هي: تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن^(٤). ولقد زاد عليها الاصطخري وابن حوقل ثلاثة أقاليم أخرى هي: بادية العراق وبادية الجزيرة وبادية الشام^(٥). ولا بد لنا من كلمة عامة للتعريف بأقسامها الخمسة، مركزين

- (١) ياقوت الحموي: معجم البلدان مجلد ٢، ص ١٣٧. طبعة بيروت البكري: معجم ما استعجم ج ١، ص ٦ - ٧ تحقيق مصطفى السقا. أحد الشريف: مكة والمدينة، ص ٤، طبعة دار الفكر.
- (٢) عمر رضا كحالة: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ص ٦، طبعة الترقى بدمشق. أحد الشريف: مكة والمدينة ص ٣ - ٤.
- (٣) ياقوت: معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨.
- (٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب ص ٤٦ - ٤٧، تحقيق محمد النجدى، ١٩٥٣.
- (٥) ياقوت: معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٣٧ - ١٣٨. أحد الشريف: مكة والمدينة ص ١١ نقلا عن الاصطخري - المسالك والممالك ص ٢٠ - ٢١.

القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٥.

بحشنا على اقليم الحجاز، باعتبار مدينة الطائف احدى مدنه المهمة، وهي موضوع بحثنا.

١ - تهامة :

سميت بهذا الاسم لشدة حرّها وركود ريحها، وهي الأرض المنخفضة الممتدة بمحاذاة ساحل البحر من ينبع إلى نجران في اليمن، وتسمّى الغور أيضاً، لانخفاض أرضها عن أرض نجد^(١).

٢ - نجد :

هو اسم الأرض العريضة التي أعلاها تهامة واليمن وأسفلها العراق والشام، ويمتد بين اليمن جنوباً وبادية العراق شمالاً، وتسمّى نجدا لارتفاع أرضه^(٢).

٣ - العروض :

أطلق هذا المصطلح على اليمامة وعمان والبحرين، ويعتقد أن مصدر التسمية اعتراضها بين الحجاز والبحرين^(٣). ويذكر ابن منظور أن العروض مكة والمدينة وما حولها^(٤). ويقول ابن الكلبي: بلاد اليمامة والبحرين وما والاها هي العروض ومنها نجد، والعروض يجمع ذلك كله^(٥).

إن مصطلح العروض يبدو لنا غامضاً في الروايات، ولا يعطينا الجغرافيون

-
- (١) ابن منظور : لسان العرب — كلمة تهمة.
 - ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٣٧.
 - البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٣٢٢، تحقيق السقا.
 - (٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٦١ وما بعدها.
 - الهمداني : الصفة، ص ٥٠، تحقيق النجدي.
 - (٣) القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٨٥.
 - (٤) ابن منظور : لسان العرب — كلمة عرض، ج ٢، ص ٧٣٩.
 - (٥) الهمداني : الصفة، ص ٤٨.
 - ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١٢.

حدًا واضحًا لهذه المنطقة. وأغلب الظن أنها تعبير عن وضعية إدارية أكثر من كونها تعبيرًا جغرافيًا^(١).

٤ - اليمن :

عرفت بهذا الاسم لكثرة أشجارها وثمارها وزرعها، وتمتد من نجد شمالا إلى البحر العربي جنوبا (المحيط الهندي)، والبحر الأحمر غرباً، ويتصل به من الشرق حضرموت وعمان، وقد شهدت هذه البلاد في الأزمنة القديمة حروبا داخلية وفتنا أهلية كثيرة، ومن ممالكها القديمة معين وسبأ وحير، وكلها دول عربية تلا بعضها بعضا^(٢).

٥ - الحجاز :

سمي حجازا لأنه يحجز بين تهامة ونجد^(٣). وهو إقليم الجبال الممتدة من خليج العقبة (مدينة أيلة) حتى منطقة عسير جنوباً، ويحده من الغرب منطقة تهامة، ومن الشرق جبال السراة، وطوله من الشمال إلى الجنوب سبعمائة ميل وعرضه من الشرق إلى الغرب ثلثمائة وخمسون ميلا^(٤). وأهم مدنه مكة والمدينة والطائف وخيبر ووادي القرى، وقد عدّ بعض الجغرافيين تبوك وفلسطين من أرض الحجاز^(٥). وتعتبر مكة قاعدة الإقليم التجارية كانت تقام للعرب حولها أسواق كل سنة^(٦). وبها أشجار المقل وهي شجرة النارجيل وشجرة المساويك وبها جبل الحديد^(٧).

(١) نزار الحديثي : الإمامة. رسالة ماجستير - جامعة بغداد ١٩٧١.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٤٤٧ - ٤٤٨.

الهمداني : الصفة، ص ٤٨.

(٣) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ١٤، منشورات دار الإمامة - الرياض، ١٣٨٨هـ.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٤٧.

(٤) ابن منظور : لسان العرب، كلمة حجز، مجلد ١، ص ٥٧٤.

الهمداني : الصفة، ص ٤٨ - ٥٠.

حافظ وهبة : الرحلة، ص ١٤.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٢١٩.

(٦) القزويني : آثار البلاد، ص ٨٤.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

أصل التسمية لمدينة الطائف:

لقد سميت الطائف قديماً: وَج نسبة إلى وج بن عبد الحي من العمالق^(١). وفي كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لثقيف يوم أسلمت: أن ثقيفاً أحق الناس بوج وان واديهم حرام محرم لله كله، عضاه وصيده^(٢). وفي الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: آخر وطأة لله يوم وج، وأراد بالوطأة الغزوة، ويبدو أن «وج» أخو «أجا» الذي سمي به جبل طي وهو من الأمم الخالية^(٣). وتطلق «وج» على أسوار الطائف أو على وادي الطائف أو على صحراء الطائف^(٤). أو على المدينة كلها كما ورد في كتاب رسول الله لثقيف. ويظهر أن هذه المدينة «وج» قديمة وقد عثر في أراضيها على كتابات ثمودية وكذلك في قرية الوجه. وهذه الكتابات على قلتها مكانة كبيرة في نظر العلم، لأنها تدل على وجود قوم ثمود في هذه الأماكن منذ القدم، وأن هذه المنطقة وهي واد مازال معروفاً بهذا الاسم^(٥). وأن وادي العرج يقع أسفل وادي وج ثم يجتمع مع أودية أخرى ويفيض في صحراء ركبته^(٦). وقد ظل اسم وج يطلق على موضع في الطائف يقع على الوادي يقال له «يرد» في العصر العباسي إذ أقامت فيه زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد حائطين يقال لهما وج^(٧). وتجري في وادي وج مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأدم^(٨). ويصب فيه من الشرق قبل أن يدفع في العرج وادي

- (١) ياقوت: معجم البلدان مجلد ٥، ص ٣٦١.
- (٢) العجمي: اهداء الطائف، ص ٣٩، دار ثقيف للنشر والتأليف، الطائف ١٤٠٠هـ، تحقيق يحيى محمود ساعاتي.
- (٣) أبو عبيد: كتاب الأموال، مجلد ١، ص ١٩٣ - ١٩٤، المطبعة التجارية الكبرى، ١٣٥٣هـ.
- (٤) ياقوت: معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.
- (٥) العجمي: اهداء الطائف، ورقة رقم ٤.
- (٦) جواد علي: العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٣٤.
- (٧) الأصفهاني: بلاد العرب، ص ٢٩، تحقيق حمد الجاسر والعلي، ١٩٦٨.
- (٨) الهمداني: الصفة، ص ١٢٠، تحقيق النجدي.
- (٩) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٧٩.
- (١٠) الهمداني: الصفة، ص ١٢٠.

سيسد، وهو واد يتصل من الجنوب في جبال تسمى باسمه، وبه سد مشهور من سدود الطائف القديمة^(١).

لقد لعبت الأساطير والروايات دورا بارزا في التسمية، ولعل الروايات أقرب إلى الأساطير في حقيقة التسمية، ومن هذه الروايات أن تسميتها «وج» نسبة إلى قسي (ثقيف) وزواجه من ابنة عامر بن الظرب العدواني، فقد سكن وج وبنى المكان فسميت وج بالطائف^(٢).

وهناك رواية أخرى ذكرتها المصادر تقول: إن منطقة الطائف كانت لبني عامر فسمحت لثقيف نتيجة وفاق بينهم بالعيش فيها، على أن تزرعها ثقيف ويشاركها بنو عامر بنصف محصولها، فبقيت ثقيف زمنا حتى كثرت فحصنها وبنوا عليها سورا يطيف بها فسميت بالطائف، ثم لما اشتدوا بكثرتهم تمردوا على بني عامر، فقاتلهم بنو عامر عليها، إلا أنهم فشلوا في استردادها منهم بسبب متانة سورها وأمتياز أهلها بالشجاعة والدهاء والحكمة، ولقد كان للعرب حكام ترجع اليها في أمورها وتتحاكم في منافراتها وموارثها فكانوا يحكون أهل الشرف والصدق والأمانة والرئاسة والسن والمجد والتجربة، وكان غيلان بن سلمة بن متعب الثقفي واحدا منهم^(٣).

ورواية ثالثة تقول: إن صاحب فكرة الحائط هو الدمون بن عبد الملك وهو رجل من الصدف بحضرموت قتل ابن عمه وفرّ هاربا إلى وج وكان معه مال كثير، وفي وادي وج قابل مسعود بن متعب الثقفي سيد ثقيف وقتل، فعرض عليه بناء حائط يطوف بوج كلها وذلك مقابل حماية ثقيف له، ومحالفته وتزويجه امرأة من نسايتهم^(٤).

(١) عبد الله بن خيس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٦٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية : مجلد ٦، ص ٢٠٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

ابن الجاور : صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر) ص ١٩، طبعة ليدن، ١٩٥١.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، مجلد ١، ص ٢٥٨، طبعة بيروت، ١٩٦٠.

ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٦٨٤ وما بعدها.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

ورواية تروى عن ابن عباس أن الطائف سميت بهذا الاسم، باعتبارها قطعة من أرض الشام نقلت بشجرها ومائها، وبعد أن طافت بالبيت استقرت في الطائف، تلبية لدعوة إبراهيم عليه السلام الذي أسكن أهله بواد غير ذي زرع، فدعا الله أن يرزق أهلها من الثمرات ليأكلوا منها، فكانت تلك القطعة من أرض الشام التي عرفت بالطائف لطوافها بالبيت قبل أن تستقر بموقعها الحالي، ويستدلون على ذلك بخصوبة أرضها واختلافها عن غيرها من بقاع الديار الحجازية لطيب هوائها وعذوبة مائها وجمال نضرتها وحسن خضرتها^(١).

إلا أن هذه الرواية لا يمكن أن تكون مقبولة علمياً أو بعبارة أخرى أنها وهم لا يمت إلى الحقيقة بصلة، ولا يتفق مع النظرة الواقعية للعلم. وإن كانت مقبولة خيالاً وشعراً، كما يقول المؤرخ الفرنسي سيديو من أن الطائف بستان مكة^(٢).

يظهر لنا مما سبق أن كلمة الطائف جاءت تسمية للمدينة بعد وج، ووج هو الاسم القديم لها.

أما كلمة الطائف لغة فتعني العاس أو العسس الذي يدور حول البيوت يحرسها، وخصوصاً في الليل، فالطائف لا يكون إلا ليلاً ولا يكون نهاراً^(٣). ولقد سميت الطائف بهذا الاسم نسبة لحائطها المبني حولها المحدث بها، ومصدق ذلك قول الشاعر أمية بن أبى الصلت الثقفي^(٤).

نحن بنينا حائطا حصينا يقارع الأبطال عن بنينا

(١) ابن عراق : نشر اللطائف - ورقة ٤ - مكتبة الأوقاف - بغداد.

الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ٧٧، طبعنا بيروت ومكة.

(٢) سيديو : تاريخ العرب العام، ص ٢٢، ترجمة عادل زعيتر، طبعة الحلبي ١٩٦٩.

الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٤٤.

(٣) ابن منظور : لسان العرب، ج ٢، ص ٦٢٧.

المعجم الوسيط : ج ٢، ص ٥٧٦ - ٥٧٧.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

البكري : معجم ما استعجم، ج ٣، ص ٨٨٧، تحقيق مصطفى السقا.

ويمكن القول أن مدينة الطائف سميت بهذا الاسم من الطواف حول البيت ويقصدون به بيت اللات، وهو معبودهم الرئيسي في الطائف، وإن التسمية جاءت من أهمية المدينة الدينية، باعتبارها المركز الديني الثاني في الحجاز بعد مكة، فقد كان اللات أكبر معبودات الثقفيين تقديسا، وكانوا يعظمونه ويطوفون حولهم^(١). ومن هنا جاءت كلمة الطواف تعني العرض أو الاستعراض الديني والدوران حول البيت الحرام^(٢).

أودية الطائف:

حول الطائف أودية شهيرة ومتعددة حتى أن المدينة سميت باسمها، ومن هذه الأودية:

١ - وادي وج :

أشهر أودية الطائف وأعظمها، يقع غرب الطائف، وفيه الكثير من القرى والمزارع والبساتين والآبار، ومن مناطقه المثناة فيها مزارع ومياه^(٣). ويعتبر وادي جلدان من أوديته الشرقية^(٤). وقد أشرنا إليه في أصل التسمية، انظر ص (٤).

٢ - وادي ليّة :

بكسر أوله وتشديد ثانيه. يقع في شرقي الطائف، وعلى مقربة من المدينة^(٥). وتنحدر إليه من قم جبال السراوات وهي جبال شاهقة خضراء، وفي منطقة ليّة البساتين والمنابر الجميلة ومياهه تصب في منطقة يقال لها «المحتلطة» ومن ثم يلتقى بوادي «نخب»^(٦). ويكونان واديا واحدا، وكان هذا الوادي قديما مشهورا

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ٨٥، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

ابن الكلبي : كتاب الأصنام، ص ١٦ - ١٧.

جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ - ٩٣.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٠.

(٤) الهمداني : الصفة، ص ١٢١.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٠.

(٦) نخب : واد بالطائف. ياقوت : معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٧٥.

بالحيوانات وأشهرها الأسد، فكان يقال أسد لية^(١). وقد سكن هذا الوادى بنو نصر من هوزان وفيه يكثر الرمان والعنب اللذيذ الطعم^(٢). وفيه كذلك يكثر شجر العرعر والعفص^(٣).

٣ - وادى العرج :

ما يزال معروفًا بهذا الاسم، ويقع أسفل وادى وج^(٤) وفيه قرية جامعة في واد من نواحي الطائف واليه ينسب الشاعر العرجي، وهي أول تهامة وبينها وبين المدينة ثمانية وسبعون ميلا^(٥).

٤ - وادى جفن :

واد يقع بين الطائف ومعدن البرام، وهو لثقيف. وتشارك قريش وثقيف في سكنى معدن البرام^(٦)، هذا الوادى الذى قال فيه الشاعر الثقيفي^(٧).

طربت وهاجتك المنازل من جفن إلا ربما يعتادك الشوق بالحزن

٥ - وادى الشريق :

يقع فى جنوب الطائف، وكان يعود لبنى أمية فى قريش^(٨).

-
- (١) عبد الله خيس : المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٦٥.
 - (٢) عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨، طبعة البصرى، ١٩٦٢.
 - (٣) العرعر : شجر حراجي معروف منذ القدم بخشبه الصلب، وكثيرا ما يرعاه الماعز. أما العفص فهو شجر حراجي أيضا معروف بفوائده الطبية.
 - (٤) فلييب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٢٢.
 - (٥) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٢٩، مخطوط باليد، نقل الشيخ محمد سعيد، مكتبة أوقاف بغداد.
 - (٦) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩٨ - ٩٩، طبعة بيروت.
 - (٧) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢١، تحقيق النجدي، ١٩٥٣.
 - (٨) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٤٧.
 - (٨) الهمداني : الصفة، ص ١٢١.

٦ - وادى نعمان :

وهو واد يصب فى وادى ودان بين مكة والطائف، وهو على ليلتين من عرفات، ومنه يأتى العسل إلى مكة^(١).

٧ - وادى بسل :

ويقال له أيضا نسل، وادٍ معروف، وفيه سكان كثيرون^(٢). وهو أحد أودية الطائف، وجلدان يقع بينه وبين وادى ليّة ويسكنه بنو نصر بن معاوية^(٣).

٨ - وادى لقيم :

واد طويل وخصيب، أوله مزارع الشدايين بعد المليساء، وآخره قرية الصفاقة^(٤). وفيه مزارع الكروم والرمان وفواكه مختلفة أخرى، وفي المريسية بئر وافرة المياه^(٥).

٩ - وادى الجفيفجف :

يقع فى الشمال الشرقى من الطائف، وهو بين الطائف والمدينة، ويقع بعده وادى الخرار وهو خصيب كثير العيون والينابيع، وأرضه ملأى بالماء الراكد من السيول، وتكثر فيه البساتين والفواكه المتعددة، وتعدد فيها خصوصاً أشجار النبق وأنواع الحبوب المختلفة^(٦).

١٠ - وادى الشديق :

هو أحد أودية الطائف^(٧).

- (١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٩٣.
- الهمداني : الصفة، ص ١٢١.
- (٢) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠. تحقيق حمد الجاسر وصالح الكعكي، ١٩٦٨م.
- (٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ١، ص ٤٢٣.
- (٤) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٣.
- (٥) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥ - ٩٧.
- (٦) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٨. والعجمي ص ٨٨، تحقيق يحيى ساعاتي.
- (٧) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٣، ص ٣٢٩.

وتحف بالطائف أودية أخرى تسيل فيها المياه في موسم الأمطار وحولها عيون الماء وفيها آبار كثيرة، وكانت جبالها مكسوة بالأشجار والزروع الكثيرة^(١).

قرى الطائف

١ - الهدة :

وهي أشهر قرى الطائف، وتقع بعد عرفات في قمة جبل كراء الذى يقع بين مكة والطائف^(٢). والهدة قراها سبع على عدد القبائل النازلة فيها وتسمى بأسماء قبائلها وهي: القشامرة، بنو صخر، القطران، الأغرية، الأخولة، اللمضة، والبنى، وترتفع كثيرا عن سطح البحر، وهي معتدلة المناخ، ومن مزارعها التين والرمان والسفرجل واللوز، وفيها كثير من الورود تستخرج مياهه على طريقة التقطير وأمطارها قليلة. أما مياهها فعذبة باردة أغلب أيام السنة^(٣). وهي تنافس الطائف من حيث جودة المناخ وكثرة الأشجار المثمرة والمياه الجارية العذبة، ومن مياهها المعسل الذى ينبع من الجبل وهو خفيف وعذب وشديد البرودة أحيانا^(٤).

٢ - الوهط :

بفتح أوله وسكون ثانيه وطاء مهملة، وهو المكان المظمن المستوى الذى ينبت فيه العضاة والطلع وبه سمي الوهط. وهي قرية بالطائف على بعد ثلاثة أميال في وادى وج. كانت هذه القرية لعمر بن العاص وفيها مزارع الكروم الكثيرة^(٥).

(١) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٣٤.

(٢) ويذكر ياقوت أن الهدة هي موضع بين مكة والطائف وهي موضع القروء.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٩٥.

(٣) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤، طبعة الترقى بدمشق.

(٤) عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٩.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٨٦.

عبد الوهاب عزام : الرحلة، ص ٣١٦.

٣ - المثناة :

يذكر ياقوت أنها موضع لكنه لم يحدد مكانه^(١). لكن المصادر الأخرى أشارت إلى أنه على ثلاثة أميال إلى الجنوب من الطائف وبه مسجد عداس وفيه قرى متعددة وبساتين ومزارع، وهناك قرى أخرى في الطائف مثل العباء وغيرها^(٢).

موقع مدينة الطائف وتحديد مكانها :

الطائف إحدى مدن الحجاز الرئيسية الثلاث، تقع على بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مكة^(٣)، على ظهر جبل غزوان، وهي مرتفعة أكثر من خمسة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر^(٤). في سهل رملي محاط بالتلال المنخفضة^(٥). وهي مدينة قديمة - عرفت باسم وج ولم تعرف باسم الطائف إلا بعد تسويرها بجائطها المحدث بها^(٦). وهي محلتان تقعان على جانبي الوادي، واحدة يقال لها طائف ثقيف والثانية الوهط، وبينهما الوادي الذي تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأدم حيث اشتهرت المدينة بهذه الصناعة منذ القدم^(٧). وبسوتها متلاصقة ضيقة، والمدينة لها بابان، أحدهما لبني يسار والآخر لبني عوف

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٥٥، اتصلت بالطائف عمرانياً، ولشكيب أرسلان رأى حول التسمية (الارتسامات ١٢٨ - ١٣١) م هامش اهداء الطائف ص ٨٩.

الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.

(٢) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

الادريسي : نزهة المشتاق، ص ٢٦، طبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٧١.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٠.

جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٣٤.

(٤) ويذكر الهمداني أن غزوان هو جبل عرفة العالي الذي طلعت بعض الجبال منه.

الهمداني : الصفة، ص ٤٩، تحقيق التجدي.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

الادريسي : نزهة المشتاق، ص ٢٦ - ٢٧.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٠ وما بعدها.

(٦) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

وباب بنى يسار يسمى صعبا، وباب بنى عوف يسمى سامرات^(١). ولم تذكر لنا المصادر سعة المدينة وإن أشارت إلى أنها صغيرة إلا أن ياقوت حدّد عرضها باحدى وعشرين درجة^(٢) ويصلها بمكة طريقان أحدهما عن طريق وادى نعمان إلى عرفة فمكة وهى طريق قصيرة ومختصرة، والطريق الثانى من بئر ابن المرتفع إلى القرن فمكة^(٣).

وهي إلى جانب خصوبة أرضها وكثرة عيونها ومياهاها ووفرة محاصيلها كانت مركزا تجاريا مهماً ومحطة للقوافل التجارية الذاهبة إلى اليمن. لذا فانها ارتبطت بمكة اقتصاديا واجتماعيا وتاريخيا^(٤). وارتفعت مكانتها إلى مكانة مكة كما يظهر ذلك من قوله تعالى «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»^(٥).

ونظرا لتمتع مدينة الطائف باعتدال مناخها وخصوبة تربتها وكثرة مياهاها ووفرة فواكهها المختلفة ومحاصيلها المتعددة وتوسط موقعها على طريق القوافل التجارية بين اليمن وكل من مكة والمدينة، فقد أصبح ساكنوها شديدي التمسك بها منذ القدم. وفي العصر الجاهلي الأخير كان تجار مكة تصبون نفوسهم إليها لامتلاك ضيعة فيها أو قل مقاما يخفف عنهم ما يعانون منه في جو مكة الذى يصيب المرء بالخمول، ولقد درج أحفادهم على ذلك إلى اليوم، ولذا كانت وظلت حتى اليوم مصيفا لأهل مكة^(٦). هذه الميزات المناخية ساعدت على قيام

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩ - ١٠.

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩، طبعة ليدن، ١٩٠٩.

الاصطخرى : كتاب الاقاليم، ص ١٠، النسخة المخطوطة.

بن حوقل : صورة الأرض، ص ٣٢، طبعة ليدن، ١٩٣٨.

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ١١٢.

المهمداني : الصفة، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٤) الأزرقي : أخبار مكة، ص ١٨٨ - ١٩١، طبعة دار الأندلس.

(٥) القرآن الكريم : سورة الزخرف، آية رقم ٣١.

(٦) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩ وما بعدها.

جواد عبي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٣٤.

عبد الوهاب عزام، الرحلة، ص ٣٠٦.



١ - ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤ ، ص ٩٨. طبعة بيروت.

Atlas of the World, p. 133

٢ -

زراعة فيها كالحبوب والفواكه المتعددة، وكانت الزراعة من أهم مصادر الطائف الاقتصادية، ولذا دفعها موقعها الجغرافي المهم واختلاط أهلها بأهل مكة إلى قيامها بدور مؤثر في تجارة الحجاز بصفة عامة وأصبح هذا الموقع يمثل محطة للقوافل الذاهبة إلى اليمن والشام والعراق^(١). وأن موقعها المرتفع الحصين وسورها هيئاً لها منعة طبيعية وساعداها في صد الغارات الخارجية عليها وزاد من اعتزاز أهلها بها حتى قال الشاعر الثقيفي كنانة بن عبد ياليل^(٢):

كأن الله لم يؤثر علينا	غداة تجزأ الأرض اقتساما
عرفنا سهمنا في الكف يهوى	لدى وج وقد قسم السهاما
فلما آن أبان لنا اصطفينا	سنام الأرض ان لها سناما
أسافلها منازل كل حي	وأعلاها لنا بلدا حراما

أهمية مدينة الطائف:

ولأهمية هذه المدينة يجدر بنا أن نعالج في هذا البحث نشأتها وأهمية موقعها، ثم مكانتها الاقتصادية، وأهمية هذه المكانة بالنسبة إليها وإلى المدن الحجازية الأخرى المجاورة لها، ومكانتها السياسية والدينية باعتبارها مركزاً دينياً لا يقل أهمية في نظر ساكنيها في العصر الجاهلي الأخير عن مكة^(٣). وسنحاول أن نبين هذه الاعتبارات المتعددة لتبيان أهمية المدينة والدور الذي لعبته في الحجاز بجانب مكة والمدينة.

فن الناحية التاريخية، تعتبر الطائف مدينة موعلة في القدم، ومن المراكز الحضارية في الحجاز التي لا ترجع إلى العصر الجاهلي فحسب، بل تعود إلى

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٢٩.
البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٩.
ابن بطوطة : الرحلة ص ١٣٢، ١٥٤. فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٤٣.

(٢) البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٨.
(٣) ابن الكلبي : كتاب الأصنام، ص ٦ - ٨، الدار القومية للطباعة.
ابن قتيبة : المعارف، ص ٦٢١.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ - ٩٣.

فترات زمنية قديمة جدا، فقد كانت مسكنا لبني عبد بن ضخم وبني مهلائيل بن قيثان وغيرهم (١).

أما من الناحية الاقتصادية، فإن ارتفاع موقعها فوق جبل غزوان ساعد على اعتدال مناخها، بالإضافة إلى خصوبة أرضها ووفرة مياهها مما جعلها مركزا زراعيا واسعا ومصدرا لتجارة الحجاز المرغوبة (٢). وأكسبها هذا الموقع مركزا مهما بين مراكز الاستيطان في شبه جزيرة العرب، لأن الماء بمجد ذاته أصبح قيمة اقتصادية كبيرة، ولهذا ساعدت وفرة مصادره فيها على نشوء نظام رى الأغراض الزراعية، ولهذا بنيت السدود المتعددة لاحتجاز مياه الأمطار والاستفادة منها في فصل انعدام المطر، مما ساعد على ظهور الملكيات الزراعية الواسعة في المنطقة، سواء لأهلها من القبائل أو للموسرين من أهل مكة (٣). كما أهلها موقعها على الطريق التجاري الذى يربط اليمن بكل من مكة والمدينة أن تكون سوقا تجاريا رائجة ترتاده القبائل العربية في أكثر أيام السنة، مما جعلها المدينة الثانية في غرب شبه جزيرة العرب في العصر الجاهلي الأخير (٤). بل نستطيع أن نقول إنها كانت تتفوق عليها اقتصاديا، لا سيما وأن أرضها الخصيبة كانت تجارة التصدير فيها بمنتجات عديدة جعلت منها مركزا اقتصاديا مهما في منطقة مجدية كالحجاز (٥). ولهذا نرى أن موقعها الهام المرتفع وخصوبة أرضها ومياهها الوفيرة وتجارتها الرائجة وفرت لها مكانة هامة منذ القدم، حتى أنها احتلت الصدارة بين مدن الحجاز الثلاث في هذا الميدان، بالإضافة إلى صلات أهلها القوية بالبلاد الخارجية

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ١، ص ٣٠٣، طبعة دار المعارف.

الهمداني : الصفة، ص ٢١١، تحقيق النجدي.

العجمي : اهداء اللطائف، ص ٣٥ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٩.

عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص ٣٧٥ - ٣٧٦، طبعة دار النهضة.

لامانس : مدينة الطائف، ص ٣٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ٦، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

عبد الله بن خنيس : الحجاز بين اليامة والحجاز، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٤) لامانس : مدينة الطائف، ص ١٩١، الطبعة الفرنسية.

(٥) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

كفارس والشام وغيرها من المناطق المجاورة الأخرى لها^(١).

أما من الناحية الاستراتيجية، فإن موقعها المرتفع وأسوارها القوية قد أعطاها أهمية عسكرية خاصة، ومن دراستنا لغزوة الرسول لها سنة ٨ هجرية^(٢)، نرى عظمة وأهمية هذه المدينة من الناحية العسكرية، فعلى الرغم من محاولات الرسول المتعددة اقتحامها خلال مدة الحصار وبوسائل مختلفة، فإنه لم يستطع فتحها لقوة أسوارها ومناعة حصونها ودفاع واستماتة أهلها عنها واحتفاظهم بما يكفيهم من المؤن لسد حاجتهم لفترة طويلة، وهذه ميزة هامة بالنسبة إلى المدن المحصنة لأنها لا تحتاج إلى خطوط تموين، كما في المدن المكشوفة، ولذا كانت في مأمن من الغارات الخارجية على الرغم من محاولات القبائل الطامعة بها منذ القدم^(٣).

أما من الناحية السياسية، فإن مكانة الطائف التاريخية والاقتصادية والحربية والدينية هيأت لها مركزا سياسيا مهماً أهلها لكي تلعب دورا في منطقة الحجاز فيما بعد.

-
- (١) ابن هشام : السيرة، المجلد ٢، ص ٣١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ص ١٣ - ١٨، طبعة دار الفكر، بيروت ١٩٥٦.
- (٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٢ - ٨٥.
- ابن هشام : السيرة، المجلد ٢، ص ٤٧٨، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
- (٣) يذكر البكري طمع القبائل المجاورة بالطائف ومحاولة السيطرة عليها.
البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٦٧، وما بعدها.

الباب الأول

الطائف في العصر الجاهلي

الفصل الأول

سكان الطائف وعلاقاتهم الاجتماعية

أولاً: سكان الطائف

امتازت منطقة الطائف بميزات متعددة مثل اعتدال مناخها وخصوبة أرضها ووفرة محاصيلها وكثرة مياهها، جعلها موضع اعتزاز أهلها بها منذ القدم^(١)، فقد سكن الطائف من الأمم البائدة بنو مهلائيل بن قينان ثم سكنها بعدهم بنو عبد بن ضخم وهي من عبس الأولى^(٢). ثم قبيلة عدوان التي ظلت بها حتى غلبهم بنو عامر بن صعصعة وثقيف عليها، واستطاعت ثقيف أخيراً أن تستقل بها وتحافظ عليها وخاضت في سبيل ذلك حروباً متعددة إلى أن اعترف لها الجميع بها^(٣).

والأمم البائدة التي سكنت مدينة الطائف لا نعرف عنها إلا النزر القليل جداً من المعلومات لندرة المصادر الخاصة بها، ولعلّ أوثق ما نعرفه هو ما جاء عنها في الشعر القديم، فبنو مهلائيل بن قينان ذكرهم الشاعر حرث بن محرث الملقب بـ «ذو الأصبع العدواني» وهو من قبيلة عدوان التي ماتزال بقاياها تسكن الطائف إلى اليوم، وهو شاعر فارس وله وقائع مشهورة^(٤):

- (١) فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.
- عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٢٠٠ - ٢٠١.
- (٢) الطبري : الرسل والملوك، ١، ص ٢٠٣.
- الهمداني : الصفة، ص ٢١١، تحقيق النجدي.
- القلقشندي : نهاية الارب، ص ١٩٨ - ١٩٩، تحقيق إبراهيم الأبيالي، ١٩٥٩.
- (٣) البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٦٧ وما بعدها.
- القلقشندي : نهاية الارب، ص ١٩٨ - ١٩٩.
- (٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٣، ص ٨٥، طبعة دار الثقافة - بيروت.
- مجلة العرب [السعودية]، ج ١، ص ٢، ١، سنة ١٩٦٧. [دار الجامعة للنشر].

كلا الحيتين قد هلكا سفاها كما هلك ابن مهليل بوج
عدا بالخيّل من جلدان رهوا يحبّوب الأرض فجبا بعد فج

ويقصد الشاعر بالحين بنى عبد ضخم وبنى هانيء من ثمود، وانهم سكنوا
وج، وهو وادى الطائف المعروف آنذاك، وجلدان من أوديته الشرقية المعروفة إلى
الآن بهذا الاسم^(١). أما بنو عبد بن ضخم فقد ورد ذكرهم في شعر أمية بن أبي
الصلت الثقفي الطائفي بقوله:

كما أفنى بنى عبد بن ضخم فنا يذكو لصالها شراب
بنى بيض ورهط بنى معاذ وفيهم عزة وهم غلاب

وتذكر المصادر أن بنى عبد بن ضخم هؤلاء هم أول من اخترع الخط
العربي^(٢). أما ثمود فسنذكرهم في موضوع نسب ثقيف سيأتى فيما بعد.

نسب ثقيف

قبل التطرق إلى قصة انفراد ثقيف بالطائف، لا بدّ لنا من معرفة نسب هذه
القبيلة ليتسنى لنا دراسة نموّها وتكاثرها ودخولها الحروب المتعددة وانفرادها أخيراً
بالطائف.

من المعروف أن قبيلة ثقيف قبيلة كبيرة، ذات ماضٍ شريف، اختلف
النسابون في تحديد أصلها، ولهم في ذلك أربعة أقوال:

(١) الهمداني : الصفة، ص ١٢٠ - ١٢١.

الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠ - ٣١، تحقيق الجاسر والعلي.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٥٠ - ١٥١، طبعة بيروت، ١٩٥٦.

(٢) القلقشندي : نهاية الارب، ص ٣٣٧، الشركة العربية للطباعة.

ويذكر اليعقوبي في تاريخه إن اسماعيل بن ابراهيم أول من نطق بالعربية، وأن الله شقّ فاه
باللسان العربي. ويذكر الطبري أن العمالة أول من تكلموا بالعربية حين خرجوا من بابل.

اليعقوبي : تاريخ، ج ١، ص ٢٢١، طبعة بيروت.

الطبري : الرسل والملوك، ج ١، ص ٢٠٧، طبعة دار المعارف.

القول الأول :

أن ثقيفا من قيس عيلان، فينسيون ثقيفا إلى قسي بن منبه بن بكر بن هوزان ابن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فهم من قبائل هوازن وهوازن يجمعها ثلاثة أجداد كلها لبكر بن هوازن وهم بنو سعد بن بكر، وبنو معاوية بن بكر، وبنو منبه بن بكر^(١).

والقول الثاني :

أن ثقيفا هو قسي بن النبيت بن منبه بن منصور بن يقدم ابن اقصي بن دعمي بن ابياد بن نزار بن معد بن عدنان، وانهم انتسبوا إلى قيس^(٢). ويذكر ابن هشام^(٣)، أن أمية بن أبي الصلت، الشاعر الثقفي، قال:

قومي إياذ لو أنهم أممٌ أو لو أقاموا فتهزلَ النعمُ
قومٌ لهم ساحةُ العراقِ إذا ساروا جميعا والقول والقلمُ

وقال أيضا^(٤):

فإما تسألني يابثنَ عني وعن نسبى أخبرك اليقيننا
فأنا للنبيتِ أبنى قسيٍّ لمنصورٍ بن يقدمٍ أقدمينا

-
- (١) ابن حزم : جمهرة الأنساب، ج ٢، ص ٤٨٢، ٢٦٢.
ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
البكري : معجم ما استعجم، مجلد ٢، ص ٧٩، تحقيق مصطفى السقا.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢٦، طبعة القاهرة، ١٩٦٧.
السمعاني : الأنساب، ج ٣، ص ١٣٩، مطبعة المعارف العثمانية ١٩٦٣.
ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٥٣، طبعة دار الكتاب القاهرة.
اليقوي : تاريخ، ج ١، ص ٢٢٥، طبعة بيروت.
(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٤٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٦٦.
(٣) البكري : معجم ما استعجم، المجلد ١، ص ٧٩، تحقيق مصطفى السقا.
(٤)

وقال مالك بن عوف النصري :

ألا أبلغ ثقيفا حيثُ كانت بأننى ما حييتُ لكم مُعادى
فإننى لستُ مِنكُ ولستُ منى فحُلِي فى أحاطة أو إيادِ

فأجابه مسعود بن متعب^(١):

لا قيسكم منا ولا نحن منكمُ ولكُننا أولادُ نبتِ بن يقدَمَا
وان أدعُ يوما فى أحاطة تأتِنى كتائبُ خُرس لا أخافُ التهضما

أما القول الثالث :

ان ثقيفا من بقايا ثمود، فقد ذكر ابن عبد البر أن قبائل تنتمى إلى العرب وهي ليست منها، حمير من تبع، وجرهم من عاد، وثقيف من ثمود، وقال: روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: كل العرب من ولد اسماعيل إلا السلف وثقيف والأوزاع وحضر موت^(٢). إلا أن هذه الروايات تبدو ضعيفة الأسانيد لا تقوم على حجة مصدقة.

ويقول ابن كثير، أن أبا رغال هو أبو ثقيف وكان من ثمود^(٣). وهو الذى أرسلته قبيلة ثقيف مع أبرهة أثناء غزوه مكة دليلا له إلى مكة، وقد خرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس وهناك مات أبو رغال فدفن فيه فبرجت قبره العرب، فهو القبر الذى لا زال يرجم بالمغمس إلى الآن^(٤).

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) ابن عبد البر : الأنباه على قبائل الرواة، ص ٨٩ - ٩٢، طبعة القاهرة.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١، ص ١٣٧.

(٤) الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٤٢، طبعة بيروت.
ويذكر أن المغمس موقع بين الجعرانة والشرابع فى طريق السيل إلى الطائف ومكان القبر معروف إلى يومنا هذا.
بينما يذكر ابن هشام بأن المغمس موضع بطريق الطائف قريب من مكة.
ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ٤٨، طبعة الحلبي، ١٩٥٥م.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي شديد الانكار على من يقول: أن ثقيفا من بقايا ثمود، وكان يردد يزعمون أنا من بقايا ثمود، والله عز وجل قال: « وثمودا فما أبقى » (١).

وعلى ذكر ثمود، فقد ذكر الاصطخري أنهم قوم سكنوا قرية الحجر في وادي القرى وأن بيوتهم بنيت في الجبال وكانت تسمى الأثالب وهي بيوت متصلة بعضها ببعض والصعود إليها يحتاج لجهد ومشقة كبيرين (٢). وهم الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم، قال تعالى: « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين » (٣).

ويذكر الطبري أن ثمودا كفرت بزها وعاثت في الأرض فسادا فبعث الله إليهم نبيا هو النبي صالح ليصلح أمرهم ويدعوهم إلى توحيد الله، إلا أنهم رفضوا الانصياع له وأعلموه أنهم في شك من أمره، ويذكر كذلك أنهم كانوا يسكنون قرية الحجر في وادي القرى بين الحجاز والشام (٤).

أما المسعودي، فيذكر أن ثمودا سكنت بين الشام والحجاز حتى ساحل البحر الحبشي، وكانت بيوتهم منحوتة في الجبال، وهم الذين بعث الله فيهم النبي صالحا نبيا وهاديا ومرشدا فلم يطيعوه، ويقال أن بعضهم آمن بالنبي صالح (٥).

أما النويري فيقول: أن ثمودا جاءت بعد عاد تصديقا لما جاء في القرآن الكريم في سورة الاعراف، آية رقم ٧٤، وأنهم عمروا الأرض وكانوا بضع قبائل وفي كل قبيلة أكثر من سبعين ألفا سوى النساء والذرية ثم كثروا وصارت أعدادهم تقارب أعداد عاد من قبلهم وكانت بيوتهم منحوتة في الجبال وهي بين

(١) القرآن الكريم، سورة النجم، آية رقم ٥١.

(٢) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ١٩ - ٢٠، طبعة ليدن، ١٩٣٧.

ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٢، طبعة ليدن، ١٩٣٨.

(٣) القرآن الكريم، سورة الاعراف، آية رقم ٧٤.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ١، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، طبعة دار المعارف.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٤ - ١٨، طبعة دار الأندلس، ١٩٦٥.

الحجاز والشام في قرية الحجر بوادي القرى^(١).

أما الدكتور جواد على فقد أسهب في ذكر ثمود واستند في ذلك على ما أورده القرآن الكريم في ذكرهم على سبيل العظمة والاعتبار، وإن إسمهم جاء في القرآن في مواضع عديدة، منفردا ومقرونا باسم شعوب أخرى مثل قوم نوح وعاد^(٢). وذكر أن تاريخهم يعود إلى ما قبل الميلاد بزمان وأنهم عاصروا الآشوريين، ويذكر بعض الباحثين أن آخر ذكر ورد في الوثائق لقوم ثمود كان في القرن الخامس الميلادي، وأن قسما منهم كانوا في جيش الروم^(٣). وإن مواضعهم كانت في مناطق جبلية في وادي القرى وهي قرية الحجر والتي تسمى بالحريية حاليا^(٤).

لقد استطاع المستشرقون التعرف إلى الثموديين في كتاباتهم التي وجدوها في أماكن متفرقة في شبه جزيرة العرب، بما فيها منطقة الطائف والسواحل الشمالية للبحر الأحمر عند قرية الوجه، لكن ذلك لا يعني سكناهم في هذه الأماكن ودلت الكتابات على أنهم زراع ورعاة ماشية وأنهم كانوا أقرب إلى الحضرمين إلى البدو^(٥).

وخلاصة القول في ثمود إن الدراسات الحديثة أثبتت أن ثمودا كانوا جملة قبائل عاشت قبل الميلاد بزمن بعيد، وأنهم عاصروا الآشوريين، وأجمعت المصادر على أنهم سكنوا الحجر في وادي القرى وهي منطقة الحريية الحالية، ولم يسكنوا الطائف، لكن نفوذهم امتد إلى مناطق متعددة وخاصة التي وجدت لهم فيها كتابات ثمودية، ولم نعث في المصادر على ما يفيد انتهاء قبيلة ثقيف إليهم.

لكن هناك أسبابا دفعت النسابة إلى تشويه نسب ثقيف، منها موقف ثقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم والدعوة الإسلامية، ثم تحالفه التقليدي مع بني

(١) النويري : نهاية الأرب، ج ١٣، ص ٧١، طبعة الارشاد المصرية.

(٢) جواد علي : المفصل، ج ١، ص ٣٢٢.

(٣) نفس المصدر، ص ٣٢٥ - ٣٢٨.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفس المصدر، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

أمية وما كانت تشعر به الجماعة الإسلامية من بغض للحجاج بن يوسف الثقفي وغيره من الولاة الثقفيين الأشداء الذين ظهروا في الدولة الأموية، أمثال زياد ابن أبيه وغيره^(١).

مما سبق، أن الأكثر ترجيحاً إن ثقيفاً تنتسب إلى هوزان وهي من قبائل قيس عيلان — وهو ما أوردناه في القول الأول — ويتمسك معظم أبنائها بهذا النسب وعليه بنيت عصبيتهم ومفاخرتهم كما يتضح ذلك في الجدول المرفق^(٢).

بطون ثقيف

هم بنى قسي بن منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن مضر، ولقسي ثلاثة أولاد دارس وقد دخل ولده في الأزدي وعوف وهم الأحلاف، وجشم وهم بنو مالك^(٣). وقد تفرع منها البطون التالية:

أولا — (عوف — الأحلاف):

ثقيف فرقتان، عوف وبنو مالك، أما عوف فيستمنهم الأحلاف نسبة إلى تحالفهم مع غاضرة وهي بطن من جشم ضد بني مالك بن خطيط بن جشم بن قسي^(٤). ولعوف — الأحلاف — بطنان هما سعد وغيره^(٥)، تفرع منها البطون التالية:

-
- (١) احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٦٩.
 - (٢) المبرد : الكامل، ج ٢، ص ٦٦، طبعة القاهرة. انظر ما قاله المغيرة بن شعبة.
 - احسان العمد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٦٩.
 - (٣) ابن حزم : الجمهرة، ج ٢، ص ٤٦٨.
 - (٤) نفس المصدر ص ٢٦٦ — ٢٦٩.
 - (٥) نفس المصدر ص ٢٦٧ — ٢٦٩.
 - عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٨٥٨، طبعة بيروت.
 - نفس المصدر ج ٣، ص ٩٠٢.

١ - بنو معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف^(١) وهم:

رھط عروة بن مسعود الذی یروی ان النبی صلی اللہ علیہ وسلم قال فیہ «مثله مثل صاحب یاسین»، وصاحب یاسین هذا هو حبيب بن مری^(٢).

ومعتب بن مالک هو الذی بعثه النبی صلی اللہ علیہ وسلم إلى قومه داعیة إلى الاسلام فقتلوه - رحمه الله - وأمه سبیعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، وهو ابن خالة أمیة ابن أبی الصلت الشاعر الثقفي المعروف، وله من الولد عاصم بن معتب وأبوه مرة ومعاویة وأبو ملیح بن معتب، وهو الذی أسلم قبل اسلام ثقیف^(٣).

قلنا إن معتب أسلم قبل اسلام ثقیف فولد معاویة ابنة تزوجها الحسین بن علي، فولدت له علیا الأكبر المقتول مع أبيه فی واقعة کربلاء، وولد عاصم یعقوب ونافعا وولد أبو مرة: داود وأمه میمونة بنت أبی سفیان بن حرب بن أمیة، وابن أخیه المغيرة بن شعبة بن أبی عامر بن مسعود بن معتب من أهل بیعة الرضوان، وبنوه: حمزة وعروة والمطرف ویعفور وعمار والمغيرة، خرج المطرف منهم علی الحجاج منکرا لجوره فقتل وكان لعروة بن مسعود أخ یقال له الأسود بن مسعود، وابنه قارب بن الأسود الذی أسلم مع أبی ملیح^(٤).

ومنهم كذلك الحجاج بن یوسف الثقفي، والي العراق أيام الأمويين وهشام ابن أبی سفیان بن عامر بن معتب، أحد ولادة الطائف. وغیلان بن سلمة بن معتب الذی كانت له وفادة علی کسرى وریاسة علی قومه، وابنه عامر بن عیلان أسلم قبل أبيه وهاجر ومات فی حياة أبيه فی طاعون عمواس^(٥).

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧.

(٢) الطبري : الرسل والملوک، ج ٢، ص ٢١، طبعة دار المعارف.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفس المصدر، ص ٢٦٨.

وعمر بن أمية بن وهب بن عمر بن معتب الذي بنى مسجد الرسول في الطائف على موضع مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ حاصر الطائف، فهو مسجدهم اليوم وابن عمه الحكم بن عمرو بن وهب أحد الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلمت ثقيف^(١).

٢ - بنو غيره بن عوف بن ثقيف :

منهم بنو علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غيره بن عوف، ومنهم كذلك المغيرة بن الأخنس بن شريق بن عمر بن وهب بن علاج، قتل مع الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وكان أبوه من سادات مكة وابن ابنه يعقوب بن عتبة بن المغيرة المحدث.

ومنهم كذلك الحارث بن كلدة بن عمر بن علاج، طبيب العرب، وإليه ينسب بنو نافع أخى زياد وأبى بكره لأبيهما، ويتفرغ من هذا البطن بنو عقدة بن غيره^(٢).

٣ - بنو عقدة بن غيره، ومنهم :

أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيره المقتول يوم الجسر، وابنه المختار بن أبي عبيد الذي خرج في الكوفة، وصفية بنت أبي عبيد امرأة عبد الله بن عمر، وسعد بن مسعود أخو أبي عبيد له صحبة، وللمختار عقب ابن اسمه جبر بن المختار وابن آخر اسمه أبو أمية بن المختار تزوج أم سلمة بنت عبيد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيره الشاعر الذي قال^(٣):

إذا متُ فأدفننى إلى جنب كرمةٍ تروى عظامى عند ذاك عروقها

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٨.

(٢) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨.

عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٧ - ١٥٠. طبعة بيروت، ج ٢، ص ٨٥٦.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨. =

وهو الذى حدّ فى الخمر، وأبلى فى القادسية، ومات بأرمينية، وأمه كنود بنت عبد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، والشاعر أمية بن أبى الصلت بن ربيعة بن عوف بن عبد بن غيرة، وبنوه ربيعة ووهب وعمر والقاسم ولّي ربيعة بعض الولايات فى الإسلام، وكان القاسم شاعرا، وكانت أم أمية بن أبى الصلت رقية بنت عبد شمس ابن عبد مناف^(١).

ثانياً: جشم منهم بنو مالك

ولد جشم بن قيسي: حطيّطاً، وولد حطيّط غاضره ومالكا، أما غاضره فقد دخلت فى حلف مع عوف وسَمُوا الأحلاف لأنهم تحالفوا على بنى مالك وصارت غاضرة مع الأحلاف^(٢).

بنو مالك : أما بنو مالك فيتفرع منهم البطون الآتية:

١ - بنو حبيب بن الحارث بن مالك بن حطيّط:

منهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة ابن الحارث بن مالك بن حطيّط أحد أصحاب لواء (راية) بنى مالك يوم حنين وقتل يومئذ كافرا، ومن ولد عثمان هذا: عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان وهو الذى يقال له ابن أم الحكم بنت أبى سفيان أخت معاوية والذى ولي الكوفة، وعقبه بدمشق وابنه كان الحر بن عبد الرحمن أمير الاندلس لسليمان بن عبد الملك أثر قتله عبد العزيز بن موسى بن نصير، إليه ينسب بلاط الحر بشرقي قرطبة، ويتفرع من هذا البطن بنو اليسار^(٣).

= عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ٢، ص ٧٩٧، طبعة بيروت.

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٩.

(٢) ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٦.

٢ - بنو اليسار بن مالك بن حطيظ بن جشم:

منهم عثمان والحكم، والمغيرة وحفص وأبو عثمان وأمّية، بنو أبي العاص بن بشر بن عبد دهمان بن عبد الله بن همام بن أبان بن يسار بن مالك بن حطيظ، ولهم أعقاب بالبصرة وشرف وعدد بها، وعثمان منهم من خيار الصحابة، ولآه رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف في عهده وغزا فارس وثلاثة في بلاد الهند، وسنتكلم عنه في باب الفتوح، وإليه ينسب شط عثمان بالبصرة، وكانت أمه صفية بنت أمّية بن عبد شمس وكانت تحت عثمان بن أبي العاص رجحانة بنت أبي العاص بن أمّية، فولدت له محمد بن عثمان، ومن ولده عبد الوهاب بن عبد المجيد المحدث المشهور، وبنوه: عبد المجيد وزيايد وأبو العاص وأمهم بانه بنت أبي العاص الثقفية، ومحمد أبو الصلت من غيرها، وهو أكبر ولد أبيه وابن عمهم بشير بن عمرو بن ربيعة بن أبان بن يسار الذي اتهم في قتل عروة بن مسعود - رضي الله عنه - في الطائف (١).

ولوأردنا استقصاء هذه القبيلة ومشاهيرها لاحتجنا لكتابة بحث كامل في نسبها، وقد لاحظنا كثرة ارتباطها بقريش من حيث المصاهرة دلالة على شرفها وعلو مكانتها ومنزلتها.

أما مساكن عوف - الأحلاف - فلا تزال بوادي لية شرقي الطائف، وبوادي لقيم شمال الطائف، ومنهم الحمدة الموجودون بواديهم المعروف بوادي الحمدة (٢). وأما مساكن بني مالك فهم في شرقي وجنوب شرقي الطائف (٣).

-
- (١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٦.
انظر المقال الذي كتبه الأستاذ محمد سعيد كمال في مجلة العرب السعودية مجلد ٢، ج ٥، ص ٤٠٦ وما بعدها. منشورات دار الإمامة للنشر والترجمة.
 - (٢) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٧، طبعة بيروت.
 - (٣) نفس المصدر والصفحة.

انفراد ثقيف بالطائف وعلاقاتهم الاجتماعية

أما قصة انفراد قبيلة ثقيف بالطائف، فهي أن قسي (ثقيف) بن منبه نزل على عامر بن الظرب العدواني وهو من حكام العرب وحالفه وتزوج من ابنته وسكن «وج» وزرع فيها الكروم فنجحت زراعتها، وسكن أولاده المدينة وكانت عدوان مالكة لها^(١)، فتصاهر أولاد ثقيف مع بني صعصة بن معاوية بن بكر بن هوازن وسكنوا حول الطائف وفي داخلها، ونتيجة للظروف القبلية السائدة آنذاك تشاحنوا مع بني عدوان وأدى ذلك إلى قيام حروب بينها، تفرقت على أثرها جماعة عدوان وشنت أمرهم^(٢). وكان السبب المباشر في تفرق عدوان قتال وقع بينهم مما زاد في تفرقهم وتباغضهم، فكان ذلك سببا في ضعفهم وتفرقهم على يد بني صعصة^(٣)، فطمع بنو عامر بن صعصة فيهم وفي وج وأجلوهم عنها، لكن وج لم تصبح خالصة لهم لكثرة ثقيف وانتشارهم فيها^(٤). علما بأن الثقيفيين لم يفقدوا من قوتهم شيئا لعدم اشتراكهم في المعارك التي دارت بين عدوان وبني عامر بن صعصة فاحتفظوا بها وصارت المدينة بينهما^(٥). لكن بني عامر رفضوا أن يتخلوا عن بداوتهم، وفضلوا البادية على سكن المدن، كما وجدوا في منتجات وج الزراعية اشباعا لحاجاتهم من المواد الغذائية، لهذا كانوا يشتون في بلادهم بأرض نجد لسعتها وكثرة مراعيها ويصعدون إلى وج صيفا لطيبها واعتدال مناخها^(٦).

وعندما بدأت ثقيف تحس بقوتها المتزايدة وهمة رجالها الأشداء بدأت القبيلة تفكر بالاستقلال بها وطرد الآخرين منها بأي ثمن^(٧). وهنا بدأت تعد الخطط لتخطيط ذلك ولو على مراحل أو خطوات متتالية، وقرروا مفاوضة بني عامر بن

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١٠ - ١١.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

البكري : معجم ما استعجم، مجلد ٢، ص ٦٦ - ٦٧. تحقيق مصطفى السقا.

(٣) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٣، ص ٨٥، طبعة بيروت، ١٩٥٥.

(٤) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١ - ١٢.

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٦٨٤، طبعة بيروت.

البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٧.

(٦) البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٧.

(٧) ابن الأثير : الكامل، ج ١، ص ٦٨٥، طبعة بيروت.

صعصعة في أمر اقتسام ثمار وج فيما بينها، مقابل تخلي بني عامر عن الأرض لشقيف لزراعتها وفلاحتها، لأن الثقيين اختصوا بالزراعة والأعمال المدنية وقدموا الاغراءات لبني عامر وحسنوها لهم، وبينوا لهم أن بإمكانهم الاستمرار بالبقاء في أرض نجد ليفرغوا لأموالهم وماشيئهم بها وتوفر عليهم مؤن ووقت كثير وهم بذلك قد كسبوا خيرات الرّيف والبدو معا، ولا يتعرضون لمشقة التنقل والترحال صيفا وشتاء، وهذه الحجة المقنعة رضي بنو عامر بذلك^(١). وهذا ليس بالغريب في تلك المجتمعات البدوية والحضرية فغالبا ما كانت القبائل تتقاسم الأمكنة الصحراوية من الأرض بينهم، وبالاتفاق في أغلب الأحيان، وهكذا استطاعت قبيلة ثقيف أن تزيل الخلافات حول زراعة الأرض وحق الرعي فتملكت الطائف بدون حرب أو بمنازعات محدودة تقريبا^(٢).

ومن هنا وبعد أن أصبحت وج لهم وحدهم، وجهوا اهتمامهم إليها والعمل على أعمارها، وقام رجالهم بتدعيم مراكزهم فيها فعملوا جهدهم لتأمين حدودها من الطامعين بها، وبذلك بقيت موضع حسد العرب لها وطمعهم فيها. ولذا فكّرت بعض القبائل المجاورة في غزوهم وسلبهم وطردهم منها، فهاجمت جوع منها وج، واستنجدت ثقيف بحلفائها من بني عامر ولكنهم تخلّوا عنها ولم يقدموا لها أية مساعدة تذكر، ولكن ثقيفا استطاعت بقوتها الذاتية أن تصد الغزو وتحمي أرضها برجالها، وعلى رأسهم غيلان بن سلمة ثم ترد الغازين مهزومين عنها^(٣).

لكن جموعا من قبائل خثعم واليمن هاجمت المدينة ثانية، فقاد غيلان جنوده مرة أخرى ضدهم، وقاتل بهم قتالا عنيفا انتهى بهزيمة الغزاة هزيمة ثانية وكبيرة، فقتل وأسر على أثرها الكثير منهم، ثم عفا غيلان عن الأسرى وأطلق سراحهم وسجل مأثرة له بذلك العمل الكبير^(٤). وقبيلة خثعم هذه هي قبيلة قحطانية

(١) نفس المصدر، ص ٦٨٤ - ٦٨٥.

البكري، معجم ما استعجم، ص ٧٧ - ٧٨.

(٢) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٦٢، الطبعة الفرنسية.

(٣) البكري : معجم ما استعجم، المجلد الأول، ص ٧٧ - ٧٨. تحقيق مصطفى السقا.

الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٣٦، طبعة دار الثقافة - بيروت.

(٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٣٦، طبعة بيروت.

عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٣٣٣، طبعة دار الملايين بيروت.

ويذكر المؤلف أيضا أن أيام ثقيف يوم وج بينهم وبين خالد بن هوذ.

نفس المصدر والجزء، ص ١٤٩.

تنسب إلى خثعم بن أغار بن أراش بن عمرو بن الفوت بن بنت مالك بن زيد بن كهلان، وديارها كانت على طريق الطائف بجبال السراة وما والاها فهي قريبة من الطائف وعلى معرفة به تماماً^(١).

ومن هنا ونتيجة للغزوات المتكررة على المدينة اشتدت الحاجة لبناء السور حول المدينة حتى يمنع عنهم تكرار مثل هذه الهجمات ثانية، ففتحوا فيه بابين أحدهما لبني يسار وستوه صعبان والثاني لبني عوف وأطلقوا عليه سامرات وصار لزاما على كل منها حراسة بابه^(٢).

ولقد انتهزت قبيلة ثقيف هذه الفرصة حيث لم تنجدها بنو عامر في حربها ضد القبائل الغازية لتجد السبب المبرر للاستقلال الكامل في الطائف، وفي الموعد المعتاد لتقسيم ثمار وج ذهب بنو عامر إليها ليحصلوا على نصيبهم - أي النصف حسب الاتفاق - فامتنعت ثقيف عن تسليمه لهم، وذلك بسبب تخليهم عن مساعدتهم في صد غارات القبائل، واشتبك الطرفان في قتال انهزم فيه بنو عامر، فصارت الطائف ملكا لثقيف وحدها، وقد احترمت القبائل العربية واقع الأمر مرغمة فتركوها لهم وأقاموا بها سعداء وذوى غنى وكفاية فصار يضرب بذلك المثل^(٣) وقال أبو طالب ابن عبد المطلب:

منعنا أرضنا في كل حي كما امتنعت بطائفها ثقيف
أناهم معشر كي يسلبوهم فحالت دون ذلكم السيوف

وبعد ذلك سعت القبائل الأخرى للتحالف معها، وكثرت الأموال عندها حتى أصبح كثير من القرشيين يستثمرون أموالهم ويقضون فصل الصيف فيها وبين أهلها، لاعتدال مناخها في هذا الفصل على سائر بلاد الحجاز ولكثرة

(١) عمر كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ٣٣٣، طبعة بيروت.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١، طبعة بيروت.

(٣) ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١ - ١٢، طبعة بيروت.

البكري : معجم ما استعجم، المجلد الأول، ص ٧٨.

فواكها وخيراتها المتعددة التي تنفرد بها^(١). وبذلك سادت علاقاتها الاجتماعية نوع من الاستقرار فيما بينها ومع القبائل والمدن المجاورة الأخرى، وأصبحت حياتها أقرب إلى حياة الحضر منها إلى حياة البدو، وذلك بسبب ظروفها الجغرافية والاقتصادية حيث سكنت بقعة هامة في الحجاز تعتبر من أحسن وأغنى المناطق الحجازية^(٢).

وكانت قبيلة ثقيف تضم فرعين رئيسيين هما بنو مالك والأحلاف، وقد تأثرت علاقاتها الاجتماعية بالعلاقات السياسية فيما بينها وستحدث عن ذلك في فصل قادم. أما علاقة ثقيف بهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان الاجتماعية، فقد ارتبطت بها ثقيف بعلاقات أسرية فهم جميعا ينتمون لجد واحد^(٣).

أما علاقات ثقيف الاجتماعية بقريش فقد حدثتنا المصادر عن وجود مصاهرات أسرية قوية بين الجانبين منذ عهد مبكر^(٤). فهناك الكثير من رجالات قريش تزوجوا بثقفيات منهم عبد مناف جد الأمويين والهاشميين، فقد تزوج بربطة الثقفية وهي أم عمرو بن عبد مناف^(٥). والحسين بن علي بن أبي طالب تزوج بابنة معاوية بن معتب بن مالك بن كعب الثقفي والتي ولدت له علي الأكبر المقتول مع أبيه يوم كربلاء^(٦). وعبد الله بن عمر بن الخطاب متزوج بصصفية بنت أبي عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي^(٧). وعياض بن عدي متزوج بعصماء بنت عمرو بن أمية بن علاج الثقفي^(٨). والحارث بن زهرة كان متزوجا بلبنى ابنة أبي سلمة بن عبد العزى بن غيره بن عوف الثقفي^(٩). والحكم بن أبي العاص متزوج من ثقفية^(١٠).

- (١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٤ - ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
- ياقوت معجم البلدان، مادة الطائف، مجلد ٤، ص ٩ وما بعدها.
- الأزرقى : أخبار مكة، ج ٢، ص ١٥٧، هامش رقم (٦)، طبعة مكة.
- (٢) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.
- (٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ - ٢٦٦.
- (٤) احسان العمدة : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٧، طبعة بيروت.
- (٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ١٠٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
- (٦) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧.
- (٧) مصعب الزبيري - نسب قريش، ج ١٠، ص ٣٥٦ - ٣٥٧، طبعة دار المعارف.
- (٨) نفس المصدر، ج ٦، ص ٢٠١.
- (٩) نفس المصدر، ج ٧، ص ٢٦٥. (١٠) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٦٠.

وبالمقابل فالكثيرون من الثقفيين متزوجون بقرشيات، فعبد شمس بن عبد مناف تزوجت ابنته سبيعة بمالك بن كعب الثقفي وأنجبت معتبا الجد الاعلى للحجاج بن يوسف الثقفي وأختها رقية متزوجة بأبى الصلت بن ربيعة وخلفت له أمية بن أبى الصلت الشاعر الثقفي المعروف^(١). وأبوسفيان بن حرب بن أمية تزوجت ابنته آمنة بعروة بن مسعود الثقفي وأختها ميمونة كانت متزوجة بأبى مرة بن معتب بن مالك الثقفي أيضا^(٢). ويذكر ابن حبيب أن آمنة بنت وهب، أم الرسول صلى الله عليه وسلم جدتها السادسة من ثقيف، وفاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف جدتها السابعة واسمها حبيبة بنت عبد ياليل وهي من ثقيف^(٣). وفي ذلك دلالة واضحة على كثرة المصاهرات بين القبيلتين حتى قالت العرب: مكة من الطائف والطائف من مكة^(٤).

أما حياة ثقيف القبلية قد طبعت بالسماوات ذاتها التي طبعت بها القبائل العربية الأخرى، وأبرز هذه السماوات هي روح العصبية القبلية، والعادات والتقاليد المتبعة عند القبائل الأخرى، لذا اتسمت العادات التأثرية عندهم بالعنف فالدم لا يغسله إلا الدم، فأصبح الشرف معلقا بالتأثر إلا إذا قبل أهله الدية^(٥). كما فعل عروة بن مسعود في دفع دية قتلى بنى مالك الذين قتلهم المغيرة بن شعبة بعد رحلة الاسكندرية بمصر^(٦).

وعلى الرغم من الوحدة الظاهرية للقبيلة في صلاتها الاجتماعية فيما بينها وبين القبائل الأخرى، فقد كانت هناك تناقضات في الكيان الاجتماعي للقبيلة، ومن هذه التناقضات التقارب الاجتماعي بين أفراد الطبقة الواحدة من أجل الحصول على مركز القيادة أو الزعامة التي سوف تمنح أصحابها الحقوق

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٧ ، ٢٦٩.

(٢) انظر احسان العمدة : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٨، نقلا عن ابن حزم، كتاب الجمهرة، وابن هشام في سيرة النبي.

(٣) ابن حبيب : كتاب المجرب، ص ٩، ١٧، طبعة دائرة المعارف العثمانية، سنة ١٩٤٢.

(٤) احسان العمدة : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩، نقلا عن لا مانس — مدينة الطائف، ص

١١ - ١٢.

(٥) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ٣٣.

(٦) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٦.

والامتيازات وتفرض مطالبهم على الآخرين، وهذا واضح في علاقة بني مالك والأحلاف وكيف أن غاضرة انضمت ضد بني مالك مع عوف عندما تضاربت مصلحتها مع بني مالك^(١). وكذلك قيام الأحلاف الداخلية بين القبائل حتى تقوى الواحدة على الأخرى، وقد حدث هذا في ثقيف، فقد تحالفت بنو مالك وبنو نصر بن معاوية على أحلاف ثقيف لأخذ الثأر منهم^(٢). أما عادة وأد البنات فلم نجد لها أثراً في قبيلة ثقيف، رغم انتشارها في معظم بعض القبائل العربية الأخرى، وذلك يعود إلى حياة الطائف الاقتصادية التي لعبت دوراً مهماً في رفع مستوى أفرادها المعيشي لا سيما أن هذه العادة ظهرت نتيجة الفقر المدقع الذي اتسمت به حياة تلك القبائل التي مارست هذه العادة اللانسانية^(٣). وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه العادة خير تعبير حيث جاء في قوله تعالى «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً»^(٤). وبهذه المناسبة نقول إن عادة وأد البنات لم تكن سمة المجتمع العربي كله.

هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فقد كان الحكم والشاعر والكاهن من الشخصيات المؤثرة في مجتمع الحجاز، فالحكم من الرجال الأشداء الشرفاء يختارونه من بينهم بالتراضي ليحكم بينهم بالتراضي ليحكم بينهم في أمور الديات والمغارم والمنافرات الخاصة بالشرف وهم لذلك يقبلون أحكامه، ومن حكام ثقيف غيلان بن سلمة الثقفي^(٥). أما الشاعر فقد كان لسان قبيلته المتكلم وصحيفتها الناطقة والمدافعة عنها ومثلها في الأسواق والمؤتمرات الأدبية، لذا كان له دور خطير في المجتمع العربي بعامه، سواء في وقت السلم أو الحرب، ومن

(١) ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

(٢) لا مانس : مدينة الطائف، ص ١١٣ / ١١٥، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٣) انظر المقال الذي كتبه الدكتور جواد علي في كتاب الفصل، المجلد ٥، ص ٩٠ - ١٠٠. ولم يذكر أن قبيلة ثقيف كانت تستعمل عادة الوأد رغم ذكره لأسماء كثير من القبائل العربية الأخرى.

(٤) القرآن الكريم - سورة الاسراء ، آية رقم ٣١.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٨، طبعة بيروت.

ابن حبيب : كتاب المحرر، ص ١٣٣ - ١٣٥. طبعة دار المعارف العثمانية.

شعراء ثقيف المشهورين أمية بن أبي الصلت، وهو شاعر بليغ حتى إن رجال عصره وصفوه بأنه أشعر شعراء الحجاز المعروفين آنذاك^(١).

أما الكاهن، فقد كان يعتمد على تسخير الجن حينما يعرض عليه الناس. ومن كهان ثقيف عمرو بن أمية من بنى علاج، وهو الذى فسر لهم سقوط النجوم يوم نزول الدعوة الإسلامية على الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله أراد به أمرا عظيما، وكان الكهّان يعتقدون أن الأخبار تنزل من سماء إلى سماء حتى تصل إلى السماء الدنيا، فتسترقها الشياطين وتأتى بها إلى الكهّان من أهل الأرض فيحدثون بها وهم يخطئون ويصيبون وإن الله حجب الشياطين بهذه النجوم المقدّوة فانقطعت الكهانة^(٢).

أما ابن خلدون^(٣) فهو يفرق بين الكهانة والنبوة، وبين أصناف الكهانة نفسها فيقول:

إن الكهانة إحدى خصائص النفس البشرية بمعنى أنه لدى النفس الاستعداد للانسلاخ من المادية الممثلة في الجسد للاتصال بعالم الروح العلوي، وهذه الحالة قد تحدث بالفطرة وبدون اكتساب أو تعلم وفي لحظة مباشرة (لمحة) وهذا ما قد يحدث مع الأنبياء، لكن هناك صنف آخر من البشر أقل مرتبة في ذلك وأكثر نقصا يضطرون إلى الاستعانة بالمدركات والاكتساب فتتحرك قدرتهم العقلية بارادتهم، نزوعا لعالم الروح في حين أنهم ناقصون عن هذا العالم بالفطرة (الجبلة) أى أن الطبيعتين مختلفتان بين عالم الروح وبين الإنسان الذى يلامس الجسد المادّي، وعندما يعجز أمثال هؤلاء عن الوصول يتشبثون بما في هذا العالم من جزئيات مادية فيستعينون بالأجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٦٥، طبعة بيروت.

الأصفهاني : الأغاني، ج ٤، ص ١٢٣ - ١٣٦، طبعة دار الثقافة.

ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٠٦ - ٢٠٧، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

السهيلى : الروض الأنف، ج ١، ص ٢٣٦، طبعة القاهرة، ١٩٧١.

(٣) ابن خلدون : المقدمة، ج ١، من ص ٥١٨ إلى ص ٥٢١ تحقيق علي عبد الواحد وافي، ط ٢،

مطبعة لجنة البيان العربي، ١٩٦٥.

الكلام.. الخ كمشجع لهم على رؤية غيبيات عالم الروح فيصبح لديهم ملكة خاصة لادراك أمثال هذه الأمور وهؤلاء هم الكهان. ولأن نفوسهم ناقصة عن الكمال فهم يدركون جزئيات عالمنا أكثر من كليات العالم الآخر، لذلك يقوى خيالهم ويغصب لأنه وسيلة هذا النوع من الإدراك، ويؤكد ابن خلدون أن هؤلاء لا يصلون أبداً للكمال لأن وحيهم يصبح من الشيطان، وإن كان أرفعهم شأنًا هؤلاء الذين يستعينون في كلامهم بالسجع ليشغله عن الخواص فيجس في قلبه أى يتخيل أموراً غير واقعة فعلاً نتيجة لقذف الشيطان على لسانه فيتكلم وكلامه يكون إما صادقا أو كاذبا، لذلك يلجأ للظن والتخمين تمويهها على من يسأله.

أما النبوة، فأهم خصائصها الصدق لأنها إتصال من ذات النبي بالملا الأعلى بدون مساعدة أو اكتساب لمهارات معينة.

وهناك من يقول^(١). ان الكهانة انقطعت منذ زمن النبوة بعد رجم الشياطين بالشهب أيام البعثة النبوية والذين كانوا يتعرفون الأخبار من السماوات وينقلونها للكهان، لكن ابن خلدون يغلب الظن بأن الكهانة لم تنقطع لأن الآية ٩ من سورة الجن^(٢)، دلّت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء، وهو ما يتعلق بخبر البعثة النبوية ثم عادت بعد ذلك لما كانت عليه، ويؤكد ابن خلدون أن الكهان إذا عاصروا النبوة يعرفون صدق النبي ودلالة معجزاته، لأن لهم، كما قلنا، بعض الوجدان من أمر النبوة ولا يوقعهم في تكذيب النبوة سوى قوة مطامعهم من أنها نبوة لهم كما حدث مع أمية بن أبى الصلت الثقفي ومسيلمة الكذاب، لكن إذا تغلب الايمان انقطعت أمانيتهم ومطامعهم وأصبحوا أحسن المؤمنين، كما وقع لطليحة الأسدي وسواد بن قارب.

وخلاصة ما سبق، أن الكهان لعبوا دورا مؤثرا في مجتمع شبه جزيرة العرب بعامة ومجتمع الحجاز بخاصة.

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٠٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) قال تعالى : «وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا».

القرآن الكريم، سورة الجن، آية رقم (٩).

الأحوال الاقتصادية في الطائف وعلاقتها الاقتصادية بالمدن الأخرى، مع ذكر الأسواق التجارية ومركز الطائف منها:

تعتبر مدينة الطائف في العصر الجاهلي الأخير المدينة الثانية في إقليم الحجاز الواقعة في غرب الجزيرة العربية بعد مكة^(١). بل لربما كانت تتفوق عليها لولا وجود البيت الحرام بمكة، لتمتعها بالتربة الخصبة وكثرة المحاصيل المتنوعة وبعض الصناعات المحلية المختلفة، هذا بالإضافة إلى كونها مركزا تجاريا من مراكز شبه جزيرة العرب، لتوسط موقعها بين الحجاز واليمن والعراق، لذا كانت محطة ثانية بعد مكة للقوافل التجارية الذاهبة والقادمة من وإلى تلك الأقاليم الهامة آنذاك^(٢). لقد كانت الوديان المجاورة لها تمتد تجارة التصدير فيها بمادة وفيرة هيأت لها مركز الصدارة في حركة التعامل التجاري في منطقة مجدية كالحجاز، لهذا ارتبطت بالمدن المجاورة وخاصة مكة ارتباطا اجتماعيا واقتصاديا معار^(٣). وكانت المواد الرئيسية الثلاث المنتجة في الطائف النبلد والحبوب والخشب — لوازم لا يستغنى عنها، ولقد سمحت عملة التبادل هذه للثقفين في ندرة العمل المتداولة أن يوفرها لأنفسهم مكانة اقتصادية جيدة، وتأمين القروض والرسميل والاستثمارات الضرورية لمدينتهم وتجارتهم المطلوبة من مكة الغنية المجاورة لهم^(٤).

ولتبيان أهمية المدينة ودورها الاقتصادي في ذلك الوقت، لا بد لنا من معرفة أهم المنتجات الاقتصادية ومصدر انتاجها ومدى احتياج المدن المجاورة والعالم الخارجي لها لنستطيع أن نوضح الدور الرئيسي الذي لعبته المدينة اقتصاديا في ذلك الوقت.

(١) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة: عبد الحميد يونس والشتناوي.

لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية: مجلد ١٥، ص ٥٥.

ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥، الطبعة الرابعة.

لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، سنة ١٩٢٢.

(٣) وات : محمد في مكة، ص ١٧.

دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

فالزراعة تعتبر الحرفة الأولى والهامة في المدينة، ولقد ساعد اعتدال مناخ الطائف وجودة تربتها ووفرة مياهها وعذوبتها على قيام نشاط زراعي واسع النطاق فيها، وتعتبر الحنطة الانتاج الأول فيها، وعليها كانت تعتمد كل حواضر الحجاز وخاصة مكة، فكانت العير تخرج من الطائف إلى مكة محملة بالحنطة والحبوب، ومن أفضل الحبوب ماعرف باللقمي وهو نوع من الحنطة حبته كبيرة وينسب إلى لقيم إحدى قرى الطائف التي لا تزال معروفة إلى الآن ولا يزال هذا الاسم في بلاد نجد يطلق على الحب الجيد، ولو لم يزرع في الطائف^(١). ولم تقتصر زراعة الحبوب على الحنطة بل كانت زراعة الشعير وأصناف متعددة من البقول كالذرة والسلت والزوان والأرز والسمسم والجلبان وأنواع الحبوب التي تكال وتندخر مع العدس واللوبيا والحمص والماش والدخن وغيرها^(٢).

كما عرفت الطائف بمراعيا الكثيرة لوجود المياه الوفيرة التي تمد هذه المراعي بمادة الحياة فكانت بطون ثقيف الضاربة في قرارة والمخيمة في أطرافه كلها تعيش في أوبار إبلها وحليب نوقها، وللماشية في هذه البلاد قيمة كبيرة، لأن ما تنتجه يعادل ما تأتى به المزارع المخصبة والبقاع المنبتة، ومتى كثر العاملون في تربية المواشي استفادت البلاد من خيراتها المختلفة ألبانها وجلودها وصوفها وبرها^(٣).

كذلك اشتهرت الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع، ففيها يكثر النخيل والأعناب والموز والرمان والتين والخوخ والسفرجل والبطيخ والتارنج^(٤). وللنخيل

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥.

المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩، مطبعة ليدن ١٩٠٩.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤. مطبعة الترقى بدمشق ١٩٤٥

الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.

البلادري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٩.

انظر مجلة العرب [السعودية]، ج ١، ص ٢، ص ٦ وما بعدها، ١٩٦٧.

(٢) البلادري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٩.

(٣) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ٢٠٠ - ٢٠١، طبعة الترقى ١٩٤٥.

البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ٧٧، تحقيق مصطفى السقا.

(٤) البلادري : فتوح البلدان تحت مادة الطائف، مجلد ٤ ص ٩ وما بعدها.

المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩. =

والأعناب بصفة خاصة دور كبير في اقتصاديات الطائف، فالأعناب عليها تعتمد ثروة الطائف الاقتصادية، وكان إنتاجها منه كثيرا، وتذكر المصادر أن على جوانبها من الكروم والأعناب المختلفة مالا يوجد مثله في بلد من بلدان العالم. ولهذا ضرب بزيب الطائف المثل، ولقد كان في منطقة الوهط كرم كثير لعمر بن العاص بلغ مليون شجرة موضوعة على الأخشاب لحمايتها من التلف ولزيادة المحصول. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما خرج يلتبس نصرة أهل الطائف قبل فتح مكة رفضه الثقيفون وآذوه حتى أُلجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة أُنسي ربيعة مزروعة بالأعناب، ويذكر كذلك أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي لما أدى فريضة الحج مرّ بالطائف فرأى بيارد الزيب فقال: ما هذه الحرار؟ قالوا: ليست حرارا ولكنها بيارد الزيب^(١). ولقد كانت تخرج البعير من الطائف إلى مكة وغيرها من المدن الأخرى محملة بالزيب الذي شكل أحد أركان صادرات الطائف الزراعية، بجانب الحبوب^(٢). أما التمر فقد تمتع بشهرة كبيرة وواسعة، فهو طري وممتليء بالمادة انه يتوحد فيه الضرس^(٣). أما الرمان فيكثر في وادي لية وهو كبير الحجم، لذيق الطعم، بالإضافة للفواكه الأخرى المختلفة التي تشكل موردا هاما من موارده الاقتصادية^(٤). كما اشتهرت بأزهارها المختلفة الأنواع ذات الروائح الطيبة كالسوس والياسمين والنجس والورود المنوعة

== فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.

عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨ - ١٩ طبعة البصري، ١٩٦٢.

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٣٨٦، كلمة الوهط.

المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩، طبعة ليدن.

ويذكر الأزرقى كذلك أنه كان للعباس بن عبد المطلب كرم بالطائف وكان يحمل زيبه إليه وكان يداين أهل الطائف ويقبض منهم الزيب فينبذ ذلك كله ويسقيه الحجاج أيام الموسم.

الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١١٤، طبعة دار الأندلس - بيروت.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٩٥.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤.

(٣) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٣، الطبعة الفرنسية.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ٨، ص ١٥٢ - ١٥٣، طبعة بغداد.

عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨ - ١٩ منشورات البصري.

فيستخرج منها عطر يباع على الحجاج في موسم الحج، ولقد أضفى هذا الواقع على المدينة منظرا يبعث على الانشراح لزائرها حال دخولها^(١). وهذا ما دفع الكتاب والمؤرخين إلى وصفها بأنها قطعة من الجنة بالنسبة إلى الصحراء من حولها.

لقد لعبت حرفة الزراعة ومشتاجاتها المتعددة دورا بارزا في توفير العملة للطائف، لذا كانت مواردها متعددة من الناحية الزراعية.

أما بالنسبة لمواسمها الزراعية، فللطائف ثلاثة مواسم هي الربيع والشتاء والصيف، ولقد كانت المواسم الزراعية الربيعية تبدأ في (أوائل) الشتاء ويحصدونها في أواخر موسم الربيع، أما الشتوية فتزرع في أواسط الصيف وتحصد في أوائل الشتاء، أما الزراعة الصيفية فهي ما بين الأولى والثانية^(٢).

أما تربة الطائف فرملية طينية يكثر فيها الكلس، والبرودة فيها تساعد على نمو الأشجار والغابات الكثيفة وخاصة المناطق الجبلية، حيث كانت جبالها مكسوة بالأشجار ذات الأخشاب الصلدة. لذا فقد كانت تصدر الأخشاب إلى مكة، وتعتبر الأخشاب إحدى صادراتها المهمة في العصر الجاهلي المتأخر^(٣).

والى جانب حرفة الزراعة كان أهل الطائف يشتغلون بحرف أخرى متنوعة كصيد الحيوانات وتربية النحل واستخراج العسل، ثم حرفتي التجارة والصناعة^(٤). فبالنسبة إلى حرفة الصيد كانت غابات الطائف وجباله المكسوة بالأشجار الكثيفة مصدرا هاما لحرفة الصيد، فأكثر الصيادين كانوا يقبلون من

(١) فيليب جتي : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣.

عبد المنعم الغلاس : جغرافية جزيرة العرب، ص ١٨ - ١٩، طبعة البصري.

(٢) عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤.

الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٨٢.

(٣) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ١٣٤، طبعة بغداد.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٩٤.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٠، ١٣، ٢١، طبعة دار الفكر.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٤ - ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

مكة ومعهم كلاب الصيد لصيد الحيوانات والفهود والطيور لأكل لحومها والانتفاع بريشها وجلدها واتخاذها تسلية لهم، بالإضافة لكونها مصدرا من مصادر العيش قبيل ظهور الإسلام^(١).

أما تربية النحل واستخراج العسل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهر بها أهل الطائف، وكان العسل أحد مصادر ثروة الطائف سواء في العصر الجاهلي أو عصر الرسول، وتعتبر جبال الطائف مركزا لتواجد النحل وتربيته في الكهوف وخاصة مناطق شيماط وهي من أرض الطائف، وتعتبر أكثر أرض العرب عسلا، ويروى الأصمعي أن سليمان بن عبد الملك لما حج فأتى الطائف ووجد ريح الندغ وهو ماترعاه النحل وتعسل عليه، كتب إلى والي الطائف: «انظر لي عسلا من عسل الندغ والسماء وهو نبت آخر من مراعي النحل^(٢). ولا يشكل العسل مادة للاستهلاك المحلي فقط بل مادة للتصدير وخاصة إلى مكة^(٣). ويعتبر العسل من الأطعمة الشهيرة ذات المنفعة الضرورية للجسم ويعتبر كغذاء رئيسي وقتذاك وخاصة عسل الطائف حيث يربي النحل على أشجار الفاكهة المختلفة والورود المتنوعة. ولقد جاء ذكر كلمة العسل بما وعد الله المؤمنين في الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار فيها لبن وعسل مصفى^(٤). وكان العسل دواء لمعالجة المرضى، كما جاء في قوله تعالى: «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس»^(٥)، وقد كانت الجبال أحد مصادره وخاصة الكهوف وأعالى الأشجار، حيث كان النحل يستقر هناك لبعدها عن أعين الناس. قال الله تعالى: «وأوحى ربك إلى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون»^(٦). ولهذه الميزات في عسل الطائف فقد كان يطلب في سائر انحاء بلاد العرب، ويشكل مصدرا للدخل في ذلك الوقت، لذا كان يؤخذ من أصحاب العسل والمهتمين بتجارته

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٢) البكري : معجم ما استعجم تحت مادة خداب بني شابة مجلد ١ ص ٤٢٨.

(٣) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، ٨٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٤) القرآن الكريم : سورة محمد ، آية رقم ١٥.

(٥) القرآن الكريم : سورة التحل ، آية رقم ٦٩.

(٦) انظر القرآن الكريم ، سورة النحل ، آية رقم ٦٨.

العشر ، فقد كان الرسول يأخذ قربة غسل عن كل عشر قربات(١). ثم انقطعوا عن أدائها بعد وفاته، فكتب عامل الطائف إلى عمر بن الخطاب بذلك فأمره بأن يؤديوا إليه ما كانوا يؤديونه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن المعروف أن في الغسل العشر إذا كان في أرض العشر، أما إذا كان في أرض الخراج وفي الجبال والكهوف وعلى الأشجار فلا يؤخذ عليه العشر لأنه يكون بمنزلة الثمار(٢).

أما الصناعة، فقد عرف عن أهل الطائف نشاطهم الملموس في هذا الميدان سواء كانت صناعات مدنية أو صناعات حربية اقتضتها ظروفهم وقتذاك للدفاع عن مدينتهم ومواردهم فيها(٣)، ويعود نشاطهم الصناعي والعمراني هذا إلى عراقه تحضرهم(٤)، فبينما نجد كثيرا من القبائل العربية متنقلة نافرة من كل صناعة وزراعة، لأن الصناعة والزراعة في نظرها من الأعمال التي لا تليق بالرجل الطليق الشريف، ولذلك كانت تعد من يشتغل بها دونها في المنزلة ودون منزلة الأعراب، نجد أهل الطائف لا يستنكفون عن تعاطيها، وهذا سر تقدمها في الصناعة وحصولها على أهم مورد آنذاك(٥).

أما الصناعات التي عرفت فيها الطائف فهي صناعة الجلود (الأدم) ولهذا وصفها الهمداني بأنها «مدينة قديمة، وهي بلد الدباغ، تدبغ فيها الأدم الطائفية المعروفة(٦). وقد ذكر ابن المجاور أن الأدم يدبغ في الطائف ويباع على شكل طاقات والدباغ حرقه أكثرهم»(٧). والواقع أن اعتماد أهل الطائف على الجلود

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٦٧ . يؤخذ زق عن كل عشرة زفاق .
أبو عبيد : كتاب الأموال ، ص ٦٦٧ - ٦٦٨ ، تحقيق : محمد خليل . مطبعة الأزهر - القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ٦٧ .

أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٤٠ .

(٣) ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي ، ص ٥٠ ، مطبعة دار المعارف .

(٤) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ١٥ ، ص ٥٥ .

(٥) جواد علي : العرب قبل الإسلام ، ج ٨ ، ص ١٥٢ ، طبعة بغداد .

(٦) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، تحقيق عبد الله النجدي .

دائرة المعارف الإسلامية ، مجلد ١٥ ، ص ٥٥ . ترجمة عبد الحميد يونس .

(٧) ابن المجاور : صفة بلاد اليمن (تاريخ المستبصر) ص ١٣ .

كان كبيراً، لأنها كانت متيسرة لديهم وهي أسهل في العمل من الخشب أو الحديد أو الأشياء الأخرى بالنسبة إلى عمال جزيرة العرب في ذلك العهد. لذا كانت هذه الحرفة ذات شأن عندهم^(١). ولم نجد عند أشرف هذه المدينة أية غضاضة في تعلم هذه المهنة والمهن الصناعية الأخرى. فعروة بن مسعود الثقفي وهو من أكابر القوم وعيلان بن سلمة ذهبا إلى جرش في اليمن لتعلم حرفة صناعة الدبابات والمجانيق هناك^(٢). وقد كان الناس كافة يتعلمون الحرف الصغيرة المتنوعة والصناعات المتعددة خارج الطائف ويعودون إلى بلدتهم مكتسبين الخبرات المتعددة نتيجة ميلهم لهذه الحرفة وعدم استنكافهم عنها^(٣).

ولهذا التركز الصناعي في الطائف أثره في التجارة، سواء مع القبائل والمدن المجاورة أو العالم الخارجي، وبذلك أصبحت الصناعة من المصادر الهامة في الاقتصاد الطائفي وقتئذ. هذا بالإضافة إلى صناعة الخمر التي كثر عليها الطلب لأنها صناعة محلية وأقل ثمناً من الخمر الأجنبية التي كانت تستقدم من الشام والعراق^(٤).

أما التجارة، فلقد لعبت دوراً هاماً في حياة أهل الطائف الاقتصادية، ولقد عرفت المدينة في العصر الجاهلي الأخير بأنها مركز تجاري يلي مكة من حيث الأهمية لتوسطه بين الحجاز واليمن والعراق، تربطه بهذه البلاد علاقات تجارية وليدة، وأغلب هذه العلاقات تأتي بالتعاون مع قريش، صاحبة اليد الطولى، في التجارة لترويج بضائعها في تلك الأماكن^(٥). وكانت مادة الطائف التجارية منتجاتها الزراعية والصناعية، كالزبيب والحنطة والعسل والخمر والخشب والأدم المعروكة وهذه بضائع لا يستغنى عنها في شبه الجزيرة العربية وخارجها، وخاصة قريباً من منطقة الأسواق كسوقي عكاظ ومجنة، وكان لتنوع محاصيلها أثر في

(١) جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ٨، ص ١٥٣، طبعة بغداد.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، مجلد ٣، ص ٣٤٥ وما بعدها، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.

جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ١، ص ١٥٤.

ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي، ص ٥٠.

(٣) وات : محمد في مكة، ج ١، ص ١٧، تعريب شعبان بركات.

(٤) فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٤٣ - ١٤٤.

(٥) وات : محمد في مكة، ص ٢١٩، تعريب: شعبان بركات.

جعلها مركزا من مراكز التبادل التجاري^(١). وكان لفقر القبائل المحيطة بالطائف والبعيدة عنها والتي لم تتمتع الزراعة والصناعة أثر كبير في ترويج تجارة الطائف وأن تصبح لها سوقا هاما لتصريف منتجاتها، مما أتاح لها ازدهارا اقتصاديا، وقد تمثل ذلك في تدفق الأموال واستثمارها لصالح المدينة والقبيلة معا^(٢). هذا بالإضافة إلى ارتباط ثقيف بكل من فارس والشام ومصر بعلاقات تجارية. فغيلان بن سلمة الثقفي، أحد وجوه ثقيف بالطائف، اشتغل بالتجارة مع العراق وفارس، وقد بنى له كسرى بالطائف (اطما) وكان قصرا مبنيا بالحجارة^(٣). وكذلك وجد في الشمال على طول الطريق التجاري الذي يصل ما بين جنوب الجزيرة وبلاد الشام أبنية مخصصة لحماية الطريق التجاري ومراقبته اتقاء من اعتداءات البدو^(٤). وسواء كانت التجارة داخلية أو خارجية، فقد كانت موردا كبيرا لأهل الطائف ومصدرا من مصادر الاقتصاد عندهم، ساهمت في غناهم وزيادة أموالهم ومكتتهم من المساهمة في بناء وتحصين مدينتهم ضد الأعداء المتربصين بها، وخاصة القبائل المحيطة بهم.

ومن الشايت أن أكثر تجارة الحجاز كانت تسلك الطرق البرية وتتحاشى ركوب البحر. ويذكر الدكتور جواد علي في كتابه العرب قبل الاسلام أن أرباح العرب من التجارة البرية وعدم توفر السفن لديهم، قد حالت بينهم وبين البحر والاستفادة من تجارته، فانصرفوا للتجار بالطرق البرية السالكة الآمنة التي لا تكلفهم كثيرا، ولا تعرضهم للمخاطر التي يتعرض لها راكبو البحار^(٥). لكن إغراضهم عن التجارة البحرية لا يعنى عدم معرفتهم بالبحر، فيذكر الدكتور أحمد الشريف: «أن الآيات القرآنية التي تشير إلى البحر وعواصفه وما يجري فوفه وما يستخرج من جوفه، والتي تمتاز بوضوحها وجلالها الرائع ليست إلا صدى للنشاط التجاري والاتصالات البحرية بين الحجاز والحبشة وغيرها، وأنها تحمل

- (١) جمال سرور : الدولة العربية، ص ٤٦.
- (٢) لامانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.
- (٣) الآلوسي : بلوغ الارب ، ج ١، ص ٣٢١.
- لا مانس : مدينة الطائف، ص ١٠ ، الطبعة الفرنسية.
- (٤) لا مانس : مدينة الطائف ، ص ١٠، الطبعة الفرنسية.
- (٥) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٢٣، ١٢٤ طبعة بغداد.

طابع الخطاب الغريب الموجه إلى المخاطبين وهم من أهل الحجاز، وما كان ل هؤلاء من صلة بالأعمال البحرية المتنوعة وما كان يقوم في ثغور الحجاز وبخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة، وأن كثرة الآيات وتكرار التعداد وتنوع الأساليب، وهذه الحفاوة القرآنية في الإشارة إلى البحار وما فيها من منافع ما هو إلا صدى لما كان عليه أهل الحجاز من تعامل تجاري عن طريق البحر، وانهم كانوا يعرفون البحر وركوبه ويستخدمونه في أغراضهم المختلفة، ورغم أن أهل الحجاز لم يكونوا يمتلكون السفن، فإن هذا لا يعنى عدم اشراك تجارتهم عن طريق البحر ومنعها منه^(١). ويذكر عمرو بن كلثوم في معلقته بأنهم جابوا الدنيا، برًا وبحرًا، فضايق البر عن بيوتهم والبحر عن سفنهم حيث يقول^(٢):

ملأنا البر حتى ضاق عتًا وظهر البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي تخثر له الجبايرُ ساجدينَا

ومن هذه الأبيات يتضح أن عروضهم عن البحر لا يعنى في دمهم كرها له وخوفًا منه، انما لأنهم كانوا بعيدين عنه وليست لديهم المواد الكافية لبناء المراكب القوية المتينة الضخمة التي يكون بمقدورها حمل الناس بأمان وسلامة^(٣).

ولقد كان في الطائفت جالية من اليهود اشتغلت بالتجارة^(٤). إلا أن الربا في المعاملات التجارية هو الذى كان شائعا عندهم حتى أن القرآن الكريم وجه اليهم اشدَّ تقريع^(٥)، قال سبحانه وتعالى: «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا

(١) أحمد الشريف : مكة والمدينة (المقدمة) ص ٢٠٩ - ٢١٠، (بتصرف) طبعة دار الفكر.

انظر الآيات التى تشير إلى البحر :

الأنعام ٩٦، النور ٣٩، يونس ٢١، النحل ١٣، الاسراء ٦٦، فاطر ١١، الشورى ٣١ - ٣٢، الرحمن ١٨ - ٢٤.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٥٥، طبعة دار المعارف.

سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ١٩.

(٢) عمرو بن كلثوم - المعلقة - شرح المعلقات السبع للزوزني، ص ٢٢٤، طبعة بيروت.

(٣) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٨، ص ١٢٤.

(٤) مجلة المشرق الكاثوليكية : ترجمة لكتاب لا مانس، جزء ٢٩، ص ٨١٥، المطبعة الكاثوليكية.

البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٦، مطبعة النهضة المصرية.

(٥) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.

كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا، انما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا فن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ماسلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»(١).

ولكن التعامل بالربا فى العصر الجاهلي الأخير لم يكن خاصا بيهود الطائف بل كان أغلب التجار العرب يتعاملون به ولا يرون فيه شيئا معيبا مطلقا، بل كانوا يعتبرونه نوعا من البيع، وكان للمتعاامل بالربا فى مدينة الطائف شهرة فائقة عند جميع مدن الحجاز، وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون به(٢).

وتعتبر الطائف منطقة اصطيفاء لأهل مكة وغيرهم من أهل الحجاز، حيث المناخ المعتدل لوقوعها على سفح عالٍ من سفوح جبال السراة الحاجزة بين الحجاز وقلب شبه الجزيرة العربية، وقد جعلها وقوعها على منبسط فسيح خصب التربة كثير المياه بارد الهواء، كثير الفواكه والزروع كالمصيف يلجأ إليها الناس فى أشهر الصيف إذا اشتد الحر بهم.

وقد تغنى الجغرافيون القدماء بجمال الطائف وعذوبة هوائها وكثرة زروعها ونضارة العيش فيها، يقول المقدسي فى أحسن التقاسيم: «الطائف مدينة شامية الهواء باردة الماء كثيرة الفواكه، إذا تأذى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها حيث كانت مصيفا لهم»(٣).

وذكر فى أخبار مكة «أن الطائف مصيف أهل مكة»،. ويذكر ياقوت أن المصطافين كانوا مغتربين بالطائف، ويؤثر عن معاوية بن أبى سفيان أنه قال: إن أغبط الناس عيشا من يعيش بالطائف، ويصف النخيري زينب أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية، فيقول:

تشتوا بمكة نعمة ومصيفها بالطائف(٤).

(١) القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٥.

(٢) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب، ص ١ مطبعة الاعتماد المصرية.

ابن رسته : الاعلاق النفيسة، ص ٦١

(٣) المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٧٩.

(٤) الأزرقى : أخبار مكة، ج ٢، ص ١٥٧ هامش رقم ٦، طبعة مكة.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١٢، مادة الطائف.

وقد بلغ إعجاب العرب بهواء الطائف وكثرة فواكهها وزروعها أنهم قالوا:
أنها كانت في الأصل قطعة من أرض الشام حملتها الملائكة إلى الحجاز استجابة
لدعاء إبراهيم عليه السلام (١).

ومن الثابت أن سراة أهل مكة كانوا يملكون ضياعا في الطائف يلمون بها في
أشهر الصيف، هربا من حر مكة، ونقرأ في السيرة النبوية خبرا يرويه الطبري
عن عروة بن الزبير يفهم منه، أنه عندما اشتد الصراع بين المسلمين وأبي جهل
وجماعته أسرع كبار القرشيين في الطائف إلى مكة ليتلافوا الأمر وكانوا يصطافون
هناك، وكان الوقت آنذاك في أواخر الصيف (٢).

ويؤيد هذه الحقيقة المؤرخون المحدثون فنقرأ في دائرة المعارف الإسلامية خبرا
يقول: كانت الطائف عشية الهجرة مركزا فريدا بين مدن الحجاز لجوها المنعش
وفاكهتها اللذيذة وأعنائها وزبيها ومياهها المسيلة الباردة وموقعها المرتفع البارد
جعلها أقرب إلى بلاد الشام ومصيفا لأهل الحجاز (٣).

ويقول الدكتور جواد علي: «لقد كانت الطائف، ومازالَت، مصيفا طيبا
يقصده أهل مكة فرارا من وهج الشمس» (٤).

ويؤكد هذا المعنى المستشرق الفرنسي القديم سيديو حيث يقول: أن ربوع
الطائف الغني حيث المناخ المعتدل والمياه العذبة جعلته مصدرا من مصادر الثروة
الاقتصادية، فقد كان المصيف الأول لأهل مكة (٥).

ويذكر الدكتور أحمد الشريف «أن صلات قريش كانت وثيقة بقبيلة
ثقيف بالطائف، وقد كانت الطائف مصيف أهل مكة آنذاك» (٦).

(١) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ٧٧، طبعة بيروت.
ابن عراق : نشر اللطائف ، ص ١٢١ - مخطوط - مكتبة الأوقاف العامة، بغداد، تحت رقم
٤٧٩٦ تاريخ.

(٢) الطبري : الزسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٨، طبعة دار المعارف المصرية.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

(٤) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٤، ص ٢٠٩.

(٥) سيديو : تاريخ الاسلام، ص ٢٢، ترجمة : عادل زعيتر.

(٦) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر بدمشق..

ومن هذا كله يتبين لنا أن الطائف تحتل بين مدن الحجاز مركزا ممتازا من حيث خصوبة أرضها ووفرة ثمارها واعتدال هوائها، وقد عرف أهل الطائف باتباعهم سياسة الحياد وعدم الانحياز إلى أية جماعة كبرى من الجماعات المتصارعة في الحجاز وشبه الجزيرة العربية، كيف يحفظون على مدينتهم مكانتها ويفيدون بصفة مستمرة من ميزات الطبيعة دون أن يدخلوا في مشاكل سياسية أو اشتباكات حربية مع القبائل والمدن المجاورة، مما كان من الممكن أن يؤدي إلى ضياع فوائد هذا الوضع الجغرافي الفريد الذي امتازت به مدينتهم.

العلاقات الاقتصادية بين الطائف والمدن الأخرى والقبائل المجاورة لها

لا شك أن وضع الطائف الاقتصادي قبل الدعوة الإسلامية وعشية الهجرة كان قويا متينا، لما كانت تتمتع به المدينة من موارد الانتاج كالزراعة والصناعة والتجارة^(١). فالباحث في العلاقات الاقتصادية بين الطائف والمدن الأخرى، لا بد من أن يتجه أولا نحو دراسة العلاقات الاقتصادية بين مكة والطائف وبخاصة بين قبيلتي ثقيف وقريش. فالصلات الاقتصادية وثيقة بين القبيلتين، ولا يكاد يوجد غني في مكة إلا وله بستان أو أرض في الطائف^(٢). فللعباس بن عبد المطلب أرض بالطائف وكان الزبيب يحمل منها فينبد في السقاية للحجاج، وكانت لعامة قريش أموال بالطائف مستثمرة فيها، وبعد فتح مكة طمعت ثقيف فيها حتى إذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكين وصارت أرض الطائف مخرّفا من مخاليف مكة^(٣)، حتى اعتبرت مكة أشبه بمصرف كبير، فالقوافل التجارية الكبيرة لم تكن لشخص واحد، وإنما كانت هناك طرق لجمع المال من عدة أسر معروفة مثل أمية ومخزوم ونوفل وهاشم وبعدها تستثمر في أرض وتجارة الطائف^(٤). ولم تكن هذه العلاقة بينهم محض صدقة، بل كان بين القبيلتين اتفاق مصلحة بينهما، وهو اتفاق وثقت عراه روابط المصاهرة بين قريش والأحلاف من أهل الطائف، ولقد كان الكثير من أهل مكة يعيشون في الطائف، وكان من يقيمون من أهل الطائف في مكة لا يكادون يقولون عن أولئك، يعيشون فيها أحلّفا لأسرها الكبيرة وبخاصة الأمويين الذين كان لهم

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة: عبد الحميد يونس.

(٢) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٦٣، الطبعة الأولى، مطبعة الموسوعات، ١٩٠١.

الأزرقى: أخبار مكة، ج ١، ص ١١٤، طبعة دار الأندلس.

(٤) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ص ٧٩ - ٨٠، مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.

نفوذ واسع وأهمية اقتصادية كبيرة في الطائف، فلأخنس بن شريق الثقفي وعدي ابن أبي حمراء الثقفي دور بمكة ولآل الأخنس شعب فيها^(١). وكان تجار مكة يجلبون من الطائف الخمر والزبيب والأدم (الجلود المدبوغة) وهي مادتهم التجارية الرئيسية^(٢). ولصناعة الأدم مكانة في تجارة مكة، فبعد هجرة الحبشة أرادت قريش استرجاع المهاجرين إليها فبعثت عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فأخذوا للنجاشي هدايا من الأدم، ولم يتركها من بطارقه واحدا إلا أهديا له هدية منها^(٣). ولم يقتصر الأمر على الجلود، بل كان أهل مكة يستهلكون كثيرا من أعناب الطائف ورماتها وتمورها، كما شارك الثقفيون في قوافل مكة التجارية المبعة في الأسواق القريبة كسوق عكاظ مثلا^(٤). وتشير الآية القرآنية: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»^(٥) إلى خطورة وأهمية رجال الطائف، وأنهم ياثلون أهل مكة قوة وجاها، وفي هذا إشارة إلى ما كان بين مكة والطائف من ترابط وعلاقات وقد بلغ بعضهم مبلغ

- (١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة: عبد الرحمن يونس. الأزرقي: أخبار مكة، ج ٢، ص ٢٥٦، ٢٨٧، طبعة مكة.
 - احسان العمدة: الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩، طبعة بيروت.
 - البلاذري: فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٦، طبعة دار النهضة المصرية.
 - (٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٦، طبعة بيروت.
 - أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر.
 - لا مانس: مدينة الطائف، ص ٣٢، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.
 - (٣) ابن هشام: السيرة، المجلد ١، ص ٣٣٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
 - اليقوي: تاريخ، ج ١، ص ٢٤٣، ويذكر أهمية الأدم الطائفية.
 - (٤) عبد العزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص ٣٧٦، طبعة دار النهضة العربية.
 - أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ١٤٧، طبعة دار الفكر.
 - طه حسين: اسلاميات، ص ١٦ - ١٨، الطبعة الأولى، طبعة دار الآداب، ١٩٦٧.
 - (٥) القرآن الكريم: سورة الزخرف، آية رقم (٣١).
- ولقد أشار ابن كثير في كتاب تفسير القرآن العظيم إلى هذه الآية فقال: إن انزال القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ويعنون مكة والطائف، والرجلان أرادوا بها الوليد بن المغيرة وعنزة بن مسعود الثقفي، ويقول الظاهر أنهم كانوا يعنون رجلاً كبيراً من أية البلدين كان، وهذا يدل على ما كان للطائف من أهمية في نظر أهل مكة وقتذاك.
- أبو الفداء ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، ص ١٢٦ - ١٢٧، طبعة دار احياء الكتب العربية.

السيادة في البطون القرشية كالأخنس بن شريق، حليف بنى زهرة الذى كان مسموع الكلمة فيها مطاعاً، كما كانت قريش تشرك رجال الطائف فيما يهتها من الأمور الكبيرة، وقد كان عروة بن مسعود الثقفي أحد الرسل الذين بعثت بهم قريش لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم عند نزوله الحديبية^(١).

يتضح لنا من الدراسة تعدد الصلات والعلاقات بين الطرفين واشترك ثقيف في تجارة قريش حتى صار لها دور فعال في تجارة الشمال والجنوب، حتى إن الطائف أخذت تنافس مكة في التجارة وإن كانت مكة تتمتع بمركز قوي^(٢). هذه العلاقات تعززت بين الجانبين لما كان بينهما من روابط ومصالح اقتصادية مشتركة إذ كانت كل منهما مركزاً اقتصادياً مزدهراً قبل الإسلام بحكم كونها محطة من محطات التجارة بين اليمن وبلاد الشام من جهة ومركزاً للتبادل التجاري المحلي مع القبائل العربية المجاورة من جهة أخرى^(٣). فالطائف ومكة كلتاهما تكمل الأخرى حيث انتشرت الزراعة الواسعة والصناعة في الأولى، في حين احتفظت الأخرى بمكائنها التجارية والدينية معاً، والزراعة والصناعة عنصران هامان من عناصر التجارة، إذ لولاهما لم تقم هناك تجارة. لذا، نجد عدداً ليس بالقليل من أغنياء الطائف يتعاملون بالتجارة وإقراض المال مع تجار مكة، وهذه العلاقات أثرها في استثمارات أهل مكة لأموالهم في زراعة وصناعة الطائف، ونتيجة لذلك ظهرت الملكيات الزراعية في الطائف للقرشيين الأثرياء الذين كانوا يؤمون هذه المدينة خلال فصل الصيف للترويح عن النفس حيث الضياع والدور والبساتين والجو المنعش هنالك^(٤).

- (١) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٥٩٤، طبعة أكسفورد.
- أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ١٤٧ - ١٤٨، طبعة دار الفكر.
- (٢) ابن الجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢١ - ٢٢. طبعة لندن، ١٩٥١.
- مونجمرى وات: محمد في مكة، ص ١٧ - ١٨، تعريب شعبان بركات، طبعة المكتبة المصرية، ١٩٥٢.
- (٣) مونجمرى وات: محمد في مكة، ص ١٧ - ١٨، تعريب شعبان بركات، احسان العمدة: الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩، طبعة بيروت.
- (٤) ابن الجاور: تاريخ المستبصر، ص ٢١ - ٢٢، طبعة لندن.
- أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ٢٤، طبعة دار الفكر.
- احسان العمدة: الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٧٩.

وكان لقرب المدينتين من بعضهما بعضا ووجود القبيلتين القويتين فيها أثر في زيادة الصلة بينهما، لكن ذلك لم يمنع من وقوع التنافس بينهما في مسائل الحسب والنسب وميادين الشرف والتجارة، قال ابن خلدون في تاريخه: «قريش وملكهم في مكة، وكانت ثقيف جيرانهم بالطائف يساجلونهم في مذاهب العروبية وينازعونهم الشرف، وكانوا من أوفر قبائل هوازن^(١)، كل ذلك أدى إلى زيادة الصلة بينهما وأصبحنا أشبه بجمع تجاري مشترك، إذ لا يمكن لمكة أن تقوم بدور دون الطائف التي تمدّها بتجارة التصدير، وأصبحت الأسواق مركزا تجاريا هاما لهما لكن الأرجح أن هذه العلاقات لم تتوطد إلا بعد حروب الفجار التي وقعت بين قريش وكنانة من جهة وهوازن وثقيف من جهة أخرى^(٢)، وسنفرد بابا لهذه الحروب فيما بعد.

والعلاقة الثانية، بين ثقيف وهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان علاقات أسرية، فهم جميعاً ينتمون لجد واحد^(٣)، وتبع ذلك توطيد العلاقات بينهم ومنها العلاقات الاقتصادية المبنية على العلاقة الأسرية والقبلية. ولم تشر المصادر إلى أن هناك علاقة اقتصادية واضحة بين ثقيف ومجموعة قبائل قيس عيلان، وهذا موقف مشترك بين كل المجتمعات البدوية في شبه الجزيرة العربية تجاه مجاورها من البدو، لكن الثقفيين استطاعوا إيصال منتجاتهم إلى كلّ القبائل المحتاجة لها عن طريق الأسواق التي تشترك فيها القبائل، ولقد كان لهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان دور ومكان في الأسواق، وسنبين ذلك في فصل حروب الفجالة^(٤).

والعلاقة بين الطائف والمدينة (يثرب)، كانت على قدر كبير من التقارب، سياسيا واجتماعيا، وامتد ذلك إلى الحياة الاقتصادية وقد قربت بينهما حرفة الزراعة وحضارة المدن لأن كليهما صاحب زراعة وحضر^(٥). وهناك تشابه في المصلحة، لذا

(١) ابن خلدون : كتاب العرب، المجلد ٢، ص ٦٩٩، طبعة دار الكتاب اللبناني ١٩٦٦.

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب، ج ٥، ص ٣٨٠ وما بعدها.

(٣) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ - ٢٦٦.

(٤) ابن حبيب : كتاب المجبر، ص ٢٦٧.

لا مانس : مدينة الطائف، ص ٤، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

(٥) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٤٦.

حاولت الأحلاف التقرب إلى الأوس وإنشاء نوع من الحلف بينها ضد بني مالك، لأن الصراع كان قائماً بين الاثنين، فلم ترض الأوس بذلك وطالبت الأحلاف بوجود المصالحة وإنهاء النزاع لأن ذلك يجلب الكوارث على الطرفين^(١). لكن الأرجح أن بين الأوس وأحلاف الطائف تشابهاً في الظروف الاجتماعية والقبلية، ولأن الأوس أقلية من الناحية العددية، ولو أنهم لم يكونوا أقل من الخزرج من ناحية القوة، ولأن الأوس مهددة بالخزرج، هذا التشابه يكاد يكون له دور في خلق مثل هذه العلاقة بينها.

الأسواق التجارية في العصر الجاهلي الأخير ومركز الطائف منها:

كان للعرب في العصر الجاهلي الأخير وصدر الإسلام أسواق يعتمدونها في شهور السنة المختلفة، ولعل السبب في اختلافهم في تاريخ قيام الأسواق، أن العرب لم يكونوا يلتزمون كل سنة يوماً معيناً لاقامة السوق ويوماً لتقويضها وقد تختلف العادة من سنة إلى أخرى، ومن هنا كان التعاون، وإن كان يسيراً^(٢). وكان العرب ينتقلون من بعضها إلى بعض وتحضرها سائر القبائل العربية، البعيد منها والقريب، لغرض البيع والشراء، واقامة المناظرات الأدبية والفكرية حيث يلتقي فيها اليمنى والعراقي والعماني والشامي والنجدي والحجازي وتؤمها تجارة قريش وغيرها من الأمم الأخرى، كل منها تعرض مألديها من بضائع^(٣). وبذلك توثقت الصلات والعلاقات التجارية عن طريقها مما جعل قسماً منها ثابتاً، مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز حيث تلتقى فيها العرب للمبادلة والمتاجرة والمناظرة معاً^(٤).

ولقد كانت منتجات الطائف الزراعية والصناعية كثيرة تفيض عن حاجاتها

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، المجلد ١، ص ٦٨٦، طبعة بيروت.

مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ٢١٩ - ٢٢٠، تعريب: شعبان بركات.

(٢) القلقشندي: نهاية الارب، ص ٤٦٤، مطبعة الشركة العربية.

سعيد الأفغاني: أسواق العرب، ص ٢١٧ - ٢٢٥، طبعة دار الفكر، ١٩٦٠

ابن حبيب: كتاب المحرر، ص ٢٦٦ وما بعدها.

(٣) القلقشندي: نهاية الارب، ص ٤٦٤، الشركة العربية للطباعة.

(٤) عبد الله بن خيس: المجاز بين اليمامة والحجاز، ص ٢٤٢ - ٢٤٣.

المحلية لذا كان فائضها وهو كثير يأخذ طريقه إلى هذه الأسواق التجارية، سواء مباشرة عن طريق أهلها أو بواسطة القوافل المكية المتاجرة معها^(١).

ومن أشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذى المجاز ودومة الجندل^(٢). ويضيف عليها ابن حبيب في كتاب المحبر صحار ودبا والشحر وعدن والرابية، وتقع في مناطق مختلفة من بلاد العرب وتقوم بأوقات متباينة^(٣). وسنقصر الكلام على أهمها والاشارة إلى بقية الأسواق الأخرى، وهي:

أولاً: سوق عكاظ *

كانت عكاظ أعظم أسواق العرب، وكانت تقوم في سهل منبسط بين مكة والطائف، فهي أقرب إلى الطائف منها إلى مكة، حيث تقع جنوبه بمسافة تبلغ عشرة كيلو مترات^(٤). وتختلف المصادر في تحديد موقع عكاظ، فذكرت بعضها أنها تقع بين نخلة والطائف، وهي أرض فيها نخل لثيف بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال^(٥). بينما يذكر الأزرقى بأنها وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء في عمل الطائف وهي سوق لقيس عيلان وثقيف وأرضها لنصر^(٦). أما الرحالة ومنهم خير الدين الزركلي فيذكر أنها تقع في وادي لية في محلة تسمى اليوم «القهاوى» ويؤيد هذا القول الأمير شكيب أرسلان، أما عبد الله فلبتي فيرجع السيل الصغير موقعاً لعكاظ^(٧). أما الأفغاني فيذكر أنها كانت

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣٢، الطبعة الفرنسية، سنة ١٩٢٢.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٨، طبعة دار الأندلس.

(٣) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٥ وما بعدها.

هناك عدة مؤلفات تناولت عكاظ من بينها أحدثها سوق عكاظ لعلي حافظ وصدر من المكتبة الصغيرة عام ١٣٩٦هـ وسوق عكاظ في التاريخ والأدب، أصدره نادي الطائف الأدبي عام ١٣٩٦هـ وسوق عكاظ في الجاهلية والإسلام لناصر الرشيد وصدر عام ١٣٩٧هـ ومن الذين درسوا موقع عكاظ وتاريخه دراسة جيدة سابقة للمؤلفات المشار إليها حمد الجاسر وعبد الرحمن عزام وابن بلهيد.

(٤) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠ - ٣١، تحقيق صالح العلي وحمد الجاسر، طبعة دار الجامعة.

(٥) ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١٤٢، طبعة بيروت.

(٦) الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩٠، طبعة الأندلس، بيروت.

(٧) الزركلي : ما رأيت وما سمعت، ص ٧٩.

شكيب أرسلان : الارتسامات اللطاف، ص ١١٠.

على أرض واسعة تمتد من جنوب العشيرة إلى السيل الصغير^(١). وهكذا نجد أن الأكثرية تجمع على أنها في أعلى نجد. أما موعد قيام هذه السوق في كل سنة مع بداية هلال ذى القعدة وتستمر لمدة عشرين يوما^(٢). وعكاظ كانت أشبه بمعرض عام في شبه جزيرة العرب، وكانت سوقا عظيمة يقصدها العرب من كافة أنحاء الجزيرة، وكانت قبائل مصر أكثر القبائل تواجدا فيها لوقوعها في منطقتها^(٣). ولقد ساعد على نمو هذه السوق قيامها في الأشهر الحرم التي كان يحرم فيها القتال ويأمن الناس فيها على أموالهم وأنفسهم^(٤). وقد حثمت الضرورات الاقتصادية أن تحاط الأسواق بما يضمن للناس الأمن فيها. وهذه السوق كانت تباع مختلف التجارات والسلع الثمينة التي كانت تحملها قوافل التجارة من الشمال والجنوب والشرق والغرب وكان لتجارة قريش نصيب أكبر فيها لقرنها من مكة وسيطرتها على تجارتها، وحتى البضائع المسروقة والمسلوبة كانت تباع فيها، هذا بالإضافة إلى قيام المناظرات والمباهاة والمسابقات في قول الشعر والخطابة والبلاغة. وكثيرا ما كانت تعقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحل المشاكل المعقدة، وفيها تحمل الديون والاتاوات إلى أصحابها. ومع أن عكاظ كانت تقوم في الأشهر الحرم فانها لم تنج من قيام الحروب فيها كحرب الفجار مثلا^(٥). وكان لمنتجات الطائف المختلفة من زراعية وصناعية مكانة كبيرة فيها وبخاصة عن طريق قريش آنذاك.

ومن المرجح أن هذه السوق قد قامت في القرن الخامس الميلادي وعمرت أكثر من قرنين ونصف واستمرت حتى ظهور الإسلام وبعده^(٦).

محمد حسين هيكل : منزل الوحي، ص ٣٨٠.

(١) سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٨٨.

(٢) الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٧، طبعة دار الأندلس، بيروت.

وإن كان ابن حبيب يذكر أن السوق تقوم في منتصف ذى القعدة وتستمر إلى نهايته.

ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٧.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٨.

عبد الله بن خيس : المجاز بين الإمامة والحجاز، ص ٢٤٢ - ٢٤٩.

(٤) الأشهر الحرم هي أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم لا يجوز فيها القتال.

اليقوبي : تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١١٠، طبعة بيروت.

ابن هشام : السيرة، المجلد ١ - ٢، ص ٤٣، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٥) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٤ - ٨٧، طبعة دار الفكر.

(٦) عبد الله بن خيس : المجاز بين الإمامة والحجاز، ص ٢٤٧.

ثانياً: سوق مجنة وذى المجاز

أما مجنة، فتقع في مر الظهران ويشرف عليها جبلا شامة وطفيل، وهي على بعد عدة كيلومترات من مكة ولا تبعد كثيراً عن الطائف، وكانت سوقاً لكنانة، كما كانت تقصدها القبائل العربية في الأيام العشرة الأخيرة من ذى القعدة^(١).

وذو المجاز، سوق كانت لهذيل على مقربة من عرفة، أقرب لمكة من الطائف وتقوم في أول يوم من ذى الحجة إلى يوم التروية، ثم يخرجون يوم التروية من ذى المجاز إلى عرفة، وكان يوم التروية آخر يوم من أيام أسواقهم^(٢).

وهناك أسواق أخرى تقوم في مواعيد مختلفة من السنة مثل دومة الجندل وصمار ودبا والشحر وعدن والرابية وصنعاء وحضرموت يؤمها الناس للبيع والشراء والمبادلة^(٣).

أهمية مركز الطائف من الأسواق:

للموقع الجغرافي أهمية بالغة في تحديد مركز الاقليم أو المدينة من الناحية الاقتصادية، لا سيما إذا كان ذلك الاقليم واقعا أو تلك المدينة واقعة في منطقة تحيط بها القبائل من جهات مختلفة، وهذا ما ينطبق على الطائف، بالإضافة إلى منتجاتها الزراعية وكيف كانت تلعب دورا هاما وبارزا وبخاصة الأسواق الهامة مثل عكاظ ومجنة وذى المجاز التي كانت كلها في المنطقة الواقعة بين الطائف ومكة^(٤). فالطائف مدينة حجازية أرضها خصبة ومياهها وفيرة وبذلك كانت أرضا زراعية منتجة مختلف الأصناف الزراعية كالتمر والعنب والفاكهة المتعددة الأنواع والحبوب المختلفة بجانب الماشية والحيوانات^(٥). أما إنتاجها الصناعي فكان

(١) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩١، طبعة بيروت.

(٢) ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٢٦٨.

(٣) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩١، طبعة بيروت.

(٤) سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٢٤.

(٥) الأصفهاني : بلاد العرب، ص ٣٠ - ٣١، تحقيق: صالح العلي.

(٥) الهمداني : صفة جزيرة العرب، ص ١٢٠ - ١٢١، تحقيق النجدي.

عمر رضا كحالة : جغرافية شبه جزيرة العرب، ص ١٨٨ وما بعدها. طبعة القاهرة، ١٩٦٤.

الأدم وهي الجلود المدبوغة المصنعة تصنيعاً جيّداً، وبذلك كانت سلعة أكثر رواجاً في تلك الأسواق حتى قيل ان عكاظاً كانت لا تتعدى بضائع منتجات الطائف واليمن وبعض منتجات فارس والروم، ولتوفر الأمن والاستقرار والحرية لقيامها في الأشهر الحرم، أهمية خاصة مما يتيح للبضاعة المعروضة أن تباع وتحقق أكبر قدر ممكن من الربح، هذه الأرباح التي انعكست على أصحاب البضائع فوفرت لهم عملة التبادل وجعلتهم في وضع اقتصادي يحسد عليه، ولقد أدرك أهل الطائف ذلك، لذا دافعوا عن بلدهم دفاعاً مستميتاً في ساعات الخطر واشتداد الأزمات^(١). ولقد نافس الشقفيون أهل مكة تجارتهم وحاولوا إبعادهم عن هذه الأسواق، فكانت حرب الفجار التي وقعت بينهم واشتركت ثقيف فيها بجانب هوازن ضد كنانة وقريش وإن بدت هذه الحرب، لأول وهلة، حرباً سببتها العصبية القبلية والعادات الثأرية^(٢).

وكانت ثقيف قبيلة تاجرة طرحت سلعها في أسواق القبائل الأخرى وشاركت أهل مكة تجارة هذه الأسواق واحتلت مكانة مرموقة بينها^(٣).

حروب الفجار : أسبابها ونتائجها

الفجار بكسر الفاء، بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أنه كان قتالاً في الشهر الحرام، ففجروا فيه جميعاً فسمي الفجار^(٤). والتسمية جاءت من وقوع هذه الحرب في الشهور التي يحرمون فيها سفك الدماء وهي أربعة: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم^(٥). وهي فجاران الأول ثلاثة أيام وهي ليست حرباً

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ١٠ - ١١، الطبعة الفرنسية ١٩٢٢.

(٢) السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢١١، طبعة القاهرة، ١٩٧١.

(٣) مونترجمي : محمد في مكة، ص ٢١٩، تعريب: شعبان بركات.

(٤) ابن هشام : السيرة، مجلد ١، ص ١٨٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٥) السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٢١١، طبعة القاهرة. تحقيق: عبد الرحمن الوكيل.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١٠، طبعة بيروت.

الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٩٢، طبعة الأندلس، بيروت.

السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٦٣ - ٦٤، طبعة القاهرة.

بالمعنى المعروف لهذه الكلمة، إنما كانت مناقشات ومهارات وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة انتهت إما بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى^(١).

فى اليوم الأول، وقعت الخصومة بسبب تناول بدر بن معشر الغفاري وهو من كنانة على الناس بأن جلس بعكاظ فى الموسم والعرب مجمعة فيه قد رمله وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف. ونتيجة لهذا التحدي وثب عليه رجل من هوازن اسمه الأحمر بن هوازن فضربه بالسيف على ركبته فقطعها، فتحاور الحيان أهل الضارب والمضروب حتى كاد أن يكون بينهما الدماء، لكنهم تراجعوا بعد أن عرفوا أن المشكلة بسيطة ولا تستحق الخصومة والقتال^(٢)، حتى إن ابن الأثير لم ير فى ذكره أمرا يستحق الذكر^(٣).

وفى اليوم الثانى، وقعت الخصومة والقتال بسبب عبث شباب من قریش وكنانة بامرأة من بنى عامر بن صعصعة كانت جميلة ووسيمة وعليها برقع، فأرادوا كشف برقعها فامتنعت فثارت ونادت إلى عامر ونادى الشباب قومهم، فالتحموا فى قتال عاطفي لا يستدعى ذلك، ف وقعت بينهم دماء يسيرة انتهت بتوسط حرب بن أمية والحارث بن أمية باحتمال دماء القوم ودفع الدية^(٤).

واليوم الثالث وقع بسبب رجل من كنانة كان عليه دين لرجل من بنى هوازن ولم يعطه شيئا منه، ولما لم يجد بدا من تحصيل هذا الدين جاء بقرد إلى سوق عكاظ ونادى: من يبيعنى بمثل هذا القرد بما لى على فلان بن فلانة

(١) أبو الفضل إبراهيم : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٢، طبعة الحلبي المصرية.

جواد علي : المفصل فى تاريخ العرب، مجلد ٥، ص ٣٨٠.

(٢) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٢٢، ص ٦١، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠.

ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥٩.

أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٢ - ٣٢٣.

جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٠ - ٣٨١.

(٣) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٨٨، طبعة بيروت.

(٤) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٦٢، طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠.

أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٢٤.

جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨١، طبعة بيروت.

ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥٢.

الكنناني، فأغاظ الأمر رجلا من كنانة فضرب القرد بالسيف وقتله فاشتبك الطرفان، كنانة وهوازن حتى تهاجزوا ولم يقع بينهما قتلى فأصلح عبد الله بن جدعان، أحد أثرياء مكة بينهما^(١).

ومدة الفجار الثاني كانت خمسة أيام وقعت في أربع سنين وكانت بعد الفيل بعشرين سنة، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة، وانتهت سنة ٥٨٩ م^(٢). وتذكر المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حضر يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل، قال ابن هشام: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت أنبل على أعمامى، أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموا بها^(٣). وقد اختلفت المصادر في تحديد عمر الرسول وقت وقوع هذه الحرب، فبينما يذكر ابن هشام أن عمره كان ١٤ - ١٥ سنة، يخالفه اليعقوبي فيذكر أن عمره كان بين ١٧ - ٢٠ سنة، أما صاحب الأغاني فيؤكد أن عمره كان أربع عشرة سنة^(٤).

والأرجح أن هذه الحروب بدأت والرسول عمره ١٤ سنة وانتهت وهو في التاسعة عشرة أو العشرين.

كان الذى هاج هذه الحروب رجلا خليعا سكيذا فاسقا هو البراض بن قيس بن رافع الكنناني^(٥). أتعب قومه فخلعوه وتبرأوا منه، وصار يتنقل من قبيلة إلى

(١) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٨٨ - ٥٨٩، طبعة بيروت.

الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٢٢، ص ٦٢، طبعة دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠.

جواد علي : المفضل، مجلد ٥، ص ٣٨١، طبعة بيروت.

أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٢٥، طبعة الحلبي القاهرة.

ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٢٥٢.

(٢) ابن الأثير : الكامل، مجلد ١، ص ٥٨٩.

أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٢٢.

الأصفهاني : الأغاني، مجلد ٢٢، ص ٦٣، طبعة بيروت.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٨٦، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٨٤ - ١٨٧.

اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٥، طبعة بيروت.

الأصفهاني : الأغاني، مجلد ٢٢، ص ٦٣، طبعة بيروت.

(٥) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٨٦، تحقيق : عبد السلام هارون.

أبو الفضل : أيام العرب، ص ٣٢٦.

أخرى يطلب الحماية والجوار، لكن الجميع لفظوه وتبعوا منه فذهب إلى مكة مستجيرا بحرب بن أمية، فحالفه وأحسن جواره، ولربما أن أجارته من قبل حرب بن أمية كانت فيها مصلحة له لاثارة الخلافات مع مجموعة قبائل قيس عيلان لانتزاع السيطرة منهم على طريق العراق التجاري مع الحجاز. لكنه شرب وعاد سيرته الأولى فخلعه حرب فخرج من مكة وذهب إلى الحيرة عارضا على النعمان بن المنذر حامية لطيمته التي كان يرسلها كل عام إلى عكاظ^(١). وعندما سمع بذلك عروة الرحال وهو يومئذ رجل هوازن^(٢)، احتقره وطلب من النعمان أن يحير هو لطيمته فقبل النعمان، لكن البراض تعقبه وغافله وقتله واستاق اللطيمة إلى مكة ولما بلغ هوازن وكنانة مقتل عروة هاج الطرفان واشتبكا في قتال استمر أربع سنين، وكانت أيامه خمسة هي: يوم نخلة، وشمطة والعبلاء وعكاظ والحريرة، انتهت هذه الحروب بالصلح وعودة العلاقات بين كنانة وقيس عيلان كما كانت في السابق^(٣).

ولا بدّ لنا من استعراض هذه الأيام الخمسة لنبيّن دور ثقيف في هذه الحروب وسبب اشتراكها فيها.

فقد سمي اليوم الأول «يوم نخلة» نسبة إلى موقع نخلة الذي وقع فيه القتال، وهو موضع على ليلة من مكة فيها نخل وكروم^(٤). وقعت هذه الحرب بعد سماع هوازن بمقتل عروة الرحال من قبل البراض بن قيس، وكان نتيجة القتال أن دخلت قريش الحرم بعد أن أدركت هزيمتها حتى تأمن به، واعتبر هذا اليوم من أيام قيس عيلان على كنانة وقريش^(٥).

- (١) ابن الأثير: الكامل، مجلد ١، ص ٥٩٠.
- جواد علي: المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨١ - ٣٨٢.
- (٢) ابن حزم: الجمهرة، ص ٢٨٦.
- (٣) ابن الأثير: الكامل، مجلد ١، ص ٥٩٠ - ٥٩٥.
- أبو الفضل: أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٢٦، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٧.
- الأصفهاني: الأغاني ج ٢٢، ص ٦٤ - ٧٩، طبعة الثقافة، بيروت ١٩٦٠.
- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٥، ص ٢٥٦ - ٢٥٨.
- (٤) البكري: معجم ما استعجم، المجلد الثالث، ص ١٣٠٤ - ١٣٠٥ تحقيق مصطفى السقا.
- (٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ص ٥٩٢ - ٥٩٣.

واليوم الثاني يوم شمطة وهو نسبة إلى موضع قريب من عكاظ^(١). وترأس المقاتلين سادات ذلك الوقت المعروفون. فعلى كنانة كلها «حرب بن أمية» ومعه عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة^(٢)، وعلى هوازن وسليم كلها مسعود بن معتب الثقفي واشتركت معهم قبائل أخرى مثل: بنو نصر وبنو جشم وفهم وعدوان وكلها من مجموعة قبائل قيس عيلان^(٣). وبسبب تجاور منازل هذه القبائل. فبنو نصر كانوا يسكنون وادي لية شرقي الطائف^(٤). وجشم مواطنهم بين تهامة ونجد^(٥). وعدوان كانت منازلهم شرق الطائف^(٦)، وسليم كانت منازلهم في عالية نجد^(٧). هذا التجاور خلق لهذه القبائل تشابها في المصلحة، لا سيما وأن طريق العراق التجاري كان يمر بأراضي قيس عيلان. وكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن، لكن صمود هوازن قلب موازين المعركة لصالحها فانكشفت كنانة، واستمر القتال فيها، ولم يقتل من قریش أحد، فكان هذا اليوم لهوازن على كنانة وقریش^(٨).

واليوم الثالث، هو يوم العباء، والعباء علم على صخرة بيضاء إلى جنب عكاظ^(٩). ولقد عادت هوازن وكنانة إلى الحرب، فجمع القوم بعضهم إلى بعض

== جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢.

أبو الفضل إبراهيم : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٣، ص ٣٦٣، طبعة بيروت.

(٢) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٥٩٣.

(٣) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٥٩٣.

جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٢.

(٤) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، مجلد ٣، ص ١٨٨١، طبعة بيروت.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٨٩.

(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٦٢.

(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤٣.

(٨) ابن الأثير : الكامل، المجلد الأول، ص ٥٩٣.

جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٢.

أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٩) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٢٢، ص ٧١، طبعة دار الثقافة، بيروت.

جواد علي : المفصل، مجلد ٥، ص ٣٨٣.

== أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٣٣.

والتقوا على قرن الحول بالعبلاء، وهو موضع قريب من عكاظ والرؤساء يومئذ على ما كانوا عليه يوم شمطة وفيه انهزمت كنانة^(١). وفي هذا اليوم قتل العوام بن خويلد والد الزبير بن العوام. قتله مرة بن معتب الثقفي، وفي ذلك يقول رجل من ثقيفه^(٢).

منّا الذى ترك العوام مجندلا تنتاب الطير لحما بين أحجار

واليوم الرابع من أيامهم كان يوم عكاظ وهو يوم استعداد كنانة للانتقام من هوازن على أثر هزيمتها في العبلاء، فالتقوا في هذا الموضع، وكان الرؤساء بجاهلهم، وحمل عبد الله بن جدعان يومئذ ألف رجل من كنانة على ألف بعير وخافت قريش أن يجرى عليها ما جرى يوم العبلاء من هزيمة، فقيد حرب وسفيان وأبو سفيان بنى أمية بن عبد شمس أنفسهم وقالوا لا نبرح مكاننا هذا حتى نموت^(٣). وقد اشتركت في هذه الحرب سائر بطون كنانة والاحابيش وهم بنو الحارث بن عبد مناة وعليهم الحليس بن زيد وسفيان بن عوف، وكذلك سائر بطون قيس عيلان مثل هوازن وثقيف ونصر وفهم وعدوان وسليم، وكانت حربا ضروسا انتهت بهزيمة مجموعة قبائل قيس عيلان وانتصار كنانة عليها، وقد اشترك من ثقيف مسعود بن معتب الثقفي الذى أخرج معه أولاده عروة ولوحة ونويرة والأسود فكانوا يدورون وهم غلمان في قبائل قيس يأخذون بأيديهم إلى خباء أمهم، ذلك الخباء الذى ضربه مسعود بن معتب لتدخله قريش وتأمين على روحها وهو نوع من الاستعلاء والاستصغار بقوة قريش، وكانت امرأة مسعود هي

ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٦، ص ١٠٧.

(١) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧١.

جواد علي : المفضل، ج ٥، ص ٣٨٣.

أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٣٣.

ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٦، ص ١٠٧.

(٢) أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٣٣.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧٣ - ٧٤، طبعة دار الثقافة.

جواد علي : المفضل، مجلد ٥، ص ٣٨٣.

أبو الفضل : أيام العرب في الجاهلية، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف، لكن هذا الخباء كان لقيس بعد هزيمتها،
فقليل لذلك الموضع مدار قيس استهزاء بها^(١).

واليوم الخامس يوم الحريرة، والحريرة موقع بين الأبواء ومكة قرب نخلة^(٢).
والرؤساء بمحلمهم ماعدا بلعاء بن قيس فانه قد مات فحل محله أخوه جثامة بن
قيس، وبعد قتال بينهم اتفقوا على الصلح وتسوية الديات وانصرف الناس عن
الحرب^(٣). ومن قتلى هذه الحرب العوام بن خويلد وحزام بن خويلد وأحيحة بن
أحيحة ومعمر بن حبيب، ومن قتلى قيس الصمة وهو أبو دريد بن الصمة رجل
هوازن المعروف الذى قتل فى حنين^(٤).

وخلاصة القول أن حرب الفجار الأولى كانت مناقشات ومهارات، وقعت
لأسباب عرفية تافهة وبسيطة وانتهت بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى
كما بيّنا سابقا. فان الحرب الثانية لم تحدث لأسباب عرفية بسيطة كما هو
معروف، وانما لعبت عوامل المنافسة للسيطرة على الطرق التجارية دورا بارزا
فيها، لكن هذه المنافسة أخذت طابع الحرب القبلية بسبب مقتل البراض بن
قيس الكنانى لعروة الرجال رجل هوازن آنذاك، ولأن العادات والتقاليد والعرف
عند العرب فى العصر الجاهلي أن الثأر لا يكون من شخص القاتل إلا إذا كان
من بمكانة وقدر ومستوى المقتول. فالبراض رجل خليع وسكير وفاسق. والخليع فى
نظر القبيلة فرد منفصل عنها لا تربطه بها أية رابطة، فكيف تحدث مثل هذه

(١) المصادر والصفحات ذاتها.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ٢٥٠، طبعة بيروت.

جواد علي : المفضل، مجلد ٥، ص ٣٨٥.

أبو الفضل : أيام العرب فى الجاهلية، ص ٣٣٧.

الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧٨ - ٧٩.

(٣) المصادر السابقة ذاتها.

بلعاء بن قيس هو من بنى الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن

كنانة، وجثامة بن قيس أخوه، وكان شاعرا وفارسا كبيرا.

انظر ابن حزم ، الجمهرة، ص ١٨٠ - ١٨١.

(٤) الأصفهاني : الأغاني، ج ٢٢، ص ٧٨.

الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩١٥.

الحرب من أجله؟. إن العرف والعصبية القبلية كانتا السبب المباشر لقيام مثل هذه الحرب.

ويذكر الدكتور أحمد الشريف^(١). أن الأخذ بالثأر كان أمراً مفروضاً على القبيلة، مهما كلف ذلك من جهد ومال. ولم يفرقوا بين القتل الخطأ والقتل العمد وانهم كانوا يعالجون القتل بالقتل، حتى صار الأخذ بالثأر عقيدة ثابتة، والغرض منه حماية القبيلة، فالقبيلة إذا لم تأخذ بثأرها تسقط بين القبائل.

وخلاصة القول إن هذه الحرب دفعت إليها العصبية القبلية وطلب الثأر والمصلحة وغير ذلك من الأسباب التي كانت الحرب تقوم بسببها بين قبائل شبه الجزيرة العربية. هذا بالإضافة إلى العوامل الاقتصادية.

وأغلب الظن أن هذا الطريق — طريق العراق الحجاز — كانت تحت سيطرة قيس عيلان وبعد أن أنشأ قصي بن كلاب قوة قريش واستولى على مكة وأقام خلفه عبد مناف ثم هاشم واخوته تنظيم تجارة مكة مع الشام والعراق واليمن وبقية أجزاء الوسط والشمال في شبه جزيرة العرب، شعرت قيس عيلان بالطمع في الاستيلاء على طريق العراق الذي يخترق أراضيها^(٢)، وبخاصة أن التجارة مع العراق تأتي بمكاسب وفيرة، ولقد كان أبناء عبد مناف هم أصحاب الفضل في تنظيم هذه التجارة ووضع الترتيبات اللازمة مع القبائل التي تمر طرق التجارة في أراضيها ثم مع حكام فلسطين وجنوب الشام من ناحية وبلاد الحيرة والعراق من ناحية أخرى^(٣). ولقد قام هاشم واخوته أبناء عبد مناف بتنظيم هذه التجارة تنظيمًا كاملاً بالسياسة الماهرة التي رسموها للوصول إلى هذه الغاية^(٤)، والتي تتلخص في:

- (١) انظر أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٣٤ وما بعدها، طبعة دار الفكر.
- (٢) ابن خردادبه : المسالك والممالك، ص ١٩٠، طبعة بغداد.
- جواد علي : الفصل، ج ٤، ص ٣٨ وما بعدها.
- (٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ١٣٦ - ١٣٧. تحقيق : مصطفى السقا. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
- أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣٦، ١٥٦ - ١٥٧.
- (٤) جواد علي : الفصل، ج ٤، ص ٣٨ وما بعدها.

أولاً — تحويل مكة إلى أكبر مركز للتجارة في شبه جزيرة العرب، مستندا في ذلك إلى المركز الجغرافي الممتاز في منتصف الطريق التجاري الهام بين اليمن والشام^(١). هذا الطريق الذي استطاع أولاد عبد مناف ترتيب وتنظيم القوافل التجارية فيه، فأصبحت لها رحلتان هما رحلة الصيف إلى الشمال، ورحلة الشتاء إلى اليمن. وقد ذكر القرآن الكريم خبر هاتين الرحلتين في معرض تعداد فضل الله على قريش^(٢). قال تعالى: «لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف»^(٣). وقد كان تجار مكة يحملون بضائع هذا الطريق إلى الشام والجنوب بعد خروجهم من مكة، وقد اعتمد كل من الرّوم والفرس على هذا الطريق^(٤).

وكذلك إلى المركز الديني الممتاز لمكة في شبه الجزيرة كلها، فوجود الكعبة كان يجتذب إليها الحجاج من كافة نواحي شبه الجزيرة، حيث أن الحج إلى الكعبة فرض الهي قديم ومعترف به، وإن الناس يحجون إلى البيت جميعا، وقد نظم عبد المطلب بن هاشم هذه الناحية الدينية تنظيما كبيرا، وكان بنو عبد مناف يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بحماية وإدارة البيت الحرام ومنه اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة في مكة كالمساقاة والرفادة والسدانة^(٥). وظلت هذه الوظائف متوارثة فيها حتى ظهور الإسلام، لذا كانت قريش تعتبر نفسها هم أهل البيت وأوليأؤهم^(٦). كما قال تعالى: «وما

(١) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٨٧، كلمة مكة.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٩٥.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٠٥.

(٣) القرآن الكريم : سورة قريش رقم ١٠٦، الآيات من ١ — ٤.

(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٠٦.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ١٣٧، ٨٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٣، ص ٣١٣، ٣١٥.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢١، طبعة دار الفكر بدمشق.

أحمد كمال : الطريق إلى المدائن، ص ١٨٩، طبعة بيروت.

(٦) ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ١٢٤ — ١٢٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٨٢، وما بعدها، طبعة بيروت.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣٤ — ١٣٥ ... ١٨٦.

هم إلا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أوليائه، إن أوليائه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون^(١).

ثم اعتماد الكثير من قبائل وسط الجزيرة على مكة في كل ما كانوا يحتاجون إليه من بضائع ومصنوعات، فمكة اختصت بالتجارة لأنها تقع في واد غير ذي زرع وأنها تعتمد في حياتها على ما يجلب إليها من الخارج وما يستطيع أهلها أن يحققوه لأنفسهم من منافع عن طريق البيع والشراء، ولذا اختصت مكة بالتجارة ووضع أهلها القوانين لتنظيم الحياة عندهم وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحماية ما يفد إليها من الأذى^(٢).

ثانياً — عقد اتفاقيات مع كل القبائل التي تمر طرق التجارة في منازلها على أساس أن تسمح هذه القبائل بمرور قوافل التجارة المكية تحت خفارة تلك القبائل، مقابل أن يقوم رؤساء القوافل المكية بكل العمليات التجارية اللازمة لهذه القبائل^(٣).

ثالثاً — عقد الاتفاقيات مع حكام الحيرة وجنوب الشام وفلسطين واليمن والحبيشة، لضمان دخول القوافل المكية إلى هذه البلاد والقيام بالعمليات التجارية فيها، وقد رحبت هذه البلاد بذلك لأنها كانت بحاجة إلى المتاجرة أو البضائع التي كانت قوافل قريش تأتي بها إلى اليمن وجنوب الجزيرة العربية^(٤). وبطبيعة الحال، انضمت إلى شبكة الاتفاقات قبائل أخرى كثيرة لم تكن تمر منازلها طرق تجارية وذلك للاستفادة من الخدمات التي تقدمها للقوافل المكية،

(١) القرآن الكريم، سورة الأنفال، آية رقم ٣٤.

(٢) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٧١.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢٥ - ١٢٦، ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٧١.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٤) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٧١.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٥٥ - ١٥٩.

كانت هناك علاقات تجارية مباشرة بين مكة والحبيشة وكان ميناء الحار — على البحر الأحمر يعتبر ميناءهم الخاص وكانت تخرج منه السفن الذاهبة إلى الحبيشة والعائدة منها إلى مكة. انظر ياقوت : معجم البلدان، المجلد ٢، ص ٩٢ - ٩٣، كلمة جابر.

ومعنى ذلك أن سياسة أبناء عبد مناف جعلت مكة مركز التجارة العربية كلها، مما زاد في ثراء أهلها وجعل قريشا زعيمة مجموعة قبائل كنانة وهي فرع من الياس بن مضر^(١). ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تطمع قيس عيلان في أن تحل محل قريش في ذلك المركز، لذا تصدت لها قريش بزعامه كبار بيوتها وبخاصة بنى أمية، وقد انجالت حرب الفجار الثانية عن تثبيت مركز مكة وقريش كقاعدة للتجارة العربية قبل الإسلام، وتحول مكة إلى أغنى بلاد شبه الجزيرة، ونتيجة لذلك أصبحت قريش أقوى وأهم قبائل العرب في وسط وشمال وغرب شبه الجزيرة كلها^(٢). زد على ذلك أن أهل مكة لم يدعوا الفرصة لأهل الطائف أن ينغصوا عيشهم مرة أخرى حين تمكنوا من التغلغل إلى الطائف وبسط سلطانهم عليها، وأقاموا بها أعمالا اقتصادية خاصة ومشتركة وبذلك حولوا هذه المدينة (الطائف) إلى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش^(٣).

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ١٠.

(٢) جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ٧١، ١٥٣.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٥٠.

سعيد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٥.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : مجلد ١٥، ص ٥٥ - ٥٦، ترجمة: عبد الحميد يونس.

جواد علي : المفصل، ج ٤، ص ١٥٣، طبعة بيروت.

علاقة قبيلة ثقيف السياسية بالمدين والقبائل في الحجاز وشبه الجزيرة العربية

لا شك أن «ثقيف» قبيلة كبيرة، وكان يضمها بطنان كبيران هما عوف وجشم وتحت كل منها بطون متعددة، ومن بطون جشم بنو غاضرة التي غضبت من أخوتها بنى مالك والتحقت وحالفت بنى عمومها، عوف على أخوتها بنى مالك لحزازات كانت بينهم، وسموا منذ ذلك الوقت بالأحلاف، وبذلك أصبح الأحلاف وبنو مالك هما الطرفان الرئيسيان اللذان يكونان قبيلة ثقيف^(١). ولما كانوا متفقين في حربهم ضد بنى عامر بن صعصعة — وهي قبيلة كبيرة في هوازن سبق لها أن تغلبت على الطائف بعد أن أخرجت بنى عدوان منها — حتى تم لهم الاستيلاء على الطائف بعد انتصارهم على بنى عامر فخلصت لهم^(٢). كان كل فريق منهم — بنو مالك والأحلاف — يرى أن مجهوده الحربي، وتضحيته الغالية أكبر مما بذله غيره، فهو الأحق بما يختاره من الأماكن والمواقع، ومن هنا نشأت الضغائن بين الطرفين. وبعد استيلاء الأحلاف على منطقة جلدان التابعة لبنى نصر بن معاوية بن هوازن والواقعة بين وادى لية وبسل في أرض الطائف^(٣)، وتحويلها إلى أرض زراعية تابعة لهم، أصابهم الثراء منها، فكثرت خيلهم وأموالهم وبذلك جعلوا لأنفسهم صفة قبلية مستقلة. فغضب من ذلك بنو نصر، وقتلوههم عليها. ولجت الحرب بينها وكان رأس بنى نصر عفيف بن عوف بن عباد النصري ثم اليربوعي، ورأس الأحلاف مسعود بن معتب الثقفي، فاغتم

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٦.

ابن قتيبة : المعارف، ص ٩١، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٠.

(٢) البكري : معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٦٧.

القلقشندي : نهاية الأرب، ص ١٩٨ — ١٩٩.

(٣) الهمداني : الصفة، ص ١٢٠ — ١٢١، تحقيق — النجدي.

ياقوت : معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ١٥٠ — ١٥١، طبعة بيروت.

جندب بن عوف بن الحارث بن مالك بن حطيظ بن جشم زعيم بنو مالك الفرصة وحالف بنى يربوع على الأحلاف فكان أول أيامهم هو يوم الطائف (١). انتصرت فيه الأحلاف وأخرجوا أعدائهم من بنى مالك إلى وادى نخب (٢). وقتل من بنى مالك وبنى يربوع خلق كثير في شعاب ذلك الجبل الذى يقال له الأنان (٣). ثم توالى الحروب بينهم، ومن أشهر أيامهم يوم غمر ذى كندة وهو موضع قريب من نخلة، ويوم كروبة، قريبة من جلدان، وكان من نتائجها انتصار الأحلاف على أعدائهم، ثم افترقوا بعد هذه الحروب فسارت بنو مالك تبغى الحلف من دوس وخثعم وغيرها على الأحلاف، وخرجت الأحلاف إلى المدينة (يثرب) تبغى الحلف من الأوس على بنى مالك، فقدم مسعود بن متعب الثقفي على أحيحة بن الجلاح أحد بنى عمرو بن عوف من الأوس، وكان أشرف الأوس في زمانه، فطلب منه الحلف، فقال له أحيحة: والله ماخرج رجل من قوم إلى قوم قط لحلف أو غيره إلا أقر لأولئك القوم بشر ما أنف منه قومه. فقال له مسعود بن معتب: انى أخوك، وكان صديقا له، فقال له: أخوك الذى تركته وراءك، فارجع إليه وصالحه، ولو جدع أنفك وأذذك، فان أحدا لن يبر لك فى قومك إذا حالفته، فانصرف عنه بعد أن زوده بسلح وأعطاه رجلا كان يبنى الآطام، فبنى لمسعود بن معتب أطما، فكان أول أطم بنى فى الطائف، ثم بنيت الآطام بعده بالطائف (٤). ولم يكن بعد ذلك بينهم حرب تذكر. وقيل فى حرهم

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١، ص ٦٨٥، طبعة بيروت.

(٢) فى الكامل لابن الأثير جاءت (الحب) وليس (نخب) ج ١، ص ٦٨٥، طبعة بيروت.

بيننا فى البكري: معجم ما استعجم، مجلد ٢، ص ١٩٧، جاءت:

نخب: وهو واد بعد الأنان فى موضع الطائف.

(٣) الأنان: موضع على حدود الطائف قبل نخب، ينسب إليه فتح الأنان، وسمى بالأنان لكثرة أنين الجرحى فى معركة بين الأحلاف وبنى مالك وحلفائهم بنى يربوع من بنى نصر بن معاوية بن هوازن.

البكري: معجم ما استعجم — المجلد الثانى، ص ١٩٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، المجلد ١، ص ٦٨٦، طبعة بيروت.

الآطام: الأطم هو الحصن المبنى بالحجارة، وهو بناء مرتفع وجمعه آطام، وقيل أن كل بيت مربع مسطح هو أطم، وكانت مثل هذه الآطام فى المدينة واليمن.

وفى الحديث إن بلالا كان يؤذن من على أطم.

ابن منظور: لسان العرب — المجلد الأول — ص ٧١ — ٧٢، كلمة أطم.

أشعار كثيرة. من ذلك قول حبر وهو ربيعة بن سفيان الثقفي في قصيدته (١):

وما كنت ممن أرت الشربينهم	ولكن مسعوداً جناها وجندبا
قريعاً ثقيف أنشبا الشربينهم	فلم يك عنها منزع حين أنشبا
عناقاً ضروراً بين عوف ومالك	شديداً لظاهاتها ترك الطفل أشيبا
مضرمة شبا أشبا وقودها	بأيديها ما أروياها وأثقبا
أصابت براءاً من طوائف مالك	وعوف بما جراً عليها وأجلبها
فأسقط أحبال النساء بصوته	عفيف إذا نادى بنصر فطر بها

من ذلك نستنتج أن ساكني الطائف وما حولها من ثقيف هم أبناء عوف بن ثقيف الذين منهم بنو معتب، وبنو غيره، وبنو عقدة، وبنو غاضرة التي هم انضمت إليهم بعد انفصالها من بني مالك. أما من كان شرقي الطائف فهم بنو جشم بن ثقيف ومنهم حبيب وبنو اليسار بن مالك (٢).

وهذا الانتصار للأحلاف على بني مالك قويت شوكتهم، مما أجبر بني مالك على أن يقتسموا معهم السلطان السياسي، فكان الأحلاف حلفاً لهم مع هوازن في بادئ الأمر، ثم تقاربوا مع فريش وتعاونوا معها اقتصادياً ودخلوا معهم أيضاً في علاقة نسب (٣).

وكنتيجة لما سبق فإن روح التنافس بين الأحلاف وبني مالك كان ظاهراً أكثر من ظهوره في الجماعات العربية الأخرى، ففي معركة حنين لم نجد التعاون ظاهراً بينهم (٤). وهناك حادثة مقتل مسعود بن عروة الثقفي على يد أوس بن عوف من بني مالك، نتيجة عرض مسعود لهم ضرورة الدخول في الإسلام، فقد قتلوه ليظهروا مدى خطئه في خيانة قضية بلده، وبالتالي لربما يوجه الاتهام إلى الأحلاف ككل (٥)، ناهيك عن أن القواعد الأخلاقية والعادات والتقاليد القاسية

(١) ابن الأثير: الكامل، المجلد الأول، ص ٦٨٦، طبعة بيروت.

(٢) عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٧، طبعة دار الملايين، بيروت.

(٣) ابن حزم: الجمهرة، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٣، طبعة بيروت.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٨٨٥ وما بعدها. طبعة أكسفورد.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٦٠ وما بعدها.

التي حكمت المجتمع العربي في العصر الجاهلي الأخير تكفلت باستمرار اثاره الأحقاد الدفينة وما نراه في مقتل المغيرة بن شعبة لرفاقه السبعة من بني مالك بعد عودتهم من زيارة المقوقس، حاكم الإسكندرية، ما يدعم الرأي القائل بوجود مثل هذه المنافسة بينهم، ولو أن الواقدي يؤكد بأن هذه الحادثة حصلت بسبب المغيرة منهم لتقديم مكانتهم عليه واهتمام المقوقس بهم أكثر من المغيرة^(١). وحتى بعد الهزيمة في حنين وحصار الطائف أرسلوا وفودهم لإعلان إسلامهم بوفدين متساويين ثلاثة من الأحلاف هم: عبد ياليل والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب وشرحبيل بن عيلان بن سلمة بن معتب، وثلاثة من بني مالك هم: عثمان بن أبي العاص وأوس ابن عوف وغير بن خرشة^(٢). وحتى الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد أنزل كل فريق منهم في مكان منفصل عن الآخر^(٣).

هكذا كانت الطائف منقسمة بين هاتين القبيلتين الكبيرتين — الأحلاف وبني مالك — بينهما حروب.. وأيام ومنافسات على الرئاسة والزعامة.. وقد أدى ذلك إلى عدم تمتع المدينة بالاستقلال الاقتصادي والسياسي، ولو كانت، ظاهرياً، متحدة أمام جيرانها الطامعين بأرضها وخيراتها، في حين إن قريشا ومجتمع مكة كانا مختلفين كلياً عن مجتمع الطائف، ليس فقط في ساعة الخطر، لأن تعاون أهل مكة وتآلفهم، واهتمامهم بشئون مدينتهم ومصالحهم كان ظاهرة فريدة في مدن الحجاز كلها وشبه الجزيرة بعامه، وهنا يظهر دور دار الندوة والملاّ ووجود الكعبة وأثرها الديني والسياسي والاقتصادي في قريش^(٤).

وكانت العلاقة بين ثقيف وقريش قد توثقت بقيام تعاون سياسي بينهما في العصر الجاهلي الأخير، نتيجة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية^(٥). واستمر هذا التعاون بينهما قائماً حتى قيام الدعوة الإسلامية حيث وقفت كل منها موقف

- (١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٩٦ وما بعدها.
- (٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٦٣، طبعة أكسفورد.
- (٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٦٥.
- (٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١١٤ وما بعدها، وص ١٢٨، ١٧٠ وما بعدها — طبعة دار الفكر بدمشق.

- (٥) ابن حبيب : كتاب المنق، ص ٢٨٠، طبعة حيدر آباد، ١٩٦٤.
- احسان العماد : الحجاج بن يوسف الثقفي، ص ٨٠، طبعة بيروت، ١٩٧٣.

المعارض من الدعوة، وبخاصة أصحاب الأموال في مكة والطائف^(١). فيذكر ابن هشام: «لما حضرت الوليد الوفاة دعا بنيه وكانوا ثلاثة: هشام بن الوليد والوليد ابن الوليد وخالد بن الوليد، فقال لهم: أوصيكم بثلاث، فلا تضيعوا فيهن: دمي في خزاعة فلا تطلنه، ورباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذه، وعقري عند أبي أزرهر فلا يفوتنكم به»^(٢). وعندما أسلم أهل الطائف كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في ربا الوليد الذي كان في ثقيف، لما كان أبوه أوصاه به^(٣)، وبخاصة بعد نزول الآية، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين»^(٤). وهذا يظهر لنا مدى العلاقة التي كانت قائمة بين قريش وثقيف. ولم تنقطع هذه العلاقة بينها إلا حينما فتحت مكة ودخلت قريش الإسلام واشتركت في محاربة هوازن وثقيف في غزوة حنين وحصار الطائف^(٥). ثم عادت هذه العلاقات بينها ثانية تحت ظل الإسلام الذي أسقط الأحلاف والعصية وأحل محلها تعاون الجماعة الإسلامية ككل وأصبح المسلمون كوحدة واحدة.

أما العلاقة بين ثقيف وأهل المدينة (يثرب)، كما بيّنا سابقاً، فكان هناك شيء من التقارب نتيجة تشابه الظروف الاقتصادية فيما بينهما، لذا اتجهت كتلة الأحلاف من ثقيف نحو الأوس لعقد حلف سياسي بينها ضد بني مالك، لكن الأوس رفضت هذا الحلف لأنه سوف يجلب الكوارث على الطرفين، إذ ليس من مصلحة الأوس بناء علاقات عدائية مع جيرانها^(٦). انظر ما سبق، صفحة ٧٢.

وكانت علاقة ثقيف ببقية قبائل قيس عيلان علاقة أسرية أكثر منها علاقة سياسية لأنهم جميعاً ينتمون لجد واحد^(٧). لذا كانت علاقاتهم قوية، ونحن نجد أن

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٢٨، طبعة دار المعارف.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٤١١، تحقيق : السقا. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) المصدر والجزء ذاتها، ص ٤١٤.

(٤) القرآن الكريم - سورة البقرة - آية رقم ٢٧٨.

(٥) فلهاوزن : تاريخ الدولة الأموية، ص ٤، طبعة القاهرة، ١٩٦٨.

(٦) ابن الأثير : الكامل - المجلد الأول، ص ٦٨٦.

(٧) ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٥٩ - ٢٦٩.

ثقيفا تقف بجانب قيس عيلان ضد كنانة في حروب الفجار، رغم ما كان بينهما وبين قريش من علاقات تجارية واجتماعية وسياسية^(١).

وهكذا، فقد كانت علاقة ثقيف بالقبائل العربية تخضع للظروف ذاتها التي سادت كل القبائل العربية الأخرى، إما علاقة حرب أو علاقة سلم، تمليها مصلحة القبيلة. وكانت هذه سنة الحياة وليعة المجتمع القبلي الجاهلي، ولم تكن ثقيف إلا إحدى وحدات هذا المجتمع القبلي، وما يسرى عليها يسرى على الآخرين.

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٦، ص ٥٦، ترجمة: عبد الحميد يونس.
مصعب الزبيري: نسب قريش، ج ٦، ص ٢٠١، طبعة دار المعارف.
فليب حتى: تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٤٣ - ١٤٤.

علاقة ثقيف الخارجية مع الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية

العلاقات بين قبيلة ثقيف والقبائل العربية الأخرى، تختلف تماما عن العلاقات بينها وبين الدول القائمة على أطراف شبه الجزيرة العربية والعالم الخارجي. وأهمها دولة الروم في الشمال والفرس في الشمال الشرقي، واليمن في الجنوب، والحبشة في شرق أفريقية. هذه العلاقة التي كان قوامها المصلحة الاقتصادية والتجارة بالدرجة الأولى. ولكن لا بد من أن نذكر بأن العلاقة بين قریش وثقيف كان لها دور كبير وفعال في اتصال ثقيف بالعالم الخارجي باعتبارها إحدى قبائل الحجاز وتعيش في إحدى مدنه^(١).

وكانت صلات مكة التجارية كبيرة بالطائف التي تنتج مقادير كبيرة من الزبيب والنبيذ والحبوب والفواكة وغيرها، وقد كان المكيون يشركون أهل الطائف في قوافلهم التجارية^(٢). كما أعارت قریش اهتماما كبيرا لتجاريتها بمنتجات الطائف الزراعية والصناعية، لذا قويت الصلة التجارية بينها أملا في تحقيق المصلحة المشتركة بين الطرفين. ومن الطبيعي أن مكة أنشأت لها علاقات تجارية كبيرة مع الجنوب باليمن، وعقدت معهم الاتفاقيات التجارية للمتاجرة في أراضيهم. وبالفعل سيطرت قوافلها التجارية على نقل هذه التجارة^(٣). وقد أشركت الثقفيين في تلك القوافل، وعن طريق تجار مكة قويت الصلة بين ثقيف واليمن، فשלما أرسلت مكة ومجموعة من القبائل الأخرى وفودها للتهنئة إلى سيف

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مجلد ١٥، ص ٥٥ - ٥٦، ترجمة عبد الحميد يونس.

مونجمرى وات : محمد في مكة، ص ١٧. المكتبة المصرية، تعريب شعبان بركات.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢١١، طبعة دار الفكر.

أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٤، طبعة دار الفكر.

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة ص ١٥٦. طبعة دار الفكر.

بن ذى يزن سنة ٥٧٥م بانتصاره على الأحباش، أرسلت ثقيف أيضا وفدا باسمها ممثلا في مسعود بن معتب الثقفي^(١)، ثم تمت بعد ذلك العلاقات الاقتصادية من خلال العلاقات السياسية هذه العلاقة الاقتصادية بين اليمن والطائف دعمتها مكانة الطائف الاقتصادية^(٢). وبذلك وصلت منتجات الطائف المتعددة إلى اليمن عن طريق القرشيين أولا ثم الثقفيين بعد ذلك.

كما أنشأت الطائف علاقات تجارية وثيقة مع الحيرة التابعة للفرس. ولقد كان المنذر بن النعمان، ملك الحيرة، يبعث بلطيمة، كل سنة، إلى سوق عكاظ، كما بيّنا ذلك في حرب الفجار. وتحدثنا المصادر أن من مشاهير أهل الطائف الحارث بن كلدة الشقي الذي رحل إلى بلاد فارس وتعلّم الطب في جنديسابور^(٣)، ثم عاد إلى بلادهم^(٤). ولقد كان على جانب كبير من العقل والذكاء. ويصور لنا ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد خبر قدومه على كسرى ومحاورته. فقد أراد كسرى النيل من العرب، ولكن الحارث دافع بطريقة تدل على ذكائه وقوة عارضته وكانت المحاورة في قصة ممتعة جدا أدت إلى تغيير نظرة كسرى للعرب^(٥). ثم قويت العلاقة بينه وبينهم، خاصة بعد قيام مملكة الحيرة^(٦).

(١) الأزرقى : أخبار مكة، ج ١، ص ١٤٩، طبعة الأندلس - بيروت.

(٢) جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ٤، ص ١٥٣.

(٣) جند يسابور : هي عاصمة خوزستان في حكم الساسانيين، بناها سابور بن أردشير واسكنها سبي الروم وطائفة من جنده، وهي مدينة خصيبة فيها النخيل والزروع والمياه. وقد كان فيها مدرسة للطب يدرس فيها منهج غالين الروماني وهو جالينوس كما يسميه العرب الذي مات سنة ٢٠٠م والذي كان يعتبر حجة في الطب. فتحت هذه المدينة من قبل المسلمين سنة ١٩ هـ، واثاء فتحها كان بها جماعة من أهل العلم.
انظر :

ياقوت : معجم البلدان - المجلد ٢، ص ١٧٠ - ١٧١، طبعة بيروت.

اوليرى : امسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب، ص ٢٠، ٢١، ٥٠، ٨٠ نقله للعربية د. تمام حسان - مكتبة الأنجلو المصرية.

(٤) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء، ص ٥٤، طبعة القاهرة، ١٩٥٥.

ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ١٣ - ١٧. طبعة دار الفكر - بيروت، ١٩٥٦.

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد، ج ٨، ص ٧٧.

(٦) جواد علي : الفصل، ج ١، ص ١٦١ - ١٦٢، طبعة بغداد.

ثم قصة غيلان بن سلمة الثقفي حين قدم إلى بلاد العراق في العصر الجاهلي الأخير، وكانت العراق يومذاك خاضعة لكسرى، قدم بتجارة، ودارت بينه وبين كسرى محاورة أيضا دلت على الذكاء واللباقة انتهت بأن اشترى منه كسرى تجارته بأضعاف ثمنها وكساه وبعث معه وفداً من الفرس لمشاهدة الطائف وتقوية العلاقة بينهما^(١). والأرجح أن هذا التقارب الذي فعلته فارس ما هو إلا رغبة منها في قيام العلاقة مع العرب منافسة الروم بذلك، حيث كان الصراع بين الامبراطوريتين، البيزنطية والفارسية، على أشده في ذلك العهد، حيث الرغبة الشديدة في مد نفوذها السياسي إلى داخل شبه الجزيرة العربية^(٢). ولقد استمرت هذه العلاقة بين الفرس وثقيف. فترى الشاعر أمية بن أبى الصلت الثقفي يذهب إلى الين ويمدح الفرس هناك لمساعدتهم سيف بن ذى يزن عند استرداده عرش الين من الأحباش. وفي ذلك يقول^(٣):

ليطلب الوتر أمثال بن ذى يزن	ريّم في البحر للأعداء أحوالا
يمم قيصر لما حان رحلته	فلم يجد عنده بعض الذى سالا
ثم انثنى نحو كسرى بعد عشرة	من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى بنى الاحرار يحملهم	انك عمرى لقد أسرعت قلقالا
لله درهم من عصبية خرجوا	ما ان رأى لهم في الناس أمثالا

ويقصد الشاعر بنى الاحرار، الفرس. والقلق، شدة الحركة فيهم^(٤). وبذلك توطدت العلاقات التجارية بين البلدين وكان من جزاء ذلك أن استقدمت الطائف الكثير من المعماريين والمهندسين الفرس لبناء الآطام والقصور هنالك^(٥).

أما صلات ثقيف ببلاد الشام، فقد ولّدتها علاقتهم مع تجّار مكة، فقد كان

(١) الأصفهاني : الأغاني، ج ١٢، ص ٤٦، طبعة الساسي المصرية.

(٢) أحد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٥١، طبعة دار الفكر.

(٣) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٦٥، تحقيق : السقا. مطبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) كذلك انظر المصدر نفسه، هامش رقم ٩.

(٥) لا مانس : مدينة الطائف، ص ١٠ - ١١، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.

لأمية بن أبى الصلت رحلات متعددة إلى الشام مع تجار قریش، وخاصة مع أبى سفيان في قوافله التجارية. وقد اتخذوا من التجارة وسيلة لكسب المال فاتصلوا بمدن الشام كبصرى وغزة وأيلة، ولقد اهتم الرومان بتجارة الحجاز وإن كثيرا من البيوت الرومانية قد انشئت في مكة لغرض المبادلات التجارية^(١). وقد صدرت الطائف إلى بلاد الشام الجلود المصنعة والزبيب والخمور وغيرها، وقد ضمن تنوع منتجات الطائف استمرار هذه التجارة حتى ظهور الإسلام وبعده^(٢).

ويبدو أن نشاط أهل الطائف التجاري قد أمتد حتى وصل إلى مصر، فتذكر بعض المصادر أن نفرا من بني مالك ذهب إلى المقوقس، حاكم الاسكندرية، وأهدوا إليه هدايا، وإن المغيرة بن شعبة كان الوحيد بينهم من الأحلاف، وكانت تلك زيارة تجارية وودية في الوقت ذاته، فقبلها المقوقس وأكرم رجال بني مالك وقرّبهم منه ومنحهم الهدايا بالمقابل، لكنه لم يعر للمغيرة بن شعبة الأهمية نفسها، فحقد عليهم وغدر بهم وقتلهم جميعا في طريق عودتهم، ثم وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه^(٣). ولربما كانت تجارتهم أيضا مع مصر تتم عن طريق أهل مكة، فقد ذكر أن عبد الله بن جدعان، أحد تجار مكة الأثرياء كان يتردد على مصر ببضاعته ثم يعود إلى عكاظ^(٤).

أما الحبشة، فقد كانت لها صلات تجارية مع بلاد الحجاز، وكان من أعظم ما يأتى النجاشي من مكة الأدم المصنوعة في الطائف حيث اختصت الطائف بهذه الصناعة، وكان ميناء الجار، على البحر الأحمر يعتبر ميناء الأحباش الخاص، فمنه تصدر وتورد البضائع منها وإليها، ولربما كان لتجار ثقيف العاملين مع تجار

(١) سيعد الأفغاني : أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، ص ٢٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٩.

أحمد أمين : فجر الإسلام، ص ١٥.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٦.

(٤) سيعد الأفغاني : أسواق العرب، ص ٢٥.

عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وهو من أثرياء مكة وتجارها، وصاحب الضيافات فيها.

ابن هشام : السيرة، المجلد ١، ص ٢٦١، ٦٣٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

مكة دور في هذه التجارة، ولو أن المصادر لم تشر صراحة إلى دور الثقيين بشكل مستقل^(١).

ونتيجة لهذا الارتباط التجاري بالعالم الخارجي، فقد تأثرت ثقيف بحضارة هذه البلاد، وساهم رجالها بنقل ما شاهدوه من معالم تلك البلاد إلى بلادهم كتعلم عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة حرفة صناعة الحرب باليمن^(٢). كما نقل غيلان بن سلمة العمارة الفارسية إلى الطائف حين استقدم البنائين من بلاد فارس بعد علاقته بكسرى لبناء الآطام والقصور^(٣). كما أدخل أمية بن أبي الصلت شاعر ثقيف الكثير من الكلمات والألفاظ الأجنبية إلى اللغة العربية، استعملها العرب فيما بعد، مثل كلمة «السلطيط» و«سأهور» و«يغمد». ويعنى بالسلطيط الله عز وجل، حيث قال:

والسلطيط فوق الأرض مقتدر^(٤).

ولقد عبر عروة بن مسعود الثقفي عن أبعاد علاقة ثقيف واتصالها بالعالم الخارجي في نصيحته لقريش يوم «الحديبية»، حيث قال لهم: «يامعشر قريش انى جئت كسرى في ملكه، وقصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وانى مارأيت ملكا في قوم قط مثل محمد في أصحابه»^(٥).

ومن دراستنا لعلاقة ثقيف بكل من فارس والروم، نجد أن الأحلاف اتجهوا نحو فارس وصنعوا معها أمتن وأوثق العلاقات، بينما اتجه بنو مالك نحو الشام ومصر ولقوا الاهتمام والرعاية هناك.

والحقيقة ان الصراع بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية انعكس على

(١) ابن هشام : السيرة ، المجلد الأول، ص ٣٣٣، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

انظر ياقوت : معجم البلدان، المجلد الثاني، ص ٩٢ - ٩٣، كلمة الجحار أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٣٨ وما بعدها.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٧٨، تحقيق السقا. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الأصفهاني : الأغاني، ج ١٢، ص ٤٦، طبعة السامي المصرية.

(٤) الأصفهاني : الأغاني، ج ٤، ص ١٢٤ - ١٢٥، طبعة دار الثقافة، بيروت.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٣١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

المتصارعين في الطائف لكسب ومدة النفوذ إلى داخل شبه الجزيرة العربية، فقد
كان كل منها يرغب رغبة شديدة في ذلك.

(الطائف فى عصر الرسول)

- ١ — ديانة ثقيف وارتباطها بالنشاط الدينى العام للقبائل
العربية فى موسم الحج ٩٥ — ١١٠
- ٢ — موقف ثقيف من الدعوة الإسلامية ومحاولة النبى
صلى الله عليه وسلم ضمها إلى جانبه كمدينة منافسة
لمكة قبيل الهجرة الكبرى ١١١ — ١٢١
- ٣ — موقف أهل الطائف من الصراع القائم بين مكة
والمدينة بعد الهجرة ١٢٣ — ١٢٩
- ٤ — دخول ثقيف فى الإسلام ١٣١ — ١٧٨

الباب الثاني : مدينة الطائف في عصر الرسول (ص)

الفصل الأول

ديانة قبيلة ثقيف وارتباطها بالنشاط الديني العام للقبائل في موسم الحج

حفلت شبه جزيرة العرب في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي، قبل مطلع الفجر الإسلامي بالعديد من العقائد والملل، السماوية منها أو غير السماوية، لتصب في عقل الجاهلية الجماعي قادمة من أطراف شبه الجزيرة مع التجار والمهاجرين، فمن بين النهرين أتت الصابئة مع أتباعها من عبادة الكواكب والملائكة الزاعمين أنهم على دين نوح من درب حفيده صابيء بن شيت^(١). ومع المبشرين والهاربين جاءت المسيحية بفروعها المختلفة من يعقوبية ونسطورية وديصانية، فدانت بدينها إياد وربيعه وبكر والغالبية من كلب والحيريين من تماثة ولخمير^(٢). أما اليهودية فقد تسربت إلى كندة من يهود يثرب الذين هاجروا لشبه الجزيرة بعد تحطيم هيكلهم في فلسطين سنة ٧٠م أثناء الاحتلال الروماني لها، وإلى حير في الجنوب^(٣). أما في مكة وما حولها، فقد استقرت عقيدة الحنيفية التاريخية الموروثة العائدة بأصلها إلى اسماعيل بن إبراهيم عليها السلام، وحول البيت الذي بناه استقرت بفرعها عبد الدار وعبد مناف تلهث من تطواف حولها سبعا وتنحر الذبائح تقربا وتزلفا، وتقسم ولد اسماعيل وتفرقوا في البلاد، وكان

(١) السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ١٣، طبعة القاهرة، ١٩٧١م.

الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ١٠٣ وما بعدها.

ابن حزم : الفصل، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٥.

ابن حزم : الفصل، ج ١، ص ٢٩ وما بعدها.

ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١، تحقيق : عبد السلام هارون.

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ١٤ - ١٦ تحقيق عبد العزيز الوكيل.

كل من يخرج منهم من مكة يحمل حجرا منها صبا وصباغة بالبيت، فنشأت من ذلك الأنصاب والأزلام^(١).

أما عبادة الأصنام التي انتشرت بعد ذلك حول الكعبة فتعود إلى أحد أحفاد اسماعيل بن ابراهيم وهو عمرو بن لحي الخزاعي الذي أتى بعد رحلة من الشام بصنم من العقيق الأحمر يدعى «هبل» وأخذ يعلم الناس أن صنمه هذا شفيع من الله، وسارت القبائل بعد ذلك على سيرته فكانت كل منها تنحت للآله الصورة التي تراها لتضعها في فناء الكعبة، ورغم ذلك بقي البعض يتمسك بحقيته الخالصة، أمثال أمية بن أبى الصلت الثقفي وغيره، وكان معتنقوها اقلية ضئيلة جدا^(٢).

وهكذا فقد تأثر مجتمع الحجاز بهذا التعدد الديني. إلا أن الوثنية كانت عامة في بلاد العرب^(٣).

ومن هذا كله يتبين لنا تعدد الديانات في بلاد العرب، رغم أن الوثنية كانت سائدة في شبه الجزيرة بعامة والحجاز بخاصة.

فأصحاب الديانات السماوية هم اليهود والنصارى. أما اليهود فقد كانوا جاليات كبيرة العدد متعددة الفروع، منتشرة في يثرب والطريق المؤدية إلى الشام وقبائلهم الرئيسية ثلاث هي: قينقاع وقريظة والنضير^(٤). ويذكر ولفنستون: أن اليهود وفدوا إلى بلاد الحجاز مهاجرين من فلسطين على أثر احتلال الرومان لها سنة ٧٠ (ق.م) واستقروا في منطقة الحجاز الشمالية القريبة من بلاد الشام، وبعمرور الزمن اصطبغوا بالصبغة العربية وكانوا شديدي التمسك بدينهم^(٥). وكان

(١) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٦ - ٨ طبعة الدار القومية، ١٩٢٤.

اليقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٤ - ٢٥٥، طبعة بيروت.

(٢) المصدران السابقان نفسهما.

(٣) الألوسي : بلوغ الأرب، ج ٢، ص ٢٤٠.

فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٣٧.

(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٥١٢ - ٥١٦، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٧، طبعة بيروت.

ولفنستون : تاريخ اليهود، ص ١٤ - ١٦. طبعة الاعتماد بمصر، ١٩٢٧.

كتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء على موسى، وهم يدعون أن الشريعة واحدة، ابتدأت بموسى وتمت به^(١).

أما النصارى فهم أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام الذى بعث بعد موسى وكانت له آيات ظاهرة، وكتابهم الانجيل، وكانت مدة دعوة المسيح ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام^(٢). ورغم أن المسيحية كانت دينا بسيطا سهلا، لكن التعقيد طرأ عليها بعد ذلك حتى أصبح من العسير فهم مبادئها فيما بعد^(٣).

وقد عرفت النصرانية طريقها إلى شبه جزيرة العرب، فانتشرت في تغلب وغسان وقضاة في الشمال وبلاد اليمن في الجنوب^(٤). وفي المناطق القريبة من بلاد الشام وكذلك في بنى تميم وطى ومذحج في اليمن^(٥).

ومن الذين تأثروا بالمسيحية قس بن ساعدة وعدى بن زيد وورقة بن نوفل وكانت لهم مسحة خاصة في شعرهم عليها طابع الدين ومتأثرة بتعاليمه^(٦).

وكان بين العرب الأحناف وهم المنقادون إلى الله المائلون عن العقائد الزائفة، فهم أناس مستنيرون فطنوا إلى سوء حالتهم الدينية، فحاولوا الابتعاد عن الوثنية ودعوا إلى عبادة الله، واعتقدوا بالبعث والحساب، فعرفت هذه النزعة بالتحف، وأصحابها بالحنفاء أو التائبين المتعفين^(٧). ولقد ورد لفظ التحف في القرآن الكريم. قال تعالى: «ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١، ص ١٤ - ١٦. تحقيق عبد العزيز الوكيل.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥.

ابن حزم: الفصل، ج ١، ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) أحمد شلبي: مقارنة الأديان - كتاب المسيحية، ص ١٩، ط ٣، سنة ١٩٦٧.

(٤) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٥٧ طبعة بيروت.

ويذكر ابن هشام في السيرة، المجلد الأول، ص ٣١ - ٣٣ أنه كان بمنطقة نجران مركز للنصرانية.

(٥) اليعقوبي: تاريخ، ج ١، ص ٢٥٧.

ابن حزم: الجمهرة، ص ١٩١.

(٦) أحمد أمين: فجر الاسلام، ص ٢٧ - ٢٨. طبعة ١٠، سنة ١٩٦٥.

(٧) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ٣، ص ٨٦.

ابن هشام: السيرة - المجلد الأول، ص ٢٢٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

مسلمها وما كان من المشركين»^(١). وفي قوله تعالى: «انى وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين»^(٢).

ومن العرب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل، فقد كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: أيها الناس هلموا إليّ فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى. وكذلك قس بن ساعدة الإيادى الذى كان يقول:

كُلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد
أعواد وأبـدى وإليه المآب غدا

وكذلك عامر بن الظرب العدواني، حكيم العرب، الذى حرّم على نفسه الخمر وكان يعتقد بالبعث والحساب^(٣).

أما أمية بن أبى الصلت فقد كان شاعراً مطبوعاً فى منطقة الطائف بخاصة والحجاز بعامة، وتحت اسمه شاعت مجموعة الأشعار التى تعبر عن اهتمام بالغ بالمسائل الدينية والأخلاقية حتى إنه كان يطمع فى النبوة، فقد قرأ كتب الأديان الأولى وتأثر بها ولبس المسوح تعبدًا وحرّم الخمر وشك فى الأوثان وذكر إبراهيم واسماعيل والحنيفية^(٤). ونظراً لأنه كان يطمع فى النبوة ويأمل أن تكون فيه فقد حقد، عندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذى يقول^(٥).

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

من هذا يتبين لنا أن الحنيفية كانت موجودة فى مكة، وكان معتنقوها أقلية وموجودة كذلك فى الطائف بنطاق ضيق جداً، باعتبار الطائف مدينة مجاورة لمكة^(٦). والعرب جميعاً كانوا يعتقدون بوجود إله وأنه رب الوجود، ودليل ذلك

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران، آية رقم ٦٦.

(٢) المصدر نفسه : سورة الانعام ، آية رقم ٧٩.

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ٨٦ - ٨٧. تحقيق عبد العزيز الوكيل.

(٤) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٢٥ - ١٢٦، طبعة دار الثقافة بيروت.

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ٨٦.

(٦) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٢٢ - ٢٢٣، تحقيق السقا، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

حجهم إلى الكعبة باعتبارها بيت الله الذى أقام قواعده ابراهيم واسماعيل عليهما السلام. وأن الله جعله مثابة للناس جميعا وآمنا. وفي القرآن الكريم ما يشير إلى ذلك: إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمنا، والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا^(١). وتتضمن هذه الآيات قرينة قوية على أن الحج إلى البيت على المستطيع هو استمرار لغرض إلهي قديم على الناس معترف به وممارس من بعضهم وإن الحج كان عاما وغير مخصص بطائفة معينة، وهذا يدل على أنه كان مفروضا قبل الإسلام^(٢).

وخلاصة القول أن الحنيفية هي نوع من الشعور بالوحدة وتعبير عن الميل الروحي للدين الواحد، كما جاء في القرآن الكريم: «ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل»^(٣).

أما الديانات غير السماوية كالزرداشتية والمناوية والمزدكية فقد تسربت إلى بلاد العرب. فالزرداشتية نسبة إلى زرادشت بن يوشب وكان مقامه باصطخر وأنه نبي الفرس القدماء، وهذه الديانة هي رمزية، تقول بأن العالم فى قوتين هما الخير والشر، ويرمز لإله الخير بالنور ولإله الشر بالظلمة ويعتبر أتباع الزرداشتية النار لا على أنها العنصر المحرق بل أنها مصدر النور الذى هو أساس الخير^(٤). كذلك من مبادئه: إن أشرف عمل للانسان الزراعة والعناية بالماشية، فحبيب الزراعة وتربية الماشية، وكذلك للانسان حياتان أولى فى الدنيا، وحياة أخرى بعد الموت وأن القيامة قريبة وأن نهاية الحياة ليست بعيدة^(٥). هذه الديانة كانت

(١) القرآن الكريم : سورة آل عمران، آية رقم ٩٦ - ٩٧.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٧٣ - ١٧٤، طبعة دار الفكر.

(٣) القرآن الكريم : سورة الحج، آية ٧٨.

ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٢٢٢ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٤٠ وما بعدها.

ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل، ج ١، ص ٥٨ - ٥٩.

أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ٩٨ وما بعدها.

(٥) أحمد أمين : فجر الاسلام، ص ١٠١ - ١٠٢.

سائدة في فارس وفي شرق بلاد العرب وخاصة في جهة البحرين القريبة من
الفرس^(١).

أما المانوية فهم أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في وقت سابور
بن أردشير وذلك بعد عيسى بن مريم عليه السلام وقد حاولت هذه الطائفة
التوفيق بين المسيحية والوثنية في الشرق وأخذت عقائدها وطقوسها عن التوراة
والفارسية القديمة^(٢). وهم الذين يقولون بالآثينية وهي العقيدة الأساسية لديانة
الفرس، ومن ثم يقولون بوجود مصدرين الهيين لهذا العالم: أحدهما إله الخير
ويرمزون له بالنور، والثاني إله الشر ويرمزون له بالظلمة، وهذا الإله هو الذي
صدر عنه هذا العالم المادي^(٣). وانتشرت في الشرق، ولا سيما في بلاد الفرس
والهند، ولم تنتقل إلى بلاد العرب إلا في القرن الحادي عشر الميلادي^(٤).

أم المزدكية، فهم أصحاب مزدك وهو الذي ظهر في أيام قباد والد
انوشروان^(٥). وكان يقول أيضا بالنور والظلمة، ولكن أكبر ما امتاز به تعاليمه
الاشتراكية في المال والمساواة والنساء، بالإضافة إلى تعاليمه الروحية، كالقناعة
والزهد وعدم ذبح الحيوان، وقد اعتنق مذهبه الآلاف قبل الإسلام^(٦). وقد كان
لآراء مزدك أثر في العرب وبقيت حتى في عهد الدولة الأموية والعباسية^(٧).

أما الصابئة فهم عباد الكواكب والذين زعموا أن الشمس ملك من الملائكة

-
- (١) نفس المصدر، ص ١٠٣
 - (٢) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٤٩.
 - ابن حزم : الفصل، ص ٤٦ - ٤٨.
 - (٣) أحد أمين : فجر الإسلام، ص ١٠٤.
 - نفس المصدر والصفحة.
 - (٥) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٥٤ - ٥٥.
 - ابن حزم : الفصل، ج ١، ص ٧٣ - ٧٥.
 - (٦) أحد أمين : فجر الإسلام، ص ١٠٩ - ١١٠.
 - الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٢، ص ٥٤ - ٥٥.
 - (٧) القلقشندي : نهاية الأرب، ص ٤٥٢.
 - أحد أمين : فجر الإسلام، ص ١١٢.
 - محمد ميروك نافع : عصر ما قبل الإسلام، ص ١٧١.

ولها نفس وعقل، وأن القمر يستحق التعظيم والعبادة وبه تعرف الأزمان والساعات^(١). وهذا المذهب هو من مذاهب المجوسية، وقد كانوا موجودين في شبه جزيرة العرب، وقد ذكر ابن حزم أن المجوسية قد ظهرت في بني تميم وأن لقيط بن زرارة كان قد تمجس^(٢).

ومن هذا كله يتبين لنا تعدد الديانات في بلاد العرب، لكن الوثنية كانت هي الغالبة، وخاصة في منطقة الحجاز، لذا عبدوا الأصنام والأوثان وحجوا إليها واعتقدوا أنها كانت تقربهم إلى الله زلفى، قال تعالى: «وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»^(٣). إلا أن هذه العبادة لم تكن عبادة ذاتية انما كانت وسيلة للتقرب إلى الله، وهذا دليل على أن أهل مكة لم ينسوا دين ابراهيم تماما حتى حينما كانوا في ظلمات يعمهون، وان اهتمهم المتعددة لم تشغلهم عن الكعبة بيت أبيهم ابراهيم وان عبادتهم للأصنام لم تكن جذية وأنها لم تتعمق في قلوبهم، ويقول ابن الكلبي: انهم يوحّدونه بالتلبية ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده^(٤). ويقول تعالى في كتابه المجيد: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»^(٥). ويفسر ابن الكلبي ذلك فيقول: أى ما يوحّدوننى بمعرفة حق، إلا جعلوا معى شريكا فى خلقى^(٦). وفى التفسير يقول ابن كثير: «إن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم، لبيك، لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»^(٧). أى أنهم كانت لديهم فكرة غير واضحة عن وجود الله، لذا فانهم يجعلون معه شركاء.

(١) الشهرستاني : الملل والنحل، ج ٣، ص ١٠٣.

ابن حزم : الفصل، ص ٨٨ - ٨٩.

(٢) ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١، تحقيق عبد السلام هارون.

القلقشندي : نهاية الأرب، ص ٤٥٢.

(٣) القرآن الكريم : سورة الزمر، آية رقم ٣.

(٤) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٧، تحقيق أحمد زكي.

(٥) القرآن الكريم : سورة يوسف، آية رقم ١٠٦.

(٦) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٧.

(٧) ابن كثير : كتاب التفسير، المجلد الثاني، ص ٢٦٤، تحقيق الصابوني.

ط ١، مكتبة دار القرآن الكريم - الكويت.

وكان «هبل أعظم الأصنام شأنا، وهو منصوب على بئر في جوف الكعبة وهو من العقيق الأحمر على صورة إنسان، وكان أول من نصبه هو خزمية بن مدركة ابن الياس بن مضر، فكان يقال له «هبل خزمية»^(١). وقد كان للعرب ثلثمائة وستون صنما حول الكعبة وضعتها قريش للانتفاع من العرب وقت الحج^(٢). وكان لأهل كل دار في مكة صنم يعبدونه ويتمسحون به ويقدمون له التعظيم في السفر والعودة^(٣).

وكانت العرب تستقسم بالأزلام في كل أمورها، وهي القداح ولا يكون لها سفر ولا مقام ولا نكاح ولا معرفة حال إلا رجعت إلى القداح وهي سبعة لها أمناء منهم^(٤). فإذا أراد أحدهم قضاء أمر لجأ إلى القداح فضرها فان خرج قدح بنعم، مضى إلى غايته وان خرج بلا، عدل عن المضي فيه، ويذكر ابن الكلبي أن في جوف الكعبة أمام هبل سبعة من القداح، إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفرا أو عملا أتوا هبل فاستقسموا بهذا القداح عنده^(٥). ولم يكن هبل وحده معبود العرب فقد انتشرت الأصنام في أنحاء شبه الجزيرة ووضعت بأشكال مختلفة، سواع في ينبع وكانت سدنته بنو لحيان، وود في دومة الجندل اتخذته كلب، ويغوث في مذحج وأهل جرش، ويعوق بأرض اليمن، ونسر في حمير^(٦). هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم عندما قصص الله تبارك وتعالى خبرها على الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «وقالوا لا تذرنا المهتك، ولا تذرنا ودا وسواها ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا»^(٧).

ومن الأصنام الرئيسية في شبه جزيرة العرب ثلاثة أصبحت آلهة للعرب هي

- (١) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٢، طبعة الحلبي، ١٩٥٥
- (٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ١، ص ٧٠ - ٧١.
- (٣) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٣٣، تحقيق أحمد زكي.
- (٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ١، ص ٢٥٩، طبعة بيروت.
- ابن الكلبي : الأصنام، ص ٢٨ - ٢٩.
- (٥) ابن الكلبي : الأصنام، ص ٢٧ وما بعدها.
- (٦) نفس المصدر السابق، ص ٨ وما بعدها.
- ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٧٨ - ٧٩. طبعة الحلبي.
- (٧) القرآن الكريم : سورة نوح، آية رقم ٢٣.

اللات في الطوائف والعزى بنخلة ومناة على ساحل البحر بقديد بين مكة والمدينة^(١). وهي التي ذكرها القرآن الكريم في سورة النجم، قال تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى»^(٢).

وكان لكل صنم من هذه الأصنام سدنة يقومون برعايته وأداء الطقوس الدينية له ولكل من هذه الأصنام تلبية خاصة، وكان سدنة اللات بنو عتاب بن مالك من ثقيف^(٣). ويقال آل أبي العاص بن أبي يسار بن مالك من ثقيف^(٤). وكانت تلبية ثقيف لهذا الصنم: لبيك اللهم، إن ثقيفا قد أتوك وقد أخلفوا المال وقد رجوك^(٥). وهي عند ثقيف تسبق كل الأصنام، وكانوا قد بنوا عليها بناء وكانت قريش وجميع العرب تعظمها^(٦).

-
- (١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٨٣ - ٨٥.
ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٤ - ١٧، تحقيق أحمد زكي.
ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ١١٦، طبعة بيروت.
ابن حبيب : كتاب المحبر، ص ٣١٥.
وبذكر ابن حزم أن العزى كانت شجرة بنخلة، عندها وثن، تعيدها غطفان وكانت قريش تعظمها ونخالد بن الوليد هو الذي قطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن.
ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١.
(٢) القرآن الكريم : سورة النجم، آية رقم ٢١.
(٣) ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٦.
ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٥، طبعة الحلبي.
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٢.
(٤) ابن حزم : الجمهرة، ص ٤٩١.
عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب، ج ١، ص ١٤٨ - ١٥١.
جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ - ٩٣.
(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ١ ص ٢٥٥، طبعة بيروت.
ابن حبيب : المحبر، ص ٣١١ - ٣١٢.
القلقشندي : نهاية الأرب، ص ٣١٥.
الزركلي : الأعلام، ج ٢، ص ٨٥.
(٦) ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٦.
أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٩٥، ط ٥، ١٩٧٠.

وما دام اللات صنم ثقيف الرئيسي وأكثر معبوداتهم تقديسا، فلا بد لنا من الكتابة في تاريخها وأهميته بالنسبة لهم.

فالروايات متعددة حول ذكر اللات وتاريخ وجودها، واحدى هذه الروايات تذكر أنها وضعت في الطائف بعد شيوع الأصنام في الحجاز بعد أن نقلها عمرو بن لحي الخزاعي^(١). ورواية تقول أنها صخرة لرجل من ثقيف كان يلت السوق للحجاج، فلما مات أخبرهم عمرو بن لحي (الذى جعلته العرب ربا لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة) أنه لم يميت وإنما دخل الصخرة فأمرهم بعبادتهم وأن ينوا عليها بيتا يسمى اللات^(٢). أما ابن الكلبي فيقول إن اللات كانت صخرة مربعة وكان يهودي يلت عندها السوق^(٣). ويبدو أن هذه الرواية ما وضعت إلا لتعظيم اللات.

فاللات هو صنم من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم كما مرّ بنا سابقا. وقد كان على شكل صخرة مربعة بالطائف يسترونها بالثياب ويهدون لها الهدايا والنذور ويلقون عليها القلائد والسيوف وكانوا يطوفون حوله ويسمونه الربة^(٤). وكانوا يميرون عليه في السفر والعودة ويحلقون رؤوسهم عندها تعظيما وتقديسا له^(٥). وكانوا يعظمونه تعظيم أهل مكة للكعبة، لا بل يضاهون بيتها بالكعبة^(٦). وتحت صخرة اللات كانت حفرة

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٧٧، طبعة الحلبي.

اليقوي : تاريخ ج ١، ص ٢٥٤ - ٢٥٥، طبعة بيروت.

(٢) ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٤، طبعة بيروت.

السهيلي : الروض الأنف، ج ١، ص ٩٦.

ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٧٧، هامش رقم (٢).

(٣) ابن الكلبي : الأصنام، ص ١٦.

وعلى ذكر السوق، فهو الخنطة أو الشعر المحمص، الذى يطحن ويمزج بالماء والمسل والسمن ويلت بعد رجه بالماء.

ابن هشام : المجلد الأول، ص ٤٥، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٩، طبعة أكسفورد.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٣، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٦) نفس المصدر والصفحة.

ابن حبيب : كتاب المهر، ص ٣١٥.

عرفت بالغيبغب حفظت فيها الهدايا والنذور والأموال التي كانت تقدم له، فلما هدمه المغيرة بن شعبة بعد فتح مكة أخذ جزءا من أموالها إليه^(١).

وقد ظلت اللات ربة ثقيف حتى أسلمت القبيلة فأحرقت وهدمت من قبل المسلمين واستولى على أموالها.. هذه الأموال التي أخذ المغيرة بن شعبة قسما منها..

إن عبادة اللات من العبادات القديمة، فقد عبدها عرب الشمال كالأنباط وقد اعتبروها أما للآلهة أو سيدة لها عندهم، ومن الأنباط انتقلت إلى تدمر بعد أقول نجم البتراء عاصمتهم وانتقال القوة السياسية إلى العاصمة الجديدة وفيها سمي وهب اللات ابن الملكة الزباء، ملكة تدمر، كما تسمى بها أناس آخرون وردت اسمائهم في نصوص الحجر التي وجدت هناك. وكذلك ذكرت في اللهجة الصفوية وسميت (هل ت). ولعل هلات أى على نحو ما ينطق بالكلمة في لهجة القرآن الكريم، والهاء في الكلمة أداة تعريف في اللهجة الصفوية، فيكون المراد بذلك اللات، ويظن أن اللات أنثى وهي الشمس بدليل أن الشمس أنثى، أى آلهة في العربية وفي كثير من اللهجات السامية الأخرى أن اللات أنثى كذلك^(٢). وكان العرب يقولون عن اللات والعزى ومناة أنهم بنات الله وهن يشفعن إليه، فلما بعث الله رسوله أنزل عليه الآية، قال تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى»^(٣).

وبعد نزول هذه الآية استبشر الكافرون بالفرح لذكر اللات في الآية، وكان الرسول قد تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه، ويبدو في

(١) ياقوت : معجم البلدان، ج ٥، ص ٤، مادة اللات، طبعة بيروت.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٧٢.

وعلى ذكر الغيبغب، يقول ابن الكلبي ان الغيبغب هو منحر للعزى ينحرون فيه هداياها. ويقول

ياقوت هداياهم. ويذكر ابن هشام ان الغيبغب هو المنحر ومهراق الدماء للعزى.

ابن الكلبي : الأصنام، ص ٢٠.

ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٨٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ - ٩٣.

جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام، ص ١٠٠ - ١٠١.

(٣) القرآن الكريم : سورة النجم، آية رقم ١٨.

الآية لما كان لهذه الأصنام ومنها اللات من أهمية دينية عندهم، وهذه الأهمية معكوسة على مركز الطائف الديني الذي له مكانة عظيمة ومقدسة في نفوسهم^(١). ويدو أن أهل مكة كانوا يشتركون في تعظيم اللات، فنقرأ لابن هشام في السيرة «ان أمية بن جمح كان يعذب بلالا بالحر والصخرة على صدره ويقول له: لا والله هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء أحد أحد^(٢). وعندما أصيبت عين زبيرة بعد عتقها قالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى وما تنفعان، فردّ الله بصرها^(٣). وكانت قريش تعظم اللات والعزى، قال ابن اسحق: ان أبا لهب لقي هنداً بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه، وظاهر عليهم قريشا، فقال: يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى، وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما، قالت: نعم، فجزاك الله خيرا يا أبا عتبة^(٤). وفي سفر أبي طالب إلى الشام اصطحب معه النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا زال غلاما بعد، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام كان فيها راهب يدعى بحيراء، فدعاهم إلى طعام فحضرُوا ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطلب الراهب حضوره، فأحضره أحد الرجال وقد أقسم باللات والعزى بضرورة حضوره ثم بعد الطعام أخذ الراهب يسأل الرسول ويستحلفه باللات والعزى، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم، تسألني باللات والعزى، فوالله ما بغضت شيئا قط بغضها، ويقال أنه سأله باللات والعزى اختبارا للرسول^(٥).

ومن هذا كله يتبين لنا أن اللات من الأصنام التي كان لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين وبين عرب الحجاز وله معابد في مواضع أخرى من هذه الأنحاء، أما عند ظهور الإسلام فقد كان معبده الرئيسي في الطائف^(٦). وترى

(١) الطبري : الرسائل والملوك، ج ٢، ص ٣٣٨، طبعة دار المعارف.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٣١٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥

(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٣٢٠.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٣٥١.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ١٨٢.

(٦) ابن الكلبي : كتاب الأصنام، ص ٣٣، وكذلك ص ١٧ هامش رقم (٨) ص ١٨.

جواد علي : العرب قبل الإسلام، ج ٥، ص ٩٢، طبعة بغداد.

أهمية اللات عند ثقيف في حملة أبرهة الحبشي سنة ٥٧٠م، حيث قصد أبرهة اللات.. معتقدا أنها الكعبة التي يريد هدمها. مما جعل ثقيفا تفرع من الأمر وتبعث معه من يدلّه على الكعبة خوفاً عليه، فأرسلت معه أبو رغال الذي مات في المغمس وهو مع الحملة، فدفن هناك وظل الناس يرجون قبره زمنا طويلا^(١). قال ابن هشام: عند وصول أبرهة إلى الطائف، قالت له ثقيف: «أيها الملك انما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد — يعنون اللات — انما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلّك عليه فتجاوز عنهم»^(٢). ويسود الاعتقاد أيضا أن اللات ماهي إلا نصب من الأنصاب التي كانت مستعملة لذبح القرابين عنده إلى الأصنام، فنسي الناس أصلها، حتى ظنوا أنها الصنم نفسه، ويؤيد هذا القول ما جاء به ابن الكلبي من أن الغبغب الموجود تحت الصنم كان منحرا ينحرون فيه هداياهم ويسميه ابن هشام المنحر ومهراق الدماء^(٣). أو أنها بقايا الوثنية التي كانت تعبد فيها الأحجار وتقدّس ولو لم تكن على شكل إنسان أو حيوان أو شكل آخر مصنوع صنعا فنيا ليكون رمزا للآلهة، ومهما يكن فإن الأحجار هي عقيدة في رأى علماء الأديان وفي نظر معتققيها تختلف عن وجهة نظرنا إلى هذه الأحجار^(٤).

مما سبق يتبيّن لنا الأهمية الدينية للطائف، باعتبارها المركز الديني الثاني في بلاد الحجاز بعد مكة، وربما كان للناحية الدينية دوراً في تقريب العلاقات بين قریش وثقيف، باعتبار كل منهما يمثل مكانا دينيا مهما ومصدرا لحياتهم الاقتصادية.

ولا بدّ لنا في هذا البحث أن نتطرق إلى الأشهر الحرم وأهميتها في المجتمع

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ١٣٢، طبعة دار المعارف.
وأقدم الروايات التي ذكر فيها أبو رغال ما قاله جرير:
إذا مات الفرزدق فارجموه كرجلكم لقبر أبى رغال
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٤٧ — ٤٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٣) انظر ما سبق ذكره في هامش صفحة ٩٣، هامش رقم (٥).

(٤) جواد علي : العرب قبل الاسلام، ج ٥، ص ٩١ — ٩٣، طبعة بغداد.

العربي الجاهلي والنتائج التي أدت إليها من جرّاء التزام غالبية القبائل العربية بها. فالأشهر الحرم هي أربعة، ثلاثة منها متتابعة وواحد فرد، فالمتتابعة هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم. أما الفرد فهو شهر رجب، وسميت بهذا الاسم لأن العرب كانوا لا يستحلون فيها القتال ماعدا قبيلتي طي وخثعم فلم تلتزما بها^(١). ان الأشهر الحرم كانت نتيجة لضرورة فرضتها ظروف البيئة العربية، لعدم وجود حكومة ذات سيادة وقانون يلتزم به الجميع، مما أدى إلى زيادة الغارات القبلية وفقدان الأمن والاستقرار في الوقت الذي اعتمد فيه الاعراب على التجارة وما تفرضه من تحرّك وأسفار، مما استدعى وضع ما يشبه القانون أو العرف المرعي لوقف الغارات وسيادة الأمن وقت نشاط الرحلات التجارية وقيام الأسواق، ومن هنا تبرز أهمية هذه الأشهر الأربعة التي وضعت كهدة وعرف وقانون مرعي يسود أثنائها السلام، ويتيسر للناس قضاء مصالحهم، ثم جاء القرآن الكريم^(٢). ليصبغ هذه الهدنة بصبغة قدسية، فأصبحت هذه الأشهر جزءا من حياة الناس وكيانهم الاقتصادي والاجتماعي والأدبي والديني، وكانت النتيجة أن أصبح موسم الحج يساهم مساهمة فعالة في حل المشاكل المعقدة في المجتمع القبلي آنذاك^(٣).

وهكذا لعبت الأشهر الحرم دورا رئيسيا في استتباب الأمن وتوفير أكبر قدر ممكن من السلام، فكان موسم الحج هو نفسه موسما للأسواق التجارية، ولهذا قصدها الناس لتبادل المنفعة فيما بينهم.

ويبدو أن فترة الأشهر الحرم وما وفرته من أمن ومنفعة أطمعت العرب في تطويلها فابتدعوا النسيء لينعموا في أكثر شهور السنة أمنا وسلاما وفائدة، والبيوتات الكبيرة في الحجاز هي وراء هذه البدعة أمثال حذيفة بن عبد بن

(١) ابن منظور: لسان العرب، المجلد الأول، ص ٦١٦، طبعة بيروت.

اليقوي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١١٠، طبعة بيروت.

السهيلى: الروض الأنف، ج ١، ص ٦٣ - ٦٤.

(٢) قال تعالى: «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد».

القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية رقم ٩٦.

(٣) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ١٩٣ وما بعدها، طبعة دار الفكر دمشق.

مالك بن كنانة ابن خزعة وغيره^(١). إلا أنه أسيء استعمال هذه البدعة مؤخرًا مما استدعى أن يهاجمها القرآن^(٢)، بسبب سوء استعمال الناس لها، حتى لا يتجرأ الناس على الانتقاص من الحرمات وخرق التقاليد النافعة، فإن الأصل في ابتداعها كان لتحقيق نفع أكبر وغرض أسمى، وقد جاء هجوم القرآن عليها بعد أن قامت الدولة وساد القانون وأصبح المجتمع يتجه إلى مثل غير مثل الجاهلية.

لقد كانت ثقيف في الطائف جزءا من مجتمع الحجاز وتعيش في إحدى مدنه الهامة، لذا ارتبطت بما ارتبط به العرب في شبه الجزيرة، فكانت تشارك في حج البيت الحرام في الكعبة وتساهم في حماية الأشهر الحرم، وبذلك تعاونت وتبادلت المنافع وساهمت في جميع مجالات النشاط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، لاسيما وأن القبائل العربية في مجتمع الحجاز كله كانت تحضر الأسواق، بالإضافة إلى من كان يسكن اليمن ونجد ومشارف الشام والعراق، مما أتاح لها المشاركة الفعلية في الأسواق حيث تبادلت منافع البيع والشراء واستفادت منها مثلما كانت مكة^(٣). والقرآن الكريم خير شاهد على ذلك، قال تعالى: «إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس، سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد يظلم ندقة من عذاب أليم. وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير»^(٤). وهذه الآيات تتضمن دلالة صريحة على أن العرب جميعهم أو القسم الأكبر منهم كانوا يأتون مكة ويمارسون مع أهلها طقوس الحج ويتبادلون المنافع ويساهمون في المفخرة والخطابة وإنشاد الشعر، ومنهم من كان يأتى لحل مشاكل مستعصية لا يمكن حلها إلا في ظروف مثل

(١) ابن هشام : السيرة — المجلد الأول، ص ٤٤ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) قال تعالى : «انما النسئء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله».

القرآن الكريم — سورة التوبة، آية رقم ٣٧.

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٧٥.

(٤) القرآن الكريم : سورة الحج، الآيات ٢٤، ٢٦، ٢٧.

ظروف الحج وموسمه وأمنه، ولقد ساهمت ثقيف بكل هذه النشاطات باعتبارها جزءا من مجتمع الحجاز آنذاك.

وهكذا، فقد كان العرب يأتون إلى هذه الأسواق من كل الجهات فيتبادلون المنافع ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم ويساهمون مساهمة فعالة في حل المشاكل والقضايا المعقدة^(١).

وخلاصة القول، فإن الطائف ارتبطت بمكة وتشابهت معها في صور الحياة المختلفة التى سادت مجتمع الحجاز، ومن هنا جاءت التسمية بالقريتين أو المكيتين وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى قوله تعالى: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»^(٢). وقد ساهمت مواسم الحج مساهمة مباشرة فى ذلك الارتباط، ومن هنا كان دورها بارزا فى مجتمع الحجاز بصفة خاصة ومجتمع شبه الجزيرة بصفة عامة.

(١) الأزرقي : أخبار مكة، ج ١، ص ١٨٨، طبعة دار الأندلس ١٩٦٩.

اليقوي : تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٧٠، طبعة بيروت.

أحد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٨٤، طبعة دار الفكر.

(٢) القرآن الكريم : سورة الزخرف، آية رقم ٣١.

الفصل الثاني

موقف ثقيف من الدعوة الإسلامية قبل الهجرة ومحاولة النبي صلى الله عليه وسلم ضمها إلى جانبه منافسة لمكة

لقد تميّز موقف ثقيف قبل فتح مكة بالعداء للدولة الإسلامية وصاحبها، وقد تمثّل هذا الموقف في صورتين، الأولى قبل الهجرة والثانية بعد الهجرة. ففي الفترة الأولى تمثل بالوقوف بجانب قريش ضد الدعوة دون أن تشبّك بشكل مباشر مع الرسول صلى الله عليه وسلم فرفضت دعوته أثناء عرضه عليها عند زيارته الأولى لمدينتها الطائف، هذه الزيارة التي جاءت بعد هجرة أغلب أصحابه من المسلمين إلى الحبشة وبعد وفاة زوجته خديجة بنت خويلد وعمه أبي طالب. عارضا عليهم الاسلام، طالبا منهم قبوله، لكنه، رغم هذه الزيارة والمشقة التي عانى منها، لم يلق منهم نجاحا وقبولا.

قال ابن اسحاق: «لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف ابن عقدة بن ثقيف، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاهم إلى الله، وكلمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. فقال أحدهم هو يميّط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك. وقال الآخر: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟. وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا. لئن كنت رسولا من الله، كما تقول، لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لي أن أكلمك. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يشس من خبر ثقيف وقد قال لهم - فيما ذكر لي - إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا عني... الخ» (١).

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤١٩، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ طبعة دار المعارف.

ورغم هذا الموقف من سادة ثقيف، فانهم لم يردّوه ردا كريما، بل أغروا به أحداثهم وسفاههم يستّونه ويصيحون به ويمرمونه بالحجارة، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ييأس وسط هذه الأزمة القاسية، بل توجه نحو ربه طالبا منه النصر، شاكيا له أمره. قال ابن هشام: فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر لي - : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أُمري؟. إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.. الخ^(١).

لقد عانى الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير في هذه الرحلة، لكن العقيدة يهون دونها كل جهد وعناء. ولا بدّ لنا من وقفة حول هذه الزيارة التي جاءت بعد اشتداد الأذى عليه من قريش. فما لا شك فيه أنه صلى الله عليه وسلم اتجه نحو الطائف راغبا بنشر دعوته هناك، باحثا عن مسلمين جدد يجد بينهم الحماية، على الأقل، بعد هذا الذي عانى منه في مكة، وكان يراوده الأمل بنشر الإسلام هناك وبناء أمة اسلامية كما قامت فيما بعد في المدينة، وكان يأمل أن يجد في الطائف قبولا أكثر مما وجد بين القرشيين. وكان يتوقع أن يجد بين الأحلاف تأييدا، ولهذا ذهب بنفسه إليهم، ولربما لعلاقة النسب أثر في هذه الزيارة، فأمة آمنة بنت وهب جدتها من ثقيف^(٢)، ولربما أراد أن يكسب الأحلاف من ثقيف ويفهمهم ضرورة التخلص من سيطرة المكيين المالية عليهم وبخاصة بنى مخزوم الذين كانت لهم أموال ونفوذ بين الثقيفيين^(٣). كما أن مركز الطائف الاقتصادي وكون قبيلة ثقيف قبيلة كبيرة وآمنة في مدينتها له أثر في تفكيره بالذهاب إليهم دون غيرهم، لأن أكثر القبائل كانت مرتبطة بقريش وليس لها أية صفة

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٢٠، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) ابن حبيب : كتاب المجر، ص ٩، ١٧. طبعة دار المعارف العثمانية، ١٩٤٢.

(٣) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٠٩ و ٤١١، طبعة الحلبي. حيث يذكر أن الوليد بن المغيرة بن مخزوم هو أحد كبار المعارضين للدعوة ومن الذين كانت لهم أموال وديون في الطائف.

وات : محمد في مكة - ص ٢١٩ وما بعدها تعريب شعبان بركات المطبعة المصرية - بيروت.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢٢ - ١٢٣.

مستقلة، فربما كان يخشى على حياته من التوجه إليهم في تلك الظروف، كما كانت الطائف أقرب إلى مكة منها إلى المدينة، والمدينة تعج آنذاك بالخلافات والنزاعات بين الأوس والخزرج من جهة واليهود من جهة أخرى. ولا نغالي إذا قلنا أنه لو نجحت زيارته للطائف وتفهمت ثقيف الدعوة لربما كانت الطائف هي مدينة الرسول قبل يثرب.

ومهما كانت طبيعة العروض التي عرضها الرسول صلى الله عليه وسلم والأسباب التي دعت الثقيفين إلى رفضها فإنها عملت على عودته إلى مكة دون أن يحقق نتيجة تذكر، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتوقع أيضا أن لا يجد التأييد بينهم، لذا ترك أصحابه في مكة ليستطيعوا تدبّر أمر عودته إلى مكة في حالة الفشل، ومن المعروف انه عندما ترك مكة إلى الطائف لم يكن يستطيع العودة إليها إلا إذا ضمن جوار أحد كبار أهل مكة، وبالفعل عندما عاد من الطائف بغير نتيجة بعث إلى الأخنس بن شريق يطلب منه اجارته، لكنه رفض بحجة أن الحليف لا يحير - لأن الأخنس حليف بني زهرة - فعاود الكزة وطلب الاجارة من سهيل بن عمرو لكنه لم يجبه أيضا بحجة أن بني عامر بن لؤي لا تحير على بني كعب، لذا طلب من المطعم بن عدي فقبل الاجارة ومما لا شك فيه أن الرجل الذي كان وسيطا بين الرسول ومن يطلب الاجارة منهم كان من أصحابه والمخلصين لدعوته^(١).

ومهما يكن من أمر، فإن الدعوة لم تكن مفاجئة لثقيف عندما خرج إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوهم في مدينتهم للإسلام، لأن ثقيفا أخذت تسمع بأمر الدعوة سواء بالطائف نفسها أو من رجالها، أو من خارج الطائف، نتيجة انتشار الدعوة الإسلامية، لذا أخذت تخشى هذا الحدث الجديد، وتنظر إليه نظرة لا تقل عن نظرة أهل مكة إليه^(٢). وقد تعجب وفد الثقيفين الذي ذهب إلى الكاهن القضاعي محتكما إليه في قضية الخلاف حول بئر الماء بين جندب بن

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٣٨١، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٧، طبعة دار المعارف.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٥٠.

ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٢٨٢، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

الحارث الثقفي وعبد المطلب، وكان منزل الكاهن بالشام والذي قال لهم:
احلف بالضياء والظلم، والبيت والحرم أن الماء ذا الهرم — ويقصد به البئر —
للقرشي ذى الكرم وساعتها غضب الثقفيون، وعندها قال الكاهن:

اما وَرَب القلص الرواسم يحملن أزوالن بغني طاسم
ان سنساء المجد والمحارم في شيبة الحمد سليل هاشم
أبى النبي المرتضى للعالم^(١).

وتذكر المصادر أن أمية بن أبى الصلت الثقفي قدم دمشق قبل الإسلام،
وكان مطلعاً على الكتب القديمة وكان يذهب إلى هناك للمتاجرة مع أبى
سفيان بن حرب، وبعد ظهور الإسلام سأل عن خبر محمد صلى الله عليه وسلم
ف قيل له يزعم أنه نبي، فخرج حتى قدم إليه وسمع منه آيات من القرآن
وانصرف، فتبعته قريش تسأله عنه فقال: أشهد أنه على الحق. فقالوا له: هل
تتبعه؟ قال: انظر في أمره وخرج إلى الشام وبعد معركة بدر عاد يريد الإسلام
إلا أن مقتل أحد أقاربه جعله يمتنع عن الدخول فيه وبقي في الطائف حتى
مات^(٢). لكن الأصفهاني يؤكد بأن أمية بن أبى الصلت كان يذكر أن نبياً من
العرب سيرسل، لأنه قرأ في الكتب القديمة أن نبياً من العرب سيبعث. فكان
يرجو أن يكونه، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم قيل له: هذا الذى كنت
ترجوه، فقال: انما كنت أرجو أن أكونه^(٣). فأنزل الله فيه قوله تعالى: «واتل
عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها»^(٤). وان الرسول صلى الله عليه وسلم
قال في أمية: إن أمية آمن في شعره وكفر في قلبه وفي موته. قال أمية: دنا أجلي،
وهذه المروضة منيتي، وأنا أعلم أن الحنيفية حق، ولكن الشك يداخلني في
محمل^(٥).

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ٧٤ - ٧٥. تحقيق محمد حيد الله - طبعة دار
المعارف.

(٢) الزركلي: كتاب الأعلام، ج ١، ص ٣٦٤.

(٣) الأصفهاني: الأغاني، ج ٤، ص ١٢٦. طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠.

(٤) القرآن الكريم: سورة الأعراف، آية رقم ١٧٥.

(٥) الأصفهاني: الأغاني - ج ٤، ص ١٣٥. طبعة بيروت.

من الثابت أن أول من عارض الدعوة الإسلامية قریش. وعن طريق ظهور الدين الجديد والدعوة الإسلامية بدأت الأخبار تنتشر بين القبائل العربية الأخرى. ولقد كان الكثير من الثقيين حلفاء لقریش، منهم الأخنس بن شريق الشقفي، فقد كان حليفاً لبني زهرة ولقد سمي بالأخنس لأنه خنس بالقوم يوم بدر قال لبني زهرة ناصحاً لهم إن الله نجى غيركم وأموالك وصاحبكم، ويقصد به مخزومة بن نوفل، وإن محمداً واحد منكم، فإذا كان نبياً سعدتم به، وإن كان كاذباً قتلته غيركم فطالبهم بالرجوع وقالوا له: كيف نستطيع أن نتدبر أمر العودة؟ فقال لهم: اني سوف أظاهر بالسقوط من على بعيري، وأنتم تدعون بأني لسعت، فإذا طلبوا منكم المضي قولوا لا نفارق صاحبنا حتى نتيين أمره، فإذا مضوا رجعنا، وقد فعلت بنو زهرة واستجابت للأخنس الذي كانت له مكانة كبيرة عندهم، وكان فيهم مطاعاً يتيمنون به^(١). وهو الذي كان يستمع سراً إلى الرسول مع أبي جهل، وقد أنزل الله فيه قوله تعالى: «ولا تطع كل حلاف مهين، همّاز مشاء بنميم، متاع للخير معتد أثيم»^(٢). ويذكر الزمخشري بأن الأخنس جاوز في الظلم وأصبح كثير الآثام غليظاً على الرسول والدعوة، فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات التي سبق ذكرها^(٣).

وقد شارك الثقيون مع أهل مكة في إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم عدي بن حمراء الشقفي، وكان جاراً للرسول، فكان يطرح عليه رحمة الشاة وهو يصلّي حتى اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم حائطاً يستر به منهم إذا صلى^(٤). ولقد كان للأخنس وعدي دور وشعب بمكة^(٥).

وكان أبو جهل المخزومي وهو أكثر عداوة للشخص الرسول صلى الله

(١) الواقدي : المغازي - ج ١، ص ٤٤ - ٤٥، طبعة أكسفورد.

(مع التصرف بنقل النص).

(٢) القرآن الكريم : سورة القلم، الآيات ١٠، ١١، ١٢.

ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٣٦٠، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الزمخشري : تفسير الكشاف - ج ٤، ص ٥٨٧. طبعة دار الكتاب العربي، بيروت.

(٤) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤١٦، طبعة الحلبي.

اليقوي : تاريخ اليعقوبي - ج ٢، ص ٢٤.

(٥) الأزرق : أخبار مكة - ج ٢، ص ٢٥٦، ٢٨٧، طبعة الأندلس / بيروت.

عليه وسلم بالذات يبدو أنه ساوره التصديق من رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب، قال ابن اسحاق: « قالت عاتكة والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفرغتني. قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ألا انفروا بالغدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه.. ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت فابقي بيت من بيوت مكة إلا ودخلتها منها فلفة»^(١). وإن المغيرة بن شعبة الشقفي قد عرف عنه أن أمر الدعوة الإسلامية حق، وأن محمدا نبي وذلك خلال زيارته لمكة، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا أبا جهل للإسلام وكان معه المغيرة بن شعبة، وقد اعترف أبو جهل بصدق الدعوة للمغيرة، لكن عناده ومكابرته حالا دون تصديق الرسول ودعوته^(٢).

مما تقدم يتبين لنا أن قبيلة ثقيف كانت تعرف تماما نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم وإن اعتراضها جاء على شخصه بالذات، لأنها طمعت أن تكون النبوة فيها، لهذا اعتقد الرسول بأنهم لن ينصروه ولن يقرّوا بدعوته، بعد رفضهم لعرضه، وطلبوا منه مغادرة مدينتهم وأغروا سفهاءهم بايذائه ورميه بالحجارة عند مغادرته لهم^(٣). وفي هذا الوقت بالذات نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم آية «والسما والطارق وما أدراك ما الطارق...». وقد قرأها الرسول على مسمع من بعض الناس ورددها كثيرا، ومن خلال التردد سمعها من قبيلة عدوان عبد الرحمن بن خالد العدواني، فدعت ثقيف الرجل وسألته ليقراها، لكن القرشيين الموجودين في الطائف والذين حضروا المجلس لسماع الآية كذبوه ورموه بخشن الكلام، فامتنعت بهم وقالت إن قريشا أولى بالتصديق متا، فكيف نصدقه وبذلك أيدت ثقيف قريشا في موقفها من الآية^(٤).

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٦٠٧ - ٦٠٨ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

الواقدي : المغازي - ج ١، ص ٤٢، طبعة أكسفورد.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية - ج ٣، ص ٦٤ - ٦٥.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٤ - ٣٤٥.

اليقوي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٦.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية - ج ٣، ص ١٣٦ - ١٣٧، طبعة بيروت.

لقد عارضت مكة والطائف الدعوة الإسلامية، بينما استجابت المدينة بسرعة لهذا الدعوة، ومن أوائل من استجاب للدعوة سويد بن الصامت الذي جاء مكة حاجباً أو معتمراً فعرض عليه الرسول الإسلام فقال إن هذا القول حسن ثم انصرف فقدم المدينة على قوم فقتلته الخزرج، ثم إسلام إياس بن معاذ ومقابلة الرسول لرهط من الخزرج عند العقبة وما تبعه من إرسال مصعب بن عمير لتعليم أمور الدين هناك، ثم مجيء ٧٣ رجلاً وامرأتين في بيعة العقبة الثانية^(١). لا بد لنا من تفسير هذا الموقف، فقد كان هناك بون شاسع بين الأحوال الدينية والسياسية والاجتماعية في كل من المدينة ومكة. ففي هذه الأخيرة كان هناك نظام سياسي واجتماعي واقتصادي متين البنیان واضح المعالم وضعه زعماء قريش ابتداء من قصي بن كلاب ثم ابنه عبد مناف ثم هاشم ثم عبد المطلب، وهذا النظام نجح في أن يبسط على مكة أمناً واستقراراً جعل منها أكبر قوة سياسية واقتصادية في الحجاز في ذلك الحين^(٢). هذا إلى أن قريشاً رغم اختلاف بطونها وبين ما كان بين هذه البطون من عداوات، كان عند أهلها شعور بأهمية الوحدة وضرورة المحافظة عليها، وذلك للمحافظة على المكاسب السياسية والاقتصادية التي حققها قريش على يد زعمائها الذين ذكرناهم، ومهما بلغت المنافسة بين بني هاشم وبني عبد شمس، وكذلك مهما بلغت المنافسة بين حلف المطيين وحلف الأحناف، فإن أحداً من الفريقين لم يكن مستعداً للذهاب في العداوة إلى أن يجعل وحدة قريش كلها في خطر^(٣). فقد كان الجميع يعلمون أن قوة قريش في وحدة صفوفها وكان أكثر ما أخاف القرشيين في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم أنها عرضت هذه الوحدة للخطر، وهذه ظاهرة من أقوال الكثير من زعماء القرشيين^(٤). فيذكر ابن هشام: «إن زعماء قريش من أمثال عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأبى جهل بن هشام، ومن اجتمع منهم آنذاك قد طلبوا الاجتماع بالرسول، فجاء إليهم وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدءاً، فقالوا له: يا محمد، إنا قد بعثنا إليك لتكلمك، وأنا والله ما

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٥٤ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٠٥، ١١١، ١٢٥، طبعة دار الفكر.

(٣) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ١٣٠ - ١٣٢ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢٤ - ١٢٥.

نعلم رجلا في العرب أدخل على قومه مثلما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفّحت الأحلام، وفرقت الجماعة، فإن كنت تطلب مالا جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تطلب الشرف فإنا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كنت مريضا طلبنا لك الطب من أموالنا، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم، قال: «ما جئتمكم بهذا، وأنا بعثني الله رسولا وأمرني أن أكون بشيرا ونذيرا». وأقوال أخرى كثيرة ردها زعماء قريش بهذا الخصوص^(١).

وتكشف هذه المواقف مجتمعة احساس قريش الطاعني بالتجارة والمال. فقد جعلت مبدأ المال عدلاً للإسلام الحنيف ظناً منها أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقبل به.

فن الناحية السياسية ارتضت نوعاً من التنظيم ألغت فيه الرئاسة القائمة على الزعامة القبلية، فحكمتها العشائر والبطون وتكون منهم ماعرف بالملأ - فوزعت أمور السلطة السياسية بينهم^(٢). فكانوا حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء وإن لا يسود أحدهم على الآخر، من هنا كانت المقاومة خوفاً على انتقال السيادة السياسية منهم وبذلك تنتهى زعامة الملأ.

ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم هاجم الوثنية والأصنام فرأت قريش بذلك أنه يهدم مكانتها بين القبائل، فهو ينتقص من الدين الذي أخذت منه زعامتها الروحية بين العرب وعلى أساس هذه الزعامة يقوم مركزها الاقتصادي، وبذلك أدركت أن انفضاض القبائل عنها يعنى فقدانها التنفيذ السياسي والاقتصادي والأدبي معاً^(٣).

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٢) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ١٣٢، طبعة الحلبي.

الألوسي : بلوغ الأرب، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ١٢١، طبعة دار الفكر.

أحمد كمال : الطريق إلى المدائن، ص ١٨٩، طبعة بيروت، ١٩٧٢.

(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٧٠ وما بعدها.

ويذكر الدكتور طه حسين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لو دعا قريشا إلى التوحيد وحده دون أن يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم من غير مشقة ولا جهد، لأن قريشا لم تكن مؤمنة بأوثانها إيمانا خالصا ولا هي حريصة عليها حرصا صادقا، لكنها كانت تتخذ الأوثان وسيلة لا غاية فهي تنتفع منها وتستمد ثروتها الاقتصادية بما كانت تجلب إليها من الثمرات^(١).

أما في المدينة (يثرب) فقد كان الموقف يختلف عن ذلك كل الاختلاف، فأولا لم تكن المدينة وحدة سياسية كما كانت مكة، إذ لم ترزق بزعيم من طراز قصي بن كلاب، فكانت قبيلتا الأوس والخزرج متنافستين متباغضتين لا تكف الحروب والعداوات بينهما، ومع أن الخزرج كانوا أكثر عددا من الأوس، فإن الأوسيين رغم قلة عددهم كانت فيهم ضراوة وشدة في الحروب، ولم يكن من اليسير على الخزرج طي الأوس تحت جناحهم^(٢).

وزاد في سوء هذا الموقف تلك السياسة الخطيرة التي كان يهود المدينة يتبعونها، فقد كانوا حريصين أشد الحرص على أن يستمر الخلاف بين الأوس والخزرج، فكانوا يوقعون بين الفريقين، وكانوا في الغالب يحالفون الأوس على الخزرج، فاذا أحسوا منها اتجاها إلى الاتحاد ضد اليهود لجأوا إلى التهديد بالنبي الذي كانوا يتحدثون عن قرب قدومه، ويزعمون أنه سيقود اليهود إلى النصر على خصومهم من غير اليهود في المدينة وجعلهم سادة البلد^(٣). ويذكر ابن هشام أن الرهط من الخزرج قالوا لقومهم بعد مقابلتهم للرسول صلى الله عليه وسلم: « يا قوم هذا والله الذي كانت اليهود تعدكم به، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام^(٤) ».

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١١، طبعة دار المعارف ١٩٦٦.

(٢) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٢٨٨ - ٢٩٧، ٥٥٦ - ٥٥٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٢٧٧ و ٣١٧ وما بعدها.

اليقوي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٧، يذكر فيها أيام الحرب بينهما.

(٣) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٢٨ - ٢٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

أحمد الشريف : مكة والمدينة، ص ٣٢١، وما بعدها.

(٤) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٢٩.

اليقوي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٧ - ٣٨، طبعة بيروت.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٥٣ - ٣٥٤.

وكان كل من الأوس والخزرج يخافون هذه الدعوة من جانب اليهود، ولا يستطيعون الاتحاد للقضاء على خطرهم للأسباب التي ذكرناها آنفاً، ولأنهم ربما كانوا لا يستبعدون أن يظهر بالفعل هذا النبي بين اليهود ويقودهم إلى النصر^(١).

اذن، لم تكن هناك في المدينة وحدة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو عسكرية، بل كان هناك عدااء وحروب، ولقد سعت كل من الأوس والخزرج إلى إيجاد أفضل العلاقات مع مكة حفاظاً على النفس والمصلحة، إلا أن قريشا كانت لا تقبل أبداً بسياسة المحالفات مع المدينة ومع الأطراف المتنازعة بالذات كي لا تخلق مراكز نفوذ تضر بمصلحتها وطرقها التجارية الهامة، وهذا واضح من رفض قريش محالفة الأوس ووقوف أبي جهل ضد هذه المحالفات^(٢). فقريش كانت دائماً تتبع سياسة الحياد والتوازن كي لا تعرض مصلحتها للخطر.

من هذا يتضح لنا انه لم يكن هناك في المدينة مثل ذلك الأمن الشامل الذي ساد مكة بقيادة قصي بن كلاب وأبنائه من بعده، ولا مثل الطائف التي كانت آمنة بقبيلتها القوية ثقيف.

ولهذا، فعندما وصلت الدعوة الإسلامية إلى جمهور المدينة على يد النقباء الذين بايعوا الرسول بيعة العقبة الثانية^(٣)، تصور زعماء القبيلتين أن صاحب الدعوة قد يستطيع توحيد صفوفهم وإزالة العداوات من صدورهم وإقامة نظام سياسي واجتماعي يضاهي في صلابته نظام مكة. هذا إلى أن رسل الأوس والخزرج الذين اجتمعوا بالرسول في بيعة العقبة الثانية كانوا يشعرون أن الله سبحانه وتعالى قد اختصهم بهذا النبي المرتقب من دون اليهود، وأنهم سينالون النصر على أعدائهم هؤلاء بزعامة النبي الكريم الذي آمنوا به والذي توسموا في كلامه الصدق والعزم والقدرة على جمع الصفوف وتوحيد أهل البلد تحت راية الدعوة الإسلامية التي بلغهم أياها^(٤).

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ١، ص ٦٧٦ - ٦٧٧، طبعة بيروت.

(٣) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٢٨ - ٤٢٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٣٨، طبعة بيروت.

(٤) ابن هشام : السيرة - المجلد الأول، ص ٤٢٨ - ٤٢٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

من خلاصة ماتقدم يتبين لنا كيف أن مكة والطائف وقفت كل منها موقف المعارض خوفاً على مصالحها المادية والسياسية من أن تتعرض للخطر، في حين أن المدينة لم تكن فيها مثل هذه المصلحة، لا بل كانت هي بحاجة إلى من يوحدتها ويحفظ مصالحها السياسية والاجتماعية والاقتصادية. لذا استجابت للدعوة الإسلامية قبل مكة والطائف.

الفصل الثالث

موقف ثقيف من الصراع القائم بين مكة والمدينة بعد الهجرة

قلنا في الفصل السابق ان موقف ثقيف العدائي ضد الرسول ودعوته الإسلامية التي جاء بها تتمثل في صورتين، الأولى قبل الهجرة، والثانية بعدها. وهذه الفترة الأخيرة امتدت من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم للمدينة حتى حصار الطائف، وخلال هذه الفترة كانت ثقيف تستमित في مقاومة الدعوة وصاحبها، واشتركت برجالها وسلاحها لمقاومتها، وبرغم كل مابذلته من جهد لمجابهتها، فقد آمن بعض الثقيفيين بالاسلام، وهاجروا إلى المدينة، معاندين ثقيفا ومنهم عمار وعامر ولدا غيلان بن الثقيفي أحد وجوه ثقيف الكبار^(١).

ولقد اشتركت ثقيف بعد الهجرة، مع قريش، في حروبها ضد الرسول صلى الله عليه وسلم فساهمت مع قريش في معركة بدر بتحريض من أبي جهل، وان الأخنس بن شريق الثقيفي حاول الاشتراك في موقعة بدر، إلا أن وصول قافلة —أبى سفيان — إلى مكة سالمة جعله يعود بمن كان معه من بني زهرة^(٢). — انظر القصة فيما سبق، ص ١١٥.

ويذكر أن أمية بن أبى الصلت بعد موقعة بدر عاد من الشام يريد الإسلام لكنه سمع بمقتل أقاربه من الثقيفيين في بدر فامتنع عن الإسلام وبقي في الطائف

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٢، ص ٢٥٥، طبعة بغداد

ابن حزم: الجمهرة، ص ٢٦٨.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٤٤ - ٤٥.

الطبري: الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٤٨.

ابن هشام: السيرة، المجلد الأول، ص ٦١٩ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

ابن حبيب: المغبر، ص ٤٥٩.

حتى مات^(١). وكان من المحرضين لقريش ضد الرسول بعد بدر، ومن قوله: (٢).

ماذا ببدر والعقنقل من مراربة جحاح

وبعد أن حلت الهزيمة بالمشركين في بدر أخذوا يخططون لمعركة أخرى ينتقمون فيها لقتلهم من المسلمين، فكانت معركة أحد. ولقد اشتركت نساء ثقيف مع أزواجهن من القرشيين في قتال المسلمين بهذه المعركة^(٣). منهن برزة بنت مسعود الثقفي وهي أم عبد الله الأكبر مع صفوان بن أمية وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه الثقفي، وكذلك أبو سفيان ومعه امرأتان من ثقيف هما هند بنت عتبة وأميمة بنت سعد، واشترك الأخنس بن شريق الثقفي بصفته حليفا لبني زهرة، فهو يتبع قريشا بالولاء وقد قتل ابنه أبو الحكم بن الأخنس في المعركة^(٤). وظلت ثقيف تشارك قريشا وحلفاءها في معاركهم ضد الرسول حتى في موقعة الخندق، ولو أننا لم نحصل على إشارة مباشرة لاشتراك ثقيف في هذه الموقعة، لكن الواقدي يذكر أن قريشا ومن ضوى إليها من العرب اشتركت في هذه الموقعة، علما بأن قبائل قيس غيلان اشتركت فيها، ومنها سليم وغطفان^(٥).

وفي زحمة هذه الأيام التي كانت فيها الغزوات كان هم قريش منصبا على القضاء على الرسول ودعوته، مجتدة لهذا حلفاءها، سواء من ثقيف أو القبائل الأخرى وعندما أسلم المغيرة بن شعبة كان اسلامه ضربة كبيرة لقبيلته ثقيف وحليفها قريش في الوقت نفسه. وتتلخص قصة اسلام المغيرة في أنه خرج مع جماعة من ثقيف بني مالك وكان من ذوى الألباب والعقول النيرة وخرج معه حليفان: الدمون، وهو رجل كندة والشريد، واسمه عمرو، وقد خرجوا جميعا إلى

(١) الزركلي : كتاب الأعلام، ج ١، ص ٣٦٤.

(٢) الأصفهاني : كتاب الأغاني، ج ٤، ص ١٢٦، طبعة بيروت، ١٩٥٥.

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن رواية هذه القصيدة.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ١، ص ٢٠١.

البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣١٢.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ١، ص ٢٠٢، ٣٠٨.

ابن هشام : السيرة، المجلد الأول، ص ٦١٩.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٤٤٣ - ٤٤٤.

البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٣٤٣.

المقوقس حاكم الاسكندرية، إلا أن المقوقس أكرم بنى مالك وأهمل المغيرة، مما أوجد في نفسه الامتعاض والضجر من هذا التصرف وعده امتحانا لكرامته وهيبته، وعند عودتهم إلى الطائف نزلوا يستريحون في منطقة يقال لها بيسان فشربوا خمرًا كثيرًا، لكن المغيرة اعتذر عن الشرب وأخذ يسقيهم حتى إذا ثملوا قتلهم جميعًا وأخذ مامعهم من العطايا والهبات والأموال وذهب إلى الرسول مسلماً، فقبل الرسول اسلامه، لكنه رفض الأموال التي معه لأنها أموال غدر. هذا الأمر أوجد خلافاً كبيراً بين مالك والأحلاف، إلا أن القوم دخلوا بينهم وأصلحوهم شرط أن يدفع عروة بن مسعود، عم المغيرة بن شعبة، ديات القتلى عوضاً عنه^(١).

وبإسلام المغيرة بن شعبة أصبح واحداً من المسلمين لا علاقة له بقومه ثقيف ولقد شهد مع النبي بيعة الرضوان ووقف مدافعاً عن الرسول من أسلم من قومه وهاجر من ثقيف والطائف. وفي سنة ٦ هـ وقفت قريش بقوة وحزم تمنع الرسول من دخول الكعبة، خوفاً من أن يقبل العرب دعوة الإسلام، ووقفت ثقيف مع قريش ضد الرسول في هذا الموقف، وقد عبر عروة بن مسعود الثقفي عن ذلك بقوله: «يامعشر قريش.. ألسنم الوالد وأنا الولد وقد استنفرت أهل عكاظ لنصركم وقد استنفرت أنا بنفسى وولدى ومن أطاعنى؟». وكان يومها يطلب منهم أن يرسلوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لمفاوضة فقبلت قريش مطلبه، وهذا يؤكد مدى الصلة أو العلاقة التي تربط بين ثقيف وقريش^(٢). وأثناء المفاوضات كان المغيرة يقف إلى جانب الرسول وقد منع عمه عروة من أن يمس لحيته أثناء الحديث بينهم، ولقد تأثر عروة من ذلك الموقف بعد أن عرف أن ابن أخيه هو الذى يقف بجانب الرسول ضد قومه، وبعد المفاوضة وعودة الوفد نصح عروة المشركين بصفة عامة وقريشا، بصفة خاصة، أن مصالحة الرسول ضرورية كي لا يحدث مالا تحمد عقباه بينهم^(٣). ولربما كان لإسلام عامر وعمار ولدى

(١) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ وما بعدها.

لقد حمل عروة بن مسعود الديات وقال مخاطباً المغيرة: لقد ورثنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر.

نفس المصدر، ص ٥٩٥ - ٥٩٦، نهاية الصفحة.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٤.

(٣) نفس المصدر، ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

غيلان بن سلمة وحكيم بن الحارث الشقفي والمغيرة بن شعبة أثر أدى إلى أحداث رد فعل عنيف بين صفوف الثقيين، خوفاً من انحياز المزيد من رجالهم نحو محمد وأصحابه^(١). لذا، فقد كان موقف عروة بن مسعود من الصلح مع الرسول وعقد هدنة معه له ما يبرره في ذلك. وبعد صلح الحديبية أسلم قسم من الثقيين منهم عتبة بن أسيد بن جارية الثقي، وكان يلقب بأبي بصير، وأبوه كان حليفاً لبني زهرة وهو الذي أسلم يوم فتح مكة وشهد مع الرسول موقعة حنين وأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم مائة بعير^(٢). وعتبة هو من أسرة الأخنس بن شريق الثقي وهو الذي جاء المدينة مسلماً بعد الحديبية، لهذا طلب الأخنس من الرسول صلى الله عليه وسلم رده إيفاءً بأحد شروط صلح الحديبية، هذا الطلب كان باسم بني زهرة وليس باعتباره ثقياً، لأن أبا بصير من قريش بالحلف^(٣). ويعتبر هذا أول حادث بعد صلح الحديبية، وإيفاء بالعهد، فقد سلمه الرسول للرجلين اللذين بعثهما الأخنس إليه في الطريق لاستلامه^(٤)، وكان عتبة يدرك ما يضمن له الأخنس لذا غافل الرجلين في الطريق وقتل أحدهما وفرّ هرباً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكوه الأمر، وسرعان ما عاد أبو بصير إلى الرسول عارضاً عليه رغبته بالعودة إليه والحياة في المدينة، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض العرض، فخرج أبو بصير إلى العيص وهو مكان على طريق قريش التجاري ناحية ساحل البحر، وهناك استطاع أن يجمع معه ممن حبستهم قريش في مكة، ولما سمعوا به تسلموا إليه فشكل الجميع قوة ضيقت على قريش فلا يخرج منهم رجل إلا قتلته ولا تمر غير إلا اختطفوها، وبذلك شددوا الخناق على قريش وقوافلها، فطلبت قريش من الرسول إيواءهم في المدينة، وهكذا انتهى شرط الحديبية بالنسبة لهم، فقبل الرسول صلى الله عليه وسلم طلبهم وكتب إلى أبي بصير أن يقدم بأصحابه إلى المدينة، لكن الكتاب وصله وهو يحتضر

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٢٥٥، طبعة بغداد.

ابن دريد: الاشتقاق، ص ٣٠٢.

(٢) الزركلي: ما رأيت وما سمعت، ص ٦٨.

وات: محمد في المدينة، ص ٧٣ - ٧٤، الطبعة الانجليزية.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٦١١ (والشرط أنه من أنى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده إليه).

(٤) الواقدي: المغازي، ج ٢، ص ٦٢٥.

فات والكتاب في يده، فقبّره أصحابه هناك وصلّوا عليه وبنوا على قبره مسجداً^(١). ثم بدأت بعد ذلك مساهمة الثقفين مع الرسول في غزواته المتعددة فاشتركوا في فتح خيبر ومكة، ومن الذين اشتركوا معه في هذه الغزوات يعلى بن سبابة بن عوف بن ثقيف وكذلك أبو حذيفة من ولد عتاب بن مالك الثقيفي^(٢).

وبالرغم من الشواهد والأدلة التي تحققت لثقيف بصدق الدعوة فإنها بقيت معاندة ولم تدخل الإسلام إلا بعد موقعة حنين وحصار الطائف، وعندما يئست تماماً أرسلت وفداً رسمياً لمفاوضة الرسول للدخول في الدين الجديد والذي انتهى بتوقيع معاهدة الصلح مع المسلمين في المدينة^(٣).

وهكذا انتهت هذه الفترة بفتح مكة، ودخول قريش في الإسلام، وبذلك بدأت مرحلة أخرى من مراحل علاقة ثقيف بالدعوة الإسلامية، لا سيما وأن حليفها الأولى قد انتهت معارضتها، فبدأت ثقيف تقيم الأمور باتجاه آخر يختلف عما كانت تفكر فيه قبل فتح مكة، حيث أخذت تتطلع إلى أن تحل محل مكة في زعامة الحجاز. وحشد كل الطاقات الممكنة لمحاربة المسلمين وفتح أبواب مدينتها الحصينة لكل المعادين والهاربين من أهل مكة لتكون لها قوة تستطيع بها مجابهة الواقع الجديد ولتعد نفسها للقيام بهذا الدور الجديد الذي أصبح واقعاً أمامها^(٤).

يذكر الواقدي: «أنه لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة مشى أشراف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا.. والله مالاقي محمد قوما يحسنون القتال، فاجمعوا أمرهم فسيروا إليه قبل أن يسير إليكم»^(٥).

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٢٧ ، ٦٢٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة ، المجلد الثاني ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

ابن حجر : الإصابة ، ج ٣ ، ص ٦٦٩ ، ج ٤ ص ٤٣ طبعة بغداد .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٦ .

(٤) البلاذري : أنساب الأشراف ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

(٥) الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ٨٨٥ .

وهذا، نجد أن هوازن وثقيفا ومن والاهما قد أعدوا العدة للمجابهة الفعلية مع الرسول صلى الله عليه وسلم وقد حدث ذلك فعلا فى موقعة حنين والى سنبحتها فى فصل قادم.

ومن هذا كله يتبين لنا أن قبيلة ثقيف قد أيقنت صدق الدعوة، لكنها لم تدخل الإسلام لأسباب رئيسية ومباشرة بالنسبة لها، منها: طموحها بأن تكون النبوة فيها وبأحد رجالها. ولقد عبّر عن ذلك أمية بن أبى الصلت حين قال: والله ما كنت لأؤمن برسول من غير ثقيف وكان يأمل أن يكون هو الرسول المنتظر^(١). وقد جاءت الآية القرآنية معبرة تماما عن هذا التصور فى قوله تعالى: «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها»^(٢).

ولقد عبّر عن ذلك الوليد بن المغيرة فقال: أينزل على محمد وأترك أنا كبير قريش وسيدها ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظميا القريتين، فأنزل الله تعالى فيه: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»^(٣). وكان فى رأى ثقيف أن كلا من عروة بن مسعود أو كنانة ابن عبد ياليل أو مسعود بن معتب أو الأخنس بن شريق الثقفي أحق بالرسالة من محمد^(٤).

لكن الأرجح، على ما يبدو، أن دعوة المشركين كانت لمجرد المعارضة المقررة. فقريش عارضت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو ابنها، فكيف ثقيف منه؟؟.

وخلاصة القول، ان رابطة العلاقات كانت وطيدة بين مكة والطائف، وعلى وجه الخصوص بين قريش وثقيف، تمثلت هذه العلاقة بالمصاهرات الأسرية والمصلحة الاقتصادية والتجارية، وخاصة مع آل عبد شمس بالذات وهم أشد

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ١٢٩ - ١٣٠، مطبعة بغداد.

(٢) القرآن الكريم - سورة الأعراف، آية رقم ١٧٥.

(٣) ابن هشام: السيرة، المجلد الأول، ص ٣٦١، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

القرآن الكريم - سورة الزخرف، آية رقم ٣١.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج ١، ص ١٣٤.

ابن دريد: الاشتقاق، ص ٣٠٣ - ٣٠٦.

كراهية وعداء للإسلام. هذه الظروف هي التي جعلت ثقيف تقف من الدعوة موقف المعارض لا مجاملة لمكة، بل دفاعا عن المصلحة المشتركة^(١). ولم تقبل أن تضع على رأسها رجلا من بنى عبد مناف، وهذا ماعبر عنه أمية بن أبي الصلت الشقفي حين قال: كيف أتبع الغلام من بنى عبد مناف^(٢). وهذا مايفسر خيبة الأمل التي أصيبت بها ثقيف بعد ظهور النبوة في محمد صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى طمع ثقيف الواضح في زعامة الحجاز بعد سقوط مكة ودخولها في حظيرة الدولة الإسلامية.

وهكذا، وإزاء هذه المواقف المختلفة، سنجد أن ثقيفا وحلفاءها من هوازن تتصدى للإسلام وللرسول بكل ما أوتيت من قوة، أملا في السيطرة وكسر شوكة الدولة الجديدة، إلى أن ينتهى بها الأمر إلى التسليم بالأمر الواقع ودخول الإسلام طواعية، وعقد معاهدة مع الرسول بهذا الخصوص وهذا ماسنراه في فصل قادم.

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٧، ج ٧ ص ٢٦٦.

البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٥، ص ١٦٠.

ابن الجاور : تاريخ المستبصر، ص ٢١ - ٢٢.

لامانس : مدينة الطائف، ص ١٣٠ - ١٣٢، الطبعة الفرنسية ١٩٢٢.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٢، ص ٢٢٤.

ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ١٢٩ - ١٣٠، فقرة أمية بن أبي الصلت الثقفى.

الفصل الرابع دخول ثقيف في الإسلام

مرّت فترة دخول ثقيف في الإسلام بمراحل متعددة. فلقد حلت مكة لواء المعارضة للدعوة قبل أن يفتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فتحت مكة اعتبرت قبيلتا هوازن وثقيف في الطائف ضربة شديدة وقاضية للوثنية في شبه الجزيرة العربية، وأدركتا أن الضربة التالية ستوجه إليهما لا محالة، لا سيما وأنها تعيشان قريبا من مكة وأن مدينة الطائف مرتبطة ارتباطا كبيرا. فلما استسلمت مكة، وعظم شأن المسلمين، كان على هوازن وثقيف أن يعولوا هم، وأن يحاولوا الانتفاع من قوة المبادأة، مادام الرسول لا يبدأ بالعدوان، فتهيؤوا للحرب، وحشدوا جموعهم في حنين لملاقاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا ما ستعرض له فيما بعد. لذا لم تدخل ثقيف الإسلام إلا في العام التاسع الهجري سلما بموجب معاهدة مكتوبة بينهما وبين الرسول، بعد أن واجهت المسلمين بموقعتين، الأولى بمخالفة قبيلة هوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان والتي عرفت بموقعة حنين في شوال سنة ٨ للهجرة، والثانية بعد فشلها في حنين وهروها إلى الطائف والاعتصام بمدينة المحصنة^(١). ولا بد لنا من أن نستعرض كيف كانت النهاية وكيف اعتنقت ثقيف الإسلام.

أولا : معركة حنين :

اشتدت معارضة ثقيف للإسلام وزاد عنادها له وبخاصة بعد سقوط مكة، وأبت الخضوع للدعوة، وقد دفعها إلى ذلك عوامل متعددة، منها الرغبة الواضحة بالانفراد بتجارة الحجاز مع بلاد الشام واليمن وفارس وإمكانية استغلال هذه

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٥ وما بعدها، طبعة أكسفورد.

التجارة لصالحها والتي احتكرتها قريش منذ انتصارها في حروب الفجار. بالإضافة إلى ما كان يساور «ثقيف» من رغبة حقيقية في الاستيلاء على أموال القرشيين المستثمرة في الطائف والتي كان لها الدور البارز في اقتصاد المدينة حينذاك^(١). بالإضافة إلى ماسيتيحه لها انفرادها بهذه التجارة والأموال من قوة لها في الداخل وتقوية لعلاقاتها الخارجية وتعريف المستوردين بمنتجاتها المحلية بشكل مباشر دون أن يكون لقريش وساطة أو دور فيها^(٢). بالإضافة إلى العامل الديني الذي لعب دورا بارزا في هذه المعارضة، ولا سيما أنها أصبحت تعتقد بأنها حامية الديانة الوثنية بعد سقوط مكة، ومن واجبها حماية هذه الديانة المهددة بالانهيار ولربما كانت تفكر بأن بيت اللات سيصبح بديلا للكعبة وبعدها سيصبح موردا اقتصاديا آخر لها، مما سيوفر لها مركزا دينيا واقتصاديا معا.

إن استعدادات المشركين من هوازن وثقيف لمواجهة المسلمين بدأت قبل فتح مكة، لأنهم كانوا يعتبرون اتساع نفوذ الرسول بمثابة تهديد لهم، ولعلمهم كانوا يبيتون أمرا عندما بدأ النبي تحركه نحو مكة، فلما رأته هوازن وثقيف قد اتجه إلى مكة تلكأوا^(٣)، لعل قريشا تكفيهم شر القتال، فلما استسلمت مكة، وعظم شأن المسلمين، فتهيأوا للحرب، وحشدوا جموعهم في حنين يقودهم مالك بن عوف النصري، وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يضع في خططه احتلال الطائف وذلك من وجهة نظره الرامية إلى توحيد العرب ونشر الإسلام بينهم. لكن فتح مكة وسيطرة المسلمين عليها جعل هوازن وحلفاءها من الثقيفيين يفكرون جديا في مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم. يذكر الواقدي: لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، مشى أشرف هوازن بعضها إلى بعض، وثقيف بعضها إلى بعض، وحشدوا وبغوا وأظهروا أن قالوا: والله مالاقي محمد قوما يحسنون القتال، فاجمعوا أمركم فسيروا إليه قبل أن يسير اليكم. فأجمعت

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٠٩، ٤١١، طبعة الخبي ١٩٥٩.

دائرة المعارف الإسلامية: مجلد ١٥، ص ٥٥، ترجمة عبد الحميد يونس.

ابن المجاور : تاريخ المستنصر، ص ٢١ - ٢٢.

لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣، الطبعة الفرنسية.

(٢) منتجمرى وات : محمد في المدينة، ص ٧١، الطبعة الانجليزية.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠.

هوازن أمرها وجمعها مالك بن عوف.. وكان في ثقيف سيدان لها يومئذ، قارب بن الأسود بن مسعود في الأحلاف هو الذي قادها، وفي بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث» (١).

هذا التصميم على القتال دفعهم إلى مخالفة القبائل المجاورة وتحريضها على مقاتلة المسلمين وكسر شوكتهم أو على الأقل الحد من توسعهم بأى ثمن كان. ولهذا اتجهوا نحو مجموعة قبائل قيس عيلان المحيطة بهم والتي لازالت بعيدة عن الإسلام. لقد كادت استجابة القبائل لنداء الحرب ضد الرسول تكون اجتماعية ماعدا كعبا وكلابا وأغلب بنى هلال لأنهم رأوا في ذلك التحالف مع إجماعية هوازن وثقيف ضد المسلمين مخاطرة ومهلكة لهم (٢). علما بأن قبيلتي كعب وكراب كانتا من القبائل القوية والتي يحسب لها حساب كبير في الحرب، حيث وصف دريد بن الصمة شيخ بنى جشم المعروف غيابها عن الحرب بأنه غياب الجد والحد، أى الفعالية والقوة والاقدام. ونتيجة هذا التحالف وجد حلف كبير من هذه القبائل وشكل تجمع خطير ضد المسلمين بقيادة رجل هوازن مالك بن عوف النصري، وقد أحيا هذا الموقف في نفوس القيسيين والثقفين ذكرى حرب الفجار التي حدثت بسبب التنافس بين مكة والطائف حول زعامة التجارة العربية والتي انتهت بانتصار مكة على الطائف، ولقد أدت تلك الهزيمة إلى غرس روح الحقد في نفوسهم، مما جعل ثقيفا تفكر جديا بالانتقام، فلربما انقلب ميزان القوى لصالحها، وأخيرا تنفرد بالسلطين السياسية والاقتصادية معا.

إن فتح مكة من قبل المسلمين قد هزّ الثقفين وملأهم رعبا وفزعاً، ولا سيما أنهم كانوا يعتبرون انتصارات الرسول على أعدائه تعود إلى ضعف المقاومين وعدم استماتتهم في القتال. لذا بعد فتح مكة أصبحوا أمام الأمر الواقع وأيقنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يتركهم، بل ستكون مدينتهم الطائف هدفة

(١) الواقدي : المغازي ج ٣، ص ٨٨٥، طبعة أكسفورد.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠ - ٧١ طبعة دار المعارف.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

ابن الأثير : الكامل، المجلد الثاني، ص ٢٦١، طبعة بيروت.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٦.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧، طبعة الحلبي.

الثانى بعد مكة، لذا قرّروا نسيان الماضي وخلافاته وتوحيد صفوفهم لمجابهة الأخطار المحدقة بهم^(١). وقرروا أن يكون الهجوم من جانبهم كي لا تؤخذ مدينتهم على حين غرة، بالوقت نفسه اختاروا مكان وزمان المعركة وليكن وادى حنين مكانا لها وتكون أوطاس نقطة للتجمع فيها^(٢). حتى تكون لهم أشبه بقاعدة للانطلاق ضدّ المسلمين، لأن المعركة ستكون بالنسبة لهم حياة أو موت. ومن الناحية الأخرى فإن الرسول صلى الله عليه وسلم دخل مكة دون قتال على الوجه العام، فقواته سليمة غير منهكة، وقد انضمت إليه قريش فعظمت قوته ومع هذا اختاروا الهجوم عليه محاولين الانتفاع من المبادأة فكانت جموعهم بقيادة مالك بن عوف النصري كبيرة — لكن كتب السيرة لم تذكر لنا بالضبط تعداد هذا الجمع^(٣). — ولكن لا ريب أنه كان كبيرا، ثم أنه لا شك كان يجمع أقوى من بقي في بلاد العرب على الشرك، وآخر مجموعة يمكن أن تقف في وجه المسلمين، أمثال مالك بن عوف النصري وقارب بن الأسود وسبيع بن الحارث وعمرو وعوف بن عامر ودريد بن الصمة المتيمن برأيه ومعرفته بالحرب فهو شيخ مجرب في هذا الميدان^(٤).

-
- (١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها.
لامانس : مدينة الطائف، ص ١١٠، الطبعة الفرنسية، ١٩٢٢.
- (٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٧.
ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٣٧ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
أوطاس : واد في ديار هوازن وفيه كانت موقعة حنين.
البكري : معجم ما استعجم، ج ١، ص ١٣١.
انظر كذلك ما جاء في الحاشية رقم (٥) من كتاب السيرة لابن هشام، ص ٤٣٧ — ٤٣٨.
- (٣) لم تحدثنا كتب السيرة بتعداد هذا الجمع بالضبط، إلا أن بروكلمان يذكر أنهم كانوا جيشا من ثلاثين ألف مقاتل، بينما يذكر مونجمرى وات بأن تعداد المشركين عشرون ألف رجل. والثابت أن جيش المشركين كان يفوق في عدده جيش المسلمين.
بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٦١، طبعة دار الملايين، سنة ١٩٦٨.
مونجمرى وات : محمد في المدينة ص ٧٢، الطبعة الانجليزية / طبعة أكسفورد.
- (٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٥ وما بعدها.
ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٣٧، طبعة الحلبي.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧١ — ٧٢ طبعة دار المعارف.
ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المجلد الثاني، ص ٢٦١ وما بعدها.

لقد كانت خطة قائدهم مالك بن عوف النصري أن يخرجوا جميعا بما لهم وعبائهم، ولو كانت الأرض يمكن أن تحمل لحملوها معهم، كل هذا لأن مالكا شاء أن يجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم، ولكن الواقع ما كان ليغني عنهم شيئا وهي وإن كانت لهم، لم ينفعهم إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليهم فكأنهم فضحوا في أهلهم وعبائهم وأموالهم، وهذا هو رأى دريد بن الصمة الشيخ الذي أفنى عمره في الحرب^(١). لقد اشتركت ثقيف في الحرب بفرعيها الرئيسيين الأحلاف وبنى مالك. وكان لكل منهم قائد، فقائد بنى مالك ذو الخمار سبيع ابن الحارث. أما الأحلاف فكان قائدهم قارب بن الأسود بن مسعود الثقفي. أما قوات النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تتألف من جيشه الذي جاء به لفتح مكة وعدده عشرة آلاف مقاتل، ثم قوات قريش الخاصة وعددها ألفان يقود مقدمتهم القائد خالد بن الوليد. ويبدو أن بعض رجال قريش قد خرجوا مع النبي وهم حرب عليه وأكثر رغبة في هزيمته، ولم يكن ذلك خافيا على الرسول. يذكر ابن هشام: «ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ألفان من أهل مكة مع العشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه.. فكانوا اثني عشر ألفا.. ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجهه يريد لقاء هوازن»^(٢). ويذكر ابن هشام كذلك «فلما انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر.. وصرخ جبلة بن الحنبل — قال ابن هشام — كلده بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية مشرك في المدة التي جعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا بطل السحر اليوم. فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك. فوالله لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن»^(٣). ويظهر هنا

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني ص ٤٣٨ وما بعدها. طبعة الحلبي.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٧ وما بعدها.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٠، طبعة الحلبي.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٣.

(٣) ابن هشام : السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٤٣ — ٤٤٤ طبعة الحلبي.

ما للعصبية القبلية من تأثير في النفوس فقد فضل صفوان رجلا من قريش على رجل من هوازن، لأن الرسول كما نعلم قرشي ومن صميمها. وهذا يوضح لنا أيضا ما للعصبية القبلية والمنافسة الشديدة والحقد الكامن بين قريش وهوازن وحلفائها.

قبل أن نذكر هذه الموقعة وأهميتها، لابد لنا من أن نبين أن فترة بقاء الرسول في مكة كانت قصيرة فهي خمسة عشر يوما^(١)، قد لا تكفي للاستعداد لمواجهة هذا الموقف العصيب، ولكن كما يبدو أن المسلمين كانوا يحسّون بقوتهم ولا زال انتصارهم في مكة ماثلا في أذهانهم، فتصوروا أنهم لن يغلبوا أبدا بذلك استهانوا بقوة العدو كما سجل ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»^(٢). ولقد عبر عن هذه الاستهانة رجل من جيش المسلمين حين قال: «لولقينا بني شيبان ما بالينا، ولا يغلبنا اليوم أحد من قلة»^(٣). وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك حين قال: «خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة — كلمتهم واحدة»^(٤).

ومما لا شك فيه أن كلا الطرفين كان على علم بما لدى الطرف الآخر من عدة وعدد وتجهيز واستعداد، فقد بعث مالك بن عوف النصري عيونا من رجاله دخلوا بين المسلمين ليخبروه عن مدى استعداد المسلمين وقوتهم للقتال ومنهم ذلك

== الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤، طبعة دار المعارف.

ويذكر الواقدي أن من خرج مع الرسول من الذين لم يسلموا أو لم يتغفلوا السلام في نفوسهم بعد منهم أبو سفيان بن حرب، صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وسهيل بن عمرو، الحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة ينظرون لمن تكون الدائرة في الحرب.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٥.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٦٣.

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٠.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٩.

(٢) القرآن الكريم : سورة التوبة، آية رقم ٢٥.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٨٩.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٠.

الجاسوس الذى أراد قتل الرسول صلى الله عليه وسلم وهو نائم والذى حاول أبو بردة قتله، إلا أن الرسول نجاه عن قتله حينما قال صلى الله عليه وسلم : «يا أبا بردة، إن الله مانعنى وحافضى حتى يظهر دينه على الدين كله»^(١). ولما علم الرسول صلى الله عليه وسلم بما يفعله مالك أرسل إليهم عبد الله بن أبى حدود الأسلمي وأمره أن يدخل بينهم ويقيم هناك حتى يأخذ كل ما يمكن أخذه من أخبارهم ويعود به إلى الرسول والمسلمين، وبالفعل نفذ عبد الله المهمة بأمانة ونقل للرسول كل الذى رآه وسمعه حتى إن عمر بن الخطاب أفرغه الأمر، فاعتقد أن عبد الله يكذب على الرسول، ومن خلال رد الرسول صلى الله عليه وسلم على عمر بن الخطاب يظهر أن الرسول كان مصدقا واثقا بالذى نقله له عبد الله بن أبى حدود الأسلمي^(٢).

هذا الأسلوب فى جمع المعلومات استخدمه الطرفان لمعرفة ما يملكه كلاهما. ولذا عندما قال أحد المسلمين للرسول ان هوازن جاءت على بكرة أبيها إلى وادى حنين تبسّم الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله^(٣).

لقد كان مالك بن عوف النصري فى الثلاثين من عمره وكان من فتيان الصراع والحرب وهو سيد قومه، ومعه دريد بن الصمة شيخ مجرب أفنى عمره فى الحرب لكنه حذر مالكا من النتيجة الوخيمة التى ربما تلحق به نتيجة تصرفه الخاطيء بجلب النساء والعيال وعدم اشراك كلب وكلاب وبنى هلال فى المعركة، لكن مالكا كان مزهوا بقوته ضاربا عرض الحائط بكل الآراء التى تخالفه فى الهجوم والمعركة وبخاصة بعد أن جمع الناس كلهم وجعل الامدادات

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثانى، ص ٤٣٩ طبعة الحلبي ١٩٥٥.

الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩١ - ٨٩٢.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٢، طبعة دار المعارف.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثانى، ص ٤٣٩ - ٤٤٠ طبعة الحلبي ١٩٥٥.

الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٩٣.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٣، طبعة دار المعارف.

(٣) الواقدي المغازى، ج ٣، ص ٨٩٣ - ٨٩٤.

تأتى إليهم من كل جانب، وبذلك أيقن أن النصر حليفه لا محالة. ولهذا رفض كل نصيحة وكل نداء للكف عن الحرب وسحب الناس والأموال والعيال. لقد ذكرت المصادر أن دريد بن الصمة حين نزل الأرض ولمسها بيده، قال: «بأى واد أنتم؟». قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل.. لا حزن ضرر ولا سهل دهس.. مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير، وثغاء الشاء، وخوار البقر، وبكاء الصغير؟. قالوا: ساق مالك من الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: يامعشر هوازن، أمعكم من بنى كلاب بن ربيعة أحد؟. قالوا: لا. قال: فمعكم من بنى كعب بن ربيعة أحد؟. قالوا: لا. قال دريد: لو كان خيرا ماسبقتموهم إليه، ولو كان ذكرا أو شرفا ما تخلفوا عنه، فأطيعونى يامعشر هوازن، وارجعوا وافعلوا ما فعل هؤلاء. فأبوا عليه. قال: فن شهدها منكم؟. قالوا: عمرو بن عامر، وعوف بن عامر. قال: ذلك الجذعان من عامر، لا يضران ولا يتفغان... فقال يامالك انك تقاتل رجلا كريما، وقد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام.. قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولده ونسائه حتى يقاتل عنهم.. قال دريد: مافعلت كعب وكتلاب؟. قالوا لم يشهدا منهم أحد. قال: غاب الجد والحد، ولو كان يوم رفعة وعلاء لم تغب عنه كعب وكتلاب. يامالك، انك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نخور الخيل شيئا، فاذا صنعت فلا تعصنى فى هذه الخطة، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعليهم قومهم وعزهم، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وكان أهلك لا خوف عليهم، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فغضب مالك من قوله، وقال: والله لا أفعل، ولا أغير أمرا صنعته. انك قد كبرت وكبر علمك، وحدث بعدك من هو أبصر بالحرب منك.. قال دريد: يامعشر هوازن، والله ما هذا لكم برأى هذا فاضحكم فى عورتكم وممكن منكم عدوكم.. فقالوا: والله لئن عصينا مالكا وهو شاب ليقتلن^(١). نفسه ونبقى مع دريد.. لما رأى ذلك دريد وأنهم خالفوه. قال: هذا يوم لم أشهده ولم أغب عنه».

من خلال هذا الحوار بين مالك ودريد بن الصمة، نرى أن مالكا كان

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٨٨٧ - ٨٨٩.
الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٢ - ٧٣.

مصرًا على الحرب مستعدا لها مؤتمًا كل ما تحتاجه هذه الجموع التي جمعها، متها
 دريد ابن الصمة بالكبر وفقدان الحكمة في أمور الحرب، مزهوا بقوته وتأييد هذه
 الجموع له، لهذا كان لزاما عليه أن ينصرف بجموعه إلى أرض تهامة الجبلية —
 بعد أن عرف المسلمين وقوتهم — لذا حسب أنه من شعاب الجبل يستطيع أن
 يرقب تقدم العدو، ويخفي أوضاع جنوده ويستطيع أن يتحكم في الممرات الضيقة،
 ثم يهجم على المسلمين من علي كالسيل الجارف فيقوض أركانهم ويهز جموعهم.
 وفي غمرة هذا الاضطراب سيقتل بعضهم بعضا وبذلك يدرك غرضه ويحقق
 ما عجزت قريش عن تحقيقه والأحزاب معا^(١). وفعلًا ما أن وصل جيش المسلمين
 إلى أوطاس حتى فاجأهم العدو الختفي والتربص خلف الصخور والأودية
 والشعاب وشدوا على الجيش الاسلامي شدة رجل واحد، فأخذ المسلمون
 بالمفاجأة فحدث دعر واختلت الصفوف ولم يدر الناس من أين يأتيهم الموت،
 ولذا كان عامل الذعر بين الصفوف والارتباك القوي عاملا هداما في صفوف
 المسلمين ولا سيما أن بعض قبائل الموالين للرسول صلى الله عليه وسلم لا زالت
 حديثة العهد بالاسلام^(٢). بالإضافة إلى عامل الغش والتمويه الذي استخدمه
 مالك في هذا الهجوم حيث ساق النساء والذراري وجعلهم صفوفًا بعد أن وضع
 النساء فوق الإبل وراء صفوف الرجال، ثم ساق الإبل والبقر والغنم وراءهم، فلما
 رأى المسلمون ذلك حسبوه رجالًا كلهم مما زاد في الارتباك والذعر والخوف^(٣).
 وبذلك حلت الهزيمة بالمسلمين في بادئ الأمر وتشتت جموعهم إلا أن موقف
 الرسول صلى الله عليه وسلم الحازم كان له الأثر الأكبر في تثبيت العزائم
 وانتزاع النصر في النهاية، وذلك من خلال ثبات النبي صلى الله عليه وسلم
 ورباطة جأشه وثبات صفوة من رجاله المخلصين أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٢ — ٤٤٣ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٥، طبعة أكسفورد.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤. طبعة دار المعارف.

مونتجمري وات : محمد في المدينة، ص ٧٠ — ٧١ الطبعة الانجليزية. طبعة أكسفورد.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٣.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٧.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٧.

الخطاب وعلي بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وغيرهم^(١). وكان لنداء الرسول الموجه للأنصار وتذكيرهم بعودهم ومواقفهم السابقة، هذا النداء الذي وجهه العبّاس نيابة عن الرسول كان له صداه المؤثر في النفوس، تذكر المصادر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رأى الناس مارأى: «أين أيها الناس.. قال ياعباس، اصرخ: يامعشر الأنصار.. يا أصحاب السمرة.. فناديت: يامعشر الأنصار، يامعشر أصحاب السمرة قال: فأجابوا: أن لبيك لبيك.. قال: فيذهب الرجل منهم يريد ليشنى بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ثم يقتحم من بعيره فيخلى سبيله في الناس، ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة رجل استقبلوا الناس، فاقتلوا، فكانت الدعوى أول ما كانت: يالأنصار، ثم جعلت أخيرا: ياللخزرج.. وكانوا صبرا عند الحرب، فأشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم في ركابه، فنظر مجتلد القوم وهم يجتلدون. فقال: الآن حى الوطيس^(٢). ثم قال للعبّاس: ناولنى حصيات.. فناوله حصيات من الأرض، ثم قال: شأهت الوجوه.. ورمى بها وجوه المشركين، وقال: انهزموا ورب الكعبة^(٣). ويذكر الطبري إن جبير بن مطعم قال: «لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فاذا نمل أسود مبعوث قد ملأ الوادى، فلم أشك انها الملائكة، ولم يكن إلا هزيمة القوم^(٤)».

مما تقدم يتبين لنا أن ثبات النبي صلى الله عليه وسلم وحده في تلك المعركة الضارية وحوله مجموعة صغيرة من الأنصار والمهاجرين كان له الأثر الهام في مجريات الحرب والانتصار حيث اجتمعت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قوة صغيرة من المهاجرين والأنصار أوقفت هجوم العدو ومكنت جيش المسلمين من

(١) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٣، طبعة الحلبي.

الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٤.

(٢) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٥، طبعة دار المعارف.

(٣) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٨٩٩.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٧.

لَمْ شعته، ونهض النبي صلى الله عليه وسلم على رأس رجاله واتخذ القتال طابع الشدة والعنف وتمكن علي بن أبي طالب من إصابة قائد الجموع — حامل الراية — عندما أصاب عرقوبي جملة، فوقع على عجزه فوثب أحد الأنصار على الرجل فقتله، فكان سقوطه ومصرعه بداية الفوضى في صفوف المشركين^(١). ثم شدد المسلمون عليهم الهجوم وأوقعوا فيهم القتل مما دفعهم إلى التراجع وقد انهارت قوتهم بعد التراجع ومشاهدة أسراهم مكتفين عند المسلمين^(٢)، إلا أن قائدهم مالك استطاع أن يحمي انسحابهم بسيطرته على أحد الممرات الهامة مع قبيلة نصر كسبا للوقت لكن محاولته يبدو أنها كانت غير مجدية^(٣). فقد أسر منهم من أسر وقتل عدد كبير منهم قائد بني مالك ذو الخمار سبيع بن الحارث وعثمان بن عبد الله أحد أصحاب راية المشركين وجمع كبير من بني مالك قُدر بأكثر من مائة قتيل. أما قتلى الأحلاف فكانوا اثنين: وهب واللجلج وهما من بني غيرة. ولقد امتنع الرسول صلى الله عليه وسلم من قتل اللجلج فوصفه بأنه سيد شباب ثقيف^(٤). وبذلك تشتت جوع المحاربين من هوازن وثقيف وحلفائهم من نصر وجشم وغيرهم وتحولت هزيمة المسلمين إلى نصر كبير، رغم كل ما بذله رجال هوازن وثقيف قبل أن تنتهي المعركة لصالح المسلمين.

لابدَ لنا من ان نشير أيضا إلى ما ذكره المستشرقون^(٥)، من أن أصحاب النساء والأطفال والأموال كان من أكبر أخطاء مالك بن عوف النصري، حيث لعب الأطفال والنساء دورا بارزا في الفشل وبخاصة بعد أن اشتد القتال بين الطرفين وصرخت النساء والأطفال وفروا خوفا من الموت، ففر معهم الرجال سعيا وراء النجاة، وهذا ما كان يدركه تماما دريد بن الصمة، لذا حذر مالكاً من الهزيمة وفضيحة الأسر التي سيتعرض لها بعد الهزيمة.

- (١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٦.
 - (٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٨٩٨، ٩٠٢ — ٩٠٣.
 - (٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٦.
 - (٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩١٦.
 - (٥) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٠٧.
- بينما يذكر ابن هشام في السيرة — المجلد الثاني ص ٤٤٩ — ٤٥٠ بأن قتلى بني مالك كان سبعون رجلا منهم ذى الخمار سبيع بن الحارث وعثمان بن عبد الله بن ربيعة وهما من أصحاب الراية.
- (٥) مونتجمري وات : محمد في المدينة، ص ٧٠ وما بعدها. الطبعة الانجليزية.

والواقع - كما تشير المصادر - أن هزيمة المشركين من هوازن وحلفائهم لم ترجع إلى وجود النساء والذراري معها، فإن أصحاب النساء والذراري مع الجيوش للقتال كان من العادات الشائعة والمعروفة عند العرب في غزوة أحد اجتمعت حول أبي سفيان قريش والأحابيش وعرب كنانة وتهامة، فخرج بهم يريد المدينة وأصطحب القيان ومعهم المعازف والخمر وخرج معهم نساء كبارهم لاثارة حماسهم^(١). فقد ذكر الواقدي أن صفوان بن أمية قال: «أخرجوا بالظعن، فأنا أول من فعل، فانه أقن أن يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر». فقال عكرمة بن أبى جهل: أنا أول من أجاب إلى مادعوت إليه. وقال عمرو بن العاص مثل ذلك.. فصاحت هند بنت عتبة: أنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك، نعم، نخرج فنشهد القتال، فقد ردت القيان من الجحفة في سفرهم إلى بدر فقتلت الأتجة يومئذ، قال أبو سفيان: لست أخالف قريشا، أنا رجل منها، ما فعلت فعلت، فخرجوا بالظعن^(٢). لذا، فإن خروج النساء مع المقاتلين كان من عوامل تشجيع الرجال على الاستبسال في القتال واثارة حماسهم وليس عامل ضعف وربما كان خشية دريد بن الصمة على نساء هوازن ناجمة عن تحلف بني كعب وبني كلاب عن المعركة فقال عنها غاب الجد والحد، بينا وصف عوف بن عامر وعمرو بن عامر اللذان اشتركا في القتال بالجدعين، أى الضعيفان اللذان لا ينفعان ولا يضرانه^(٣).

واشتراك النساء في القتال لم يقتصر على هوازن وحلفائها فحسب، بل إن نساء المسلمين اشتركن في القتال أيضا، وعلى سبيل المثال لا الحصر أم عمارة وكان في يدها سيف صارم، وأم سليم ومعها خنجر وقد حزمته على وسطها وكانت تدعو الرسول لقتل الفارين، وأم الحارث وكن يشجعن المسلمين على القتال وعدم الفرار من المعركة^(٤).

(١) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٦١ - ٦٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ١، ص ٢٠٢.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٨٨٧.

(٤) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٠٢ - ٩٠٣.

الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٧.

ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني ص ٤٤٦ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

إن نصر المسلمين في حنين يعود إلى الروح المعنوية العالية والثبات الذي أبداه الرسول صلى الله عليه وسلم والصفوة المختارة من الأصحاب^(١). في تقرير مصير المعركة ومع هذا فإن النصر كان من عند الله وبإرادته، قال تعالى: «... ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها»^(٢). هذه الجنود التي أشار إليها الطبري بأنها غل أسود مبثوث قد ملأ وادي حنين والتي وصفها بأنها الملائكة التي أدت إلى هزيمة القوم بعدئذ^(٣). هذا النصر الذي ترك رعبا وفزعاً في نفوس المشركين حتى دخولهم الطائف منهزمين^(٤).

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة هوازن وثقيف ومن حالفهما من القبائل الأخرى، وفرّ رجالهم إلى الطائف ونخلة وأوطاس، فلحقت بهم جموع المسلمين وقتلوا منهم من استطاعوا للحقاق بهم وفرّ الآخرون وأسر من النساء والأطفال والجمال والأموال ما لم يكن في الحسبان، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد وعد أصحابه بهذه الغنائم الكثيرة يوم شاهد جموعها في أوطاس، وبذلك أصبح النصر مهما وله صدى كبير في منطقة الحجاز كلها وبلاد العرب باعتبارها أول مواجهة حقيقية بين المسلمين والقبائل أثناء حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، لذا لم يجزء بعدها أحد أن يقف ضد الرسول صلى الله عليه وسلم أدركت القبائل أن لا فائدة من المقاومة ولذلك فإن السنة التاسعة للهجرة شهدت بداية قدوم الوفود إلى المدينة من كافة أنحاء شبه الجزيرة للتحالف أو عقد الاتفاقيات والمعاهدات والدخول في الاسلام.

والأرجح أنه مهما كان النصر كبيرا في حنين فقد كان فتح مكة بداية كبرى لانتهاء عهد الشرك في الجزيرة وهذا واضح من قوله تعالى: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره انه

(١) الصفوة المختارة هم المائة الصابرة يومئذ، ثلاثة وثلاثون من المهاجرين، وسبعة وستون من الانصار والعباس وأبوسفيان.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٠١.

(٢) القرآن الكريم : سورة التوبة، آية رقم ٢٦.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٤٩، طبعة - لبي.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٧٧.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٠٨، ٩٠٩.

كان تَوَابًا»^(١). والمقصود هنا بالفتح، فتح مكة، وبعد الفتح رأيت الناس من كل صوب وحذب يدخلون في دين الله^(٢). وهذا يفسر لنا ما كان لمكة من أهمية كبرى في مدن الحجاز بصفة خاصة وشبه الجزيرة العربية بصفة عامة.

بقي لنا أن نلقى بعض الضوء على الأحداث التي رافقت المعركة، فالقبائل التي اشتركت فيها هوازن وثقيف بفرعيها الأحلاف وبنو مالك وبنو نصر وجشم وبعض بني هلال، ومن القادة مالك بن عوف النصري الذي نجى من الموت وفر إلى الطائف ثم أسلم بعد ذلك، ودريد بن الصمة وكان شيخا كبيرا بلغ المائة والستين من العمر، والذي قتل بعد المعركة — قتله ربيعة بن ربيع السلمي^(٣) — ومن بني مالك قتل حوالى المائة، منهم ذو الحمار سبيع بن الحارث وعثمان بن عبد الله بن ربيعة وهما من حملة الراية وقادة بني مالك، ومن الأحلاف قتل أثنان هما وهب واللجلاج والذي قال الرسول في اللجلاج: «قتل اليوم سيد شباب ثقيف»^(٤)، بينما ذم قتلى بني مالك، فقال صلى الله عليه وسلم في مقتل عثمان بن عبد الله: «أبعده الله أنه كان يغيض قريشا»^(٥).

أما من استشهد من المسلمين في حنين فهم أربعة: أيمن بن عبيد وهو ابن أم أيمن وهو من الأنصار، وسراقة بن الحارث من الأنصار أيضا، ورقم بن ثابت بن ثعلبة وأبو عامر الأشعري الذي أصيب بأوطاس^(٦).

- (١) القرآن الكريم — سورة النصر، آية رقم ١ — ٣.
- (٢) ابن كثير: تفسير القرآن الكريم، ج ٣ ص ٦٨٦ وما بعدها، طبعة مكة المكرمة.
- (٣) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٥٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
- الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩١٤.
- الطبري: الرسل والملوك، ص ٧٩. طبعة دار المعارف.
- (٤) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٠٧ بينما يذكر ابن هشام في السيرة المجلد الثاني، ص ٤٥٠ أن اسمه الجلاح.
- (٥) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٠٧.
- نخلة: واد هذيل على ليلتين من مكة، وهناك نخلة الشامية وهي واد فيه بستان ابن عامر وعنده تجتمع النخلتان اليمانية والشامية وهما في بطن مر.
- ياقوت: معجم البلدان، المجلد الخامس، ص ٢٧٧، طبعة بيروت.
- (٦) ابن هشام: السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٥٩، طبعة الحلبي.
- الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٢٢.
- الطبري: الرسل والملوك، ج ٣ ص ٨١، طبعة دار المعارف.

أما السبي فقد كان ستة آلاف، وكانت الإبل أربعة وعشرين ألف بعير والغنم أربعين ألفاً أو أكثر، وأربعة آلاف أوقية من الفضة^(١). وقد منع الرسول قتل الذراري أثناء المعركة وبعدها^(٢).

وخلاصة القول ان موقعة حنين كانت بداية النهاية للمشركين في الحجاز بخاصة وشبه الجزيرة العربية بعامة، وان ثقيفا اشتركت بفرعها في المعركة، لكن بنى مالك استماتت في المعركة ضد المسلمين وهذا واضح من عدد قتلاهم، بينما لم يكن اشتراك الأحلاف في المعركة فعلياً، كما كان في بنى مالك. فقد قتل أثنان منهم فقط، ولربما يعود هذا إلى رغبة بنى مالك بالانتقام من قريش أملاً في استعادة نفوذهم السياسي والتجاري في حين ان الأحلاف كانت على علاقة وثيقة مع قريش. لذا فرت من المعركة تاركة رايتها معلقة على شجرة^(٣)، فهي خدعت بنى مالك من جهة، ومن جهة ثانية كانت تنوى العودة لساحة المعركة لو انقلب ميزان القوى لصالح المشركين، ولربما دل هذا على الذكاء أثناء الحروب.

ومن خلال تعليق الرسول صلى الله عليه وسلم على قتلى الطرفين، يبدو أنه كان يعبر بصراحة عن رأى قريش وأهل مكة حين توثقت علاقتهم بالأحلاف من ثقيف في حين توثقت علاقة بنى مالك بهوازن ومجموعة قبائل قيس عيلان التي حملت الحقد والكراهية لقريش منذ حرب الفجار.

ثانياً: حصار الطائف:

على أثر الهزيمة التي حلت بمجموع المشركين من هوازن وثقيف وحلفائهما في وادي حنين، انهزمت هذه القبول باتجاهات مختلفة، فمنهم من عسكر بأوطاس بعد الهزيمة، وأغلب هؤلاء من هوازن وحلفائهما من بنى نصر وبنى رثاب. هؤلاء قُتل منهم من قتل وأسر من أسر وفرّ الباقي هرباً من المسلمين^(٤). ومن القبول من

(١) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٤٣.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٠٥.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٠٧.

(٤) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٥٣ وما بعدها، طبعة الحلبي، ١٩٥٥. =

انهزم إلى نخلة وهم بنو غيرة من ثقيف، والذي بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وراءهم خيلاً تتبعهم، ومنهم من سلك الثنايا وهؤلاء لم تتبعهم خيول المسلمين^(١). أما غالبية ثقيف ومن انضم إليهم من غيرهم فقد هربوا إلى الطائف وقد أفرعهم الخوف وأرعبتهم المعركة، ودخلوا مدينتهم التي بنيت حولها الأسوار ذات الأبواب القوية التي تغلق عليها فتجعلها كتلة واحدة صعبة القضم، تحصنوا فيها وأغلقوا أبوابها عليهم وتجهزوا بالمؤن والماء بما يكفيهم لفترة طويلة، ونصبوا عليها المجانيق وأدخلوا فيها الرماة الأشداء الذين اشتهرت بهم مدينتهم، استعددا للدفاع عنها والاستماتة في سبيلها^(٢). يذكر الواقدي «ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وكانت ثقيف قد رموا حصنهم، ودخلوا فيه منهزمين من أوطاس وأغلقوه عليهم — وهو حصن على مدينتهم له بابان — وصنعوا الصنائع للقتال وتهاؤا وأدخلوا حصنهم ما يصلحهم لسنة لو حصروا»^(٣).

بعد هذا الانتصار الذي حققه الرسول في حنين وهزيمة ثقيف ومن انضم إليهم من غيرهم من القبائل الأخرى إلى الطائف، أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن الطائف هي آخر قلاع المشركين أهمية في الحجاز، وبالإمكان أن تصبح قاعدة لكل الخارجين على سلطته والذين لم يؤمنوا بالإسلام بعد. لذا قرر التوجه فوراً إلى الطائف وملاحقة الفارين والمنهزمين إليها لينهى آخر تجمع قد يقف في وجه الدعوة الإسلامية أو يعرقل انتشار الإسلام في شبه الجزيرة كلها.

لقد صمم الرسول صلى الله عليه وسلم على ملاحقتهم، ورغم ما كان لديه من العدة فقد طلب من الطفيل بن عمرو أن يستمد قومه ويلحق به بالطائف، ولقد نفذ الطفيل ما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم ولحق به بأربعمائة من

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩١٥.

ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٢٦٥ - ٢٦٦، طبعة بيروت.

(١) ابن هشام : السيرة - المجلد الثاني، ص ٤٥٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

بينما يذكرهم الواقدي بأنهم بنو عنزة والأصح ما جاء في سيرة ابن هشام.

انظر الواقدي : المغزى، ج ٣، ص ٩١٤.

ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٨.

(٢) ابن الأثير الكامل، ج ٢، ص ٢٦٦، طبعة بيروت.

لامانس : مدينة الطائف، ص ٧٣، الطبعة الفرنسية.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٤.

قومهم^(١). ممن يجيدون استخدام الدبابات والمنجنيق لقذف جدران الحصون بمدفعية الحصار الضخمة في صورة المنجنيق، الذي اشتهر بنو دوس بفنونه واستخدامه في الحرب.

ولقد استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الأدلاء على الطريق وكان بمقدمة جيشه خالد بن الوليد، فسلك طريق نخلة اليمانية^(٢)، ثم القرن^(٣)، فالمليح^(٤)، فبحرة الرغاء^(٥)، حتى وادى لية^(٦)، وهناك بنى مسجدا وصلّى فيه وأمر بقتل رجل من بنى ليث لقتله رجلا من هذيل، فكان أول دم أقيد به في الإسلام. وأمر بإحراق قصر مالك بن عوف النصري فحرق^(٧). ومن لية سلك طريقا يقال لها الضيقة ثم خرج على نخب^(٨)، حتى الصادرة، وحرق وهو في طريقه إلى الطائف حائطا لأحد الثقيين بسبب رفضه أوامره بالخروج من الحائط^(٩). وبذلك

(١) الطفيل بن عمرو، هو الطفيل بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن فهم بن غنم بن دوس الدوسي.

وهو الذي بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حمه فأحرقه.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٣.

ابن حجر : الإصابة، ج ٢، ص ٢٢٥ - ٢٢٦، طبعة بغداد.

(٢) نخلة اليمانية : واد على ليلتين من مكة يقع في بطن مر.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٧٧.

(٣) القرن بينها وبين مكة ٤٥١ ميلا وهي ميقات أهل اليمن.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٣٣٢.

(٤) المليح : واد بالطائف.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ١٩٦.

(٥) بحرة الرغاء : موضع في لية في ديار بني نصر وهي من أعمال الطائف.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ١، ص ٣٤٦.

(٦) وادى لية : سبق ذكره في ص ٨ من هذا البحث.

(٧) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٥.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

يذكر أن قصر مالك هدم من قبل المسلمين.

(٨) نخب : واد بالطائف.

ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٥، ص ٢٧٥.

(٩) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٥.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

يذكر أن الحائط خرب.

ظل الرسول يحصن مؤخرة جيشه حتى وصل الطائف وعسكر قريباً من حصنها وحاصرها بأدوات الحصار التي كانت معه كالمجنق وهي أداة ترمى بها الحجارة الكبيرة على الأعداء^(١). والدبابة وهي أداة من أدوات الحرب يدخل المحاربون في جوفها ويدفعونها إلى جدار الحصن فيحدثون ثغرة أو فتحة فيه وهم بداخلها يحميم سقفها وجوانبها من قبل العدو^(٢)، وهي تصنع من خشب وتغشى بجلود البقر ويدخل فيها الرجال ويتصلون بمحائط الحصن. وكذلك استخدم في حصارهم الحسك الذي نشره حول حصنهم أو سور مدينتهم وهو أشبه بالشوك الحديدية أو القصب فيلقى حول العسكر وتمركزهم فيسبب عرقلة في مسيرتهم لأنه يلصق بأرجلهم أو يدخل فيها مسبباً جروحاً فيها^(٣). بهذه الأدوات الثلاث القوية استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم الحصار وهي أدوات استخدمت لأول مرة في حصار الطائف، لا كما يذكر «وات» من أدوات الحصار التي استخدمها الرسول ما هي إلا أدوات بدائية جداً أخذها عن البيزنطيين^(٤).

وفي بداية الحصار قام الرسول صلى الله عليه وسلم بعملية استطلاعية لامكانية معرفة الأماكن التي ينفذ المسلمون منها إلى الحصن، فأرسل يزيد بن زمعة بن الأسود على فرسه طالبا من ثقيف الأمان بحجة أن يكلمهم، لكن ما أن دنا منهم حتى رموه بالنبال فقتلوه، لكن يعقوب أخا يزيد بن زمعة استطاع أن يكمّن وراء الحصن ويقبض على هذيل بن أبي الصلت ويقدمه للنبي ثأراً لأخيه فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم عنقه^(٥).

إن الحصار والمناوشات بين الطرفين استمرت خمسة عشر يوماً^(٦). قاوم خلاله بنو ثقيف ومن تحصن معهم بعد الهزيمة في حنين بعناد واصرار وظلوا يرمون

(١) ابن هشام: السيرة - المجلد الثاني، ص ٤٧٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

حاشية رقم (٦).

(٢) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٢، حاشية رقم (١).

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٢٧، حاشية رقم (٣).

(٤) منتجمري وات: محمد في المدينة، ص ٧٢ - ٧٣. الطبعة الانجليزية. طبعة أكسفورد.

(٥) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٢٦ - ٩٢٧.

(٦) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٣٦.

اختلفت المصادر في تحديد مدة الحصار، فالطبري يذكر في ج ٣ ص ٨٢ نصف شهر، بينما يذكر في ==

المسلمين بالنبال، مطمئنين إلى مناعة أسوار مدينتهم ووفرة الغذاء والمؤونة فيها وقد أوقعوا بالمسلمين بعض الخسائر^(١).

هذه الاستماتة من ثقيف بالدفاع عن مدينتها جعلت الرسول يفكر في الطريقة التي يستطيع بها اقتحام جدار المدينة وتهديمه والدخول إليها وبذلك استشار الرسول سلمان الفارسي وهو العارف بجحر الخنادق فأشار عليه بنصب المنجنيق على الأسوار ففعل، وقاتلهم لعدة أيام كان أحدها يوم «الشدخة» حيث دخل المسلمون تحت الدبابة وزحفوا بها إلى جدار المدينة فرمته ثقيف بالحديد المحمى بالنار فحرقت الدبابة وخرج المسلمون من تحتها فانصب عليهم رجال ثقيف بالنبال فقتلوا منهم رجالا وأصابوا آخرين^(٢). ورغم الرمي بالمنجنيق والهجوم بالدبابة فإن الجولة الهجومية للمسلمين لم تنجح وبذلك لن يستطيعوا التسرب إلى المدينة، وكان لابد من العودة إلى العامل الأصلي، وهو الحصار الذي يستند إلى الهجوم المعنوي الدعائي.

وقبل التطرق إلى الوسائل الأخرى التي استخدمها الرسول ضد ثقيف قبل فك الحصار، لابد لنا من الإشارة إلى دور أبي عجن الثقفي في هذه المجاهدة فأبو عجن هو مالك بن حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي، وصف بأنه أحد الرماة المهرة الذين استخدمتهم ثقيف على حصن الطائف والذي كان يستخدم المعايل في المرمى وهي عبارة عن نصال عريضة وطويلة مؤثرة ومميتة إذا استخدمت بمهارة ضد الرجال. وقد قتل أبو عجن بعض رجال المسلمين فيها. وكذلك هو الذي رمى عبد الله بن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بسهم أدى إلى

= ص ٨٣ من الجزء نفسه أكثر من عشرين ليلة وهذا الاختلاف يعود لاختلاف الرواة الذين أخذ منهم المؤلف.

أما ابن هشام، في السيرة - المجلد الثاني، ص ٤٨٢ طبعة الحلبي ١٩٥٥ فيذكر أيضا أكثر من عشرين ليلة ثم يعود ويذكر سبع عشرة ليلة.

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٧ - ٩٢٨.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٧ - ٩٢٨.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٣، طبعة الحلبي.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٤.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، المجلد الثاني، ص ٢٦٦، طبعة بيروت.

جرحه واصابته اصابة بليغة، لكنه لم يمت إلا في خلافة والده. لقد استمات أبو محجن في الدفاع عن مدينته مزهوا بقوته ومهارته في الحرب، زاعما أن المسلمين لم يجدوا رجالا يحسنون القتال غيرهم^(١). وهذا واضح من المحاورة التي كانت بينه وبين عمر بن الخطاب، قال أبو محجن وهو على حصن الطائف: «يا عبيد محمد، انكم والله ما لاقيتم أحدا يحسن قتالكم غيرنا، تقيمون ما أقمت بشر محبس، ثم تنصرفون، لم تدركوا شيئا مما تريدون، نحن قسي وأبونا قسا، والله لا نسلم ما حيننا، وقد بنينا طائفا حصينا. فناداه عمر: «يا ابن حبيب، والله لنقطعن عليك معاشك حتى تخرج من جحرك هذا، انما أنت ثعلب في جحر يوشك أن يخرج»^(٢). لقد كانت ثقيف تستشير أبا محجن في أمور الحرب أثناء الحصار. وكان من رجالها المعتمدين والمسموعى الكلمة فيها^(٣). وهو الذي أسلم في خلافة أبي بكر - رضي الله عنه - ^(٤).

نعود إلى الوسائل التي استخدمها الرسول بعد فشل الهجوم، فقد لجأ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى وسيلة أخرى لعلها تجدى بهم فأمر بقطع أعنابهم، وكلف يعلى بن مرة الثقفي بذلك مهددا بتدمير أحد مواردهم الاقتصادية الهامة، فالأعتاب غلتهم الرئيسية ومصدر الثروة والغنى لمدينتهم، وطلب من كل رجل أن يقطع خمس حبلات من أعنابهم^(٥). ولكن ثقيفا لم تذعن ولم تستجب ولم تتنازل عن عنادها واصرارها، لكنها لما رأت صدق ماعزم عليه المسلمون من القطع طلبوا من الرسول الكف عن قطع أعنابهم مذكريه بضرورة تركها لله والرحم أى لله وللذى بينهم وبينه. فالرسول حدثه من ثقيف^(٦). ثم التجأ الرسول إلى وسيلة

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٠، ٩٣٢، ٩٣٥.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩١، حاشية رقم (٤).

ابن حجر : الاصابة، ج ٤، ص ١٧٣ - ١٧٤، طبعة بغداد.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٥.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٢.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣١.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٤، طبعة دار المعارف.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٨.

ابن هشام : السيرة - المجلد الثاني، ص ٤٨٣، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٦) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٨ انظر كذلك الحاشية رقم (٢).

انظر ما سبق من البحث ص ١١٢، هامش رقم (٢).

أخرى عندما كلف المغيرة بن شعبة وأبا سفيان المناداة عليهم ومخاطبة نساء قريش وبني كنانة في الطائف. فقد كانت آمنة بنت سفيان عند عروة بن مسعود والفراسية بنت سويد بن ثعلبة عند قارب بن الأسود، لكن المحاولة هي الأخرى لم تجد نفعا بسبب خوف ثقيف على نسايتهم من السباء وأخذ المسلمين لمن مالا مغنوما لا يستطيعون استرداده بعد ذلك^(١). يقول الماوردي «لأن قتل الرجال وقتل السبي محظور، صار السبي مالا مغنوما لا يستنزلون عنه إلا باستطابة النفوس»^(٢). لكن بني الأسود بن مسعود ردوا على المغيرة بن شعبة وأبي سفيان طالبين منهم حث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عدم قطع أعنانهم وليدعها لهم، وبذلك استجاب الرسول لطلبهم أملا في الاقتراب من نفوسهم والتأثير فيها، وانتهت هذه المحاولة لصالح ثقيف.

وقد قام الرسول صلى الله عليه وسلم بمحاولته الأخيرة لدفع ثقيف إلى التخلي عن عنادها وإصرارها فطلب من أصحابه ترغيب عبيد ثقيف بالنزول من حصن الطائف والانضمام للمسلمين مقابل عتقهم وإعطائهم حريتهم، وقد نجحت هذه المحاولة وكادت تأتى بشمار طيبة فنزل منهم أبو بكره والمنبعث وكان اسمه المضطجع فسماه الرسول «المنبعث» حين أسلم، والأزرق بن عقبة ووردان وكان عبدا لعبد الله بن ربيعة، ويحسن النبال وإبراهيم بن جابر وغيرهم^(٣). فلما علمت ثقيف بهذه المحاولة سدت على الباقيين طرق النزول وجبستهم^(٤). فلما أسلمت ثقيف طالبت الرسول صلى الله عليه وسلم برء هؤلاء العبيد، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم رفض طلبهم قائلا: أولئك عتقاء الله وبذلك اغتاز الثقيفون على غلمانهم^(٥).

(١) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٢٩.

ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٣ — ٤٨٤، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية والولايات الدينية — طبعة الحلبي ١٩٦٦.

(٣) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٣١، وما بعدها.

ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٥، ص ٢٠٥، وما بعدها. طبعة طهران.

ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٤٥٤، طبعة بغداد.

ابن هشام: السيرة — المجلد الثاني، ص ٤٨٥ — ٤٨٦، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف ج ١، ص ٤٩٠، طبعة القاهرة، ١٩٥٩.

(٥) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٣٢.

ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٥، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

ولقد أراد عيينة بن حصن خداع الرسول صلى الله عليه وسلم وأخذ موافقته بالدخول على ثقيف في حصنهم ليكلمهم في الإسلام، فأذن له الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنه خان الأمانة وحث ثقيفا على عدم الاستسلام وأوحى لهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم ملّ المقام في الحصار، ولما عاد ادعى أمام الرسول بأنه حث ثقيفا وحلفاءها على التسليم والدخول في الإسلام وأخذ الأمان، ولكن ما إن انتهى من حديثه حتى قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : كذبت لأن الرسول على صلة مستمرة بالوحي، فهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فانبرى له عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وطلب أن يقدمه الرسول ليضرب عنقه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لا.. سيتحدث الناس بأننى أقتل أصحابي^(١). والحقيقة أن عيينة لم يأت مع الرسول صلى الله عليه وسلم لنصرتة — وقد كان له سجل حافل في خيانة المسلمين ومواقفه الخاطئة منهم، فقد ذكر الواقدي: إن أبا بكر رضي الله عنه أغلظ له يومئذ وقال: ويحك يا عيينة إنما أنت أبدا توضع في الباطل، كم لنا منك من يوم بنى النضير، وقريظة، وخيبر، تجلب علينا وتقاتلنا بسيفك، ثم أسلمت كما زعمت فتحرض علينا عدونا^(٢) — وانما جاء ليصيب جارية يحصل عليها إذا فجع المسلمون الطائف ويأخذها كسباء ليتزوجها، لعله ينجب منها ولدا ذكيا، فان ثقيفا قوم مباركون^(٣).

وخلال الحصار، استطاع أحد المسلمين من قبيلة دوس وهو مروان بن قيس الدوسي من أسر أحد زعماء قيس وهو أبي بن مالك القشيري ليفتدى به أهله الذين أصابتهم ثقيف، واستطاع بذلك أن يجبرهم على الإفراج عنهم وتسليمهم له^(٤).

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٢ — ٩٣٣.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٣.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٧.

يذكر ابن هشام في السيرة — المجلد الثاني — ص ٤٨٥ القصة و يقول : أن ثقيفا قوم منكبر. ويؤيد ابن الأثير، ج ٢، ص ٢٦٧ الرأي نفسه.

(٤) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٥، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

ابن جزم : جوامع السيرة، ص ٣٤٤، طبعة دار المعارف — القاهرة.

ومنها كانت المحاولات والنتائج، فان الرسول قرر فك الحصار عن الطائف والعودة إلى «الجعرانة» وذلك من خلال المحاورة التي جرت بين عمر بن الخطاب وأبي محجن والتي انتهت بمخاطبة أبي بكر لعمر بأن يكف عن هذه المحاورة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأذن له بفتح الطائف، وهذا ما تأكد منه عمر بنفسه من الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن سمع ما ذكرته خويلة من أن الرسول لم يأذن له في فتح الطائف بعد أن سأله أن يعطيها حلي ياوية بنت غيلان الثقفي ان هو فتح الطائف، فقال لها انه لم يؤذن له في ذلك. ويذكر ابن هشام في رؤيا الرسول وتفسير أبي بكر لها فيقول: «وقد بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق وهو محاصر ثقيفا: يا أبا بكر، إني رأيت أني أهديت لي قعبه مملوءة زبدا، فنقرها ديك، فهراق ما فيها. فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأنا لا أرى ذلك»^(١). وقد أذعن أبو بكر لما قاله الرسول حين قال: «الله ورسوله أعلم، والأمر ينزل عليه من السماء» وكذلك عمر بن الخطاب حين سأل قال: «قد رأينا الحديبية. ودخلني في الحديبية من شك ما لا يعلمه إلا الله.. والخيرة فيما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن أراجع في شيء في ذلك الأمر أبدا.. والأمر أمر الله، وهو يوحى إلى نبيه ما يشاء»^(٢). ومع هذا، فان بعض المسلمين تضايقوا من الانسحاب فأمر الرسول بالعودة إلى القتال وقد هجم المسلمون بالفعل ثانية على سور الطائف فأصابتهم جراحات كثيرة وبذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «انا قافلون إن شاء الله.. ففسروا بذلك وأذعنوا»^(٣). أى قبلوا الأمر وأسرعوا في طاعة الرسول وتم الارتحال والعودة إلى الجعرانة بعد حصار دام خمسة عشر يوما. وبذلك قال رسول الله كلمته المشهورة حين بدأ الارتحال والعودة، قال: «قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده،

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

الواقدي : المغازي ، ٣، ص ٩٣٦. طبعة أكسفورد.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٤ — ٨٥ طبعة دار المعارف.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٦.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٧.

ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده» وبذلك طلب المسلمون من الرسول أن يدعو الله على ثقيف. قال: اللهم اهد ثقيفا واثم بهم^(١).

ولا بد لنا من وقفة حول ما كتبه المستشرقون في مسألة فك الحصار والانسحاب فقد قال مونجمرى وات: «لذلك نرى أنه بعد مضي خمسة عشر يوما أوقف محمد الحصار، لقد قاوم بنو ثقيف ببسالة وأوقعوا الخسائر في صفوف المسلمين، لقد رأى محمد بأنه لو استمر في الحصار، فإن رجاله سوف يصابون بالملل، وسوف يكون هناك المزيد من سفك الدماء، وإن التوصل إلى اتفاق مع ثقيف فيما بعد سيصبح بعيدا أو صعبا، وأن مركزه في حنين سيتأثر في حالة الحصار الطويل»^(٢).

صحيح إن الحصار دام خمسة عشر يوما، لكن لم يخسر فيه المسلمون سوى اثني عشر رجلا^(٣)، وهذه خسارة لا تذكر بالنسبة لخسارة الجيوش في المعارك والحروب، وخاصة كحملة مثل حملة حصار الطائف، فقد كان فيها مع الرسول أكثر من اثني عشر ألفا من الرجال. وإن الرجال من جيش المسلمين لم يصابوا بالضجر والملل بل على العكس من ذلك هم الذين أرادوا مواصلة القتال وعدم الانسحاب حتى النصر واستسلام ثقيف، وإن مركزه في حنين لم يتأثر فقد استبسل المسلمون في الدفاع عن الإسلام، مهما كانت النتائج ومهما طال الحصار وإن السبايا والغنائم في الجعرانة كانت في مأمن من أى أذى أو غارة، فقد أمن الرسول حراستها وأمنها قبل التوجه إلى الطائف، إن سبب الارتحال الرئيسي هو مجاء على لسان الرسول نفسه من أن الله لم يؤذن له في الفتح، فقد كان صلى الله عليه وسلم أعلم، والأمر منزل عليه من السماء أو يوحى إليه، أو أنه يملك ما نسميه بالعلم اللدني وهو العلم الذى يلقيه الله في نفس الإنسان بدون تعلم وإدراك مالا يدركه الآخرون من الناس.

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٧.

ابن الأثير : الكامل، ص ٢٦٧، طبعة بيروت.

(٢) مونجمرى وات : محمد في المدينة، ص ٧٤، طبعة أكسفورد الانجليزية.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٨.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٦٧.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٥.

وبذلك طلب الارتحال والعودة إلى الجعرانة للنظر في أمر الغنائم التي تركت هناك، تاركاً ثقيفاً شبه محاصرة من القبائل الأخرى التي أسلمت وبذلك استطاع أن يؤثر في ثقيف من طرق أخرى. علماً بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن في حسبانهِ أبداً الانتقام من أهل الطائف وهو الذي أصابه الأذى منهم أكثر من غيرهم أثناء دعوته للإسلام وزيارته للطائف.

صحيح إن فك الحصار أتاح لثقيف أن تتنفس الصعداء، لكن الهزيمة في حنين والحصار في الطائف جعلها في عزلة عن سائر القبائل العربية الأخرى ومعاداة القبائل لها، وبذلك شدد الخناق عليها وانتهى الأمر بها إلى المحاصرة والضائقة الاقتصادية^(١)، مما جعلها تستسلم في النهاية للأمر الواقع وتدخل في الإسلام مرغمة، وهذا ما سنبحثه في فصل قادم.

إن من استشهد يوم الطائف اثنا عشر رجلاً من الصحابة والمؤيدين لدعوة الإسلام، سبعة من قریش، وأربعة من الأنصار ورجل من بني ليث^(٢)، بينما يذكر الواقدي أن من استشهد من بني أمية اثنان ومن بني أسد واحد ومن بني تيم واحد، ومن بني مخزوم واحد، ومن بني عدى واحد، ومن بني سهم اثنان، ومن بني سعد بن ليث واحد، ومن الأنصار ثلاثة، فذلك اثنا عشر رجلاً^(٣). وهنا يختلف قليلاً عن ابن هشام في السيرة.

ثالثاً: العودة إلى الجعرانة :

كان لانتصار الرسول في حنين أهمية خاصة، إذ منحته شهرة واسعة باعتبارها المواجهة الحقيقية والرئيسية الوحيدة بينه وبين القبائل أثناء حياته. لذا

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥ وما بعدها.

حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام، ج ١، ص ١٤٤ - ١٤٥.

بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٦١ - ٦٢ طبعة دار الملايين.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٦ - ٤٨٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٨.

بينما يذكر الطبري أن من استشهد من الانصار هم أربعة.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٥، طبعة دارالمعارف.

لم يهتم بأمر الغنائم ولم يشغل رجاله بها، ماعدا جمعها ووضعها في مكان يقال له الجعرانة^(١)، حتى يفرغ من أمر العدو وملاحقته إلى آخر حصن يلتجئ إليه، وبذلك ينهى هذا التمرد ويستأصل البقية الباقية من الشرك ليتفرغ لأمر دينه وإمكانية نشره خارج شبه الجزيرة العربية، استجابة لنداء الله بأن الدين للناس كافة، وليس للعرب وحدهم. وبعد حصار الطائف وما رافقه من أحداث، وبعد أن توفرت لديه القناعة التامة بالانسحاب وفك الحصار، أمر بالرحيل والعودة إلى الجعرانة للنظر في أمر الأسلاب والأسرى والغنائم المختلفة، ولا سيما أنه قد تركها تحت إشراف بديل بن ورقاء الخزاعي، وفيها الكثير من النساء والأطفال^(٢). وعند العودة سلك طريق دحنا^(٣)، ثم على قرن المنازل^(٤). ثم نحلة حتى عاد إلى الجعرانة^(٥). ولربما أخذت الغنائم التي خلفها وراءه في الجعرانة تشغل باله، ولا سيما أن بعض المشكلات قد حدثت بسبب التأخير في توزيعها، لأن بعض المسلمين الموجودين في جيش الرسول صلى الله عليه وسلم حاولوا الاحتفاظ ببعض ما استولوا عليه شخصيا، بالإضافة إلى النظر في أمر الجوارى اللواتي منحن للقادة بعد حنين^(٦). وبعد الوصول شرع في تقسيم الغنائم والسبي بين أصحابه والمؤيدين لدعوته وكل الذين شاركوا في الحرب والانتصار، وكلف بسر بن سفيان الخزاعي

- (١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٩.
- ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
- الجعرانة : موقع بين الطائف ومكة وهي أقرب إلى مكة منه إلى الطائف.
- ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٢، ص ١٤٢، طبعة بيروت.
- (٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٢٣.
- ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٦٦.
- بينما يذكر ابن هشام في السيرة، مجلد ٢ ص ٤٥٩، مسعود بن عمرو الغفاري ويؤيد الطبري في تاريخه ج ٣، ص ٨١ ذلك، ولكنه يذكره مسعود بن عمر القاري وليس الغفاري.
- (٣) دحنا : مخلاف من مخاليف الطائف.
- ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٤٣.
- (٤) قرن المنازل : جبل قرب مكة يحرم منه حجاج نجد.
- ياقوت : معجم البلدان، مجلد ٨، ص ١٦٣.
- (٥) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٩.
- (٦) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٤٤.
- ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٠، طبعة الحلبي.

بالذهاب إلى مكة وشراء ثياب كسوة للسيايا، فلا يخرج المرء منهم من الجعرانة إلا كاسيا، فنفذ بسر هذا الأمر^(١). ولقد كانت الغنائم والأسلاب كثيرة^(٢).

وبتوزيع الغنائم أعطى الرسول المؤلفه قلوبهم أكثر مما يستحقون. فقد أعطاهم من الخمس ليحبهم في الإسلام، وهؤلاء المؤلفه قلوبهم كانوا أشرفا من أشرف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم منهم: أبو سفيان وابنه معاوية وحكيم بن حزام والحارث بن الحارث بن كلفة والحارث بن هشام وآخرون غيرهم^(٣). وهم من سادات قریش قد دخلوا الإسلام بعد فتح مكة. لذا أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوى ويعزز إسلامهم ليكونوا عوناً له لمكانتهم بين قومهم، ولقد شاهد ذلك بنو هوازن وبذلك شدهم الرسول إلى الإسلام ورغبهم فيه، وكان للشفقيين الذين أسلموا نصيب وافر من هذه العطايا فحصل كل من أسيد بن جارية والنضير بن الحارس بن كلفة — وهو أخو النضر بن الحارث الذى قتله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بدر — مائة بعير ومغرمه بن نوفل دون المائة وهم من الشفقين المحالفين لقریش^(٤). لكنه لم يعط الأنصار شيئاً من الخمس ولذلك فقد أخذوها في نفوسهم وساورتهم الشكوك، فظنوا أن الرسول صار في غنى عنهم بعد أن لقي قومه، فلم يعد يحفل بهم ولا يعنى بشأنهم كما كان من قبل وقالوا: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، أما حين القتال فنحن أصحابه وأما حين القسم فقومه وعشيرته. وقد سمع الرسول بذلك فغضب غضباً شديداً، فأمر سعد بن عباد أن يجمع له الأنصار، فجمعهم وخطبهم تلك الخطبة الهامة^(٥). التي قال فيها:

- (١) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٤٣.
- (٢) انظر ص ١٤٥ من هذا البحث، فقرة رقم (٤).
- (٣) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٢ — ٤٩٣.
- الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٤٤.
- يذكر أن الرسول أعطاهم أول الناس.
- (٤) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٤٥ — ٩٤٦.
- الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٩٠، طبعة دار المعارف.
- ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٧٠، طبعة بيروت.
- (٥) ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٨ — ٤٩٩ طبعة الحلبي ١٩٥٥.
- ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٧١.

«والذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت أمراً من الأنصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار. أكتب لكم بالبحرين كتابا من بعدى تكون لكم خاصة دون الناس.. فهو يومئذ أفضل ما فتح الله عليه من الأنصار قالوا: وما حاجتنا بالدنيا بعدك يا رسول الله؟. قال : أما لا فسترون بعدى أثره، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله، فإن موعدكم الخوض، وهو كما بين صنعاء وعمان، وآنيته أكثر من عدد النجوم. اللهم أرحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله حظا وقسما، وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقوا»^(١).

هذه الخطبة تجلّت فيها حسن سياسته وقدرته على جذب النفوس وتأليف القلوب إليه، ومهارته في اعداد سامعيه، وتهيئتهم لقبول ما يريد أن يلقيه عليهم والتأثر به إلى أبعد حدّ، فقد بين لهم في هذه الخطبة نعمة الإسلام عليهم، إذ هداهم بعد الضلالة وألف بين قلوبهم بعد العداوة، ثم ذكر لهم بالثناء تصديقهم رسالته وايواءهم اياه ومواساتهم له، ثم عتب في كياسة وظرف تطلعهم إلى هذا الفيء الذى أفاءه الله عليهم، ففرقه في حديثي عهد بالاسلام تطيبيا لنفوسهم عما أصابهم من القتل والهزيمة، ثم أكد محبته وايتارة اياهم على غيرهم من العرب وأخيرا أعلن اليهم انه منهم ودعا لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم^(٢). وبذلك رضي الأنصار وفرحوا وعدّوا ذلك نصرا كبيرا لهم. وسنبين في جدول خاص مقدار العطايا التي وزعت.

وما زال الرسول صلى الله عليه وسلم في الجعرانة، قدم عليه أثناء اقامته وفد هوازن معلّنين اسلامهم، مطالبين بالعفو عنهم وردّ ذراريهم وأموالهم إليهم، لا سيما

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٨.

وكذلك أشار إليها ابن هشام والطبري وابن الأثير وإن لم يوردوا النص كاملا كما أورده الواقدي.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٩، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٩٣ - ٩٤.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٧١.

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٤٣ - ١٤٤ مطبعة النهضة المصرية.

انه تربطه بهم رابطة متينة، فقد عاش بينهم في طفولته رضيعا في كنف مرضعته حليلة السعدية وهي من هوازن، وقد كان لحديث الوفد وذكريات الطفولة وقراءة الرضاعة أثرها في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فرق قلبه لهم وخيرهم بين أخذ السبي - الأولاد والنساء - وبين الأموال. «فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان أحسن الحديث أصدقه وعندى ماترون من المسلمين، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم؟. قالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أحسابنا وبين أموالنا، وما كنا نعدل بالأحساب شيئا، فرد علينا أبناؤنا ونساءنا»^(١)، حفاظا على الشرف ووصلا للرحم. فأعلن النبي صلى الله عليه وسلم عن تنازله وتنازل بنى هاشم وبنى المطلب جميعا عن حصتهم من سبي هوازن، وبذلك ترك الباب مفتوحا لتنازلات أخرى، فاقضى به بقية المسلمين، ووعد بالعفو عن الذين لم يحضروا معهم أمثال مالك بن عوف النصري، قائد جوع المشركين في حنين، وأن يرد إليه أهله ومائة بعير لو جاء مسلما وترك الطائف، وقد سمع مالك فاتى الرسول معتذرا ومسلما وقد وفى الرسول بما وعد به لمالك، وعينه على من أسلم من قومه^(٢). وقد اختلف ابن هشام عن الواقدي في أمر السبي والغنائم فقد ذكر ابن هشام بأن استعادة النساء قد تمت قبل توزيع الإبل والأغنام في حين رواية الواقدي تختلف عن ذلك فهو يروى العكس، أى أن توزيع الغنائم قد تم قبل استرداد النساء والأطفال^(٣)، وقد علق «وات» على ذلك فقال: ان مجرد علم هوازن باقتسام الإبل والأغنام والفضة قد تم، وان الدور أت لاقتسام النساء جعل هوازن تعجل في الدخول في تسوية مهملها كان الثمن، لأنها كانت تدرك أن فضيحة ستلحق بها وأن الكثير كان يرغب بنساء الطائف أمثال عبيدة بن حصن وغيره^(٤).

-
- (١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥١.
 ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٨٩، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
 (٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩١، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
 الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٥٥.
 (٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥.
 الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٤٤.
 (٤) مونتجمري وات : محمد في المدينة، ص ٧٥. الطبعة الانجليزية - طبعة أكسفورد.

أعتقد أن «وات» لم يستوعب الرواية الكاملة التي ساقها الواقدي بالنسبة إلى توزيع بعض من السبايا قبل توزيع الغنائم وهن اللائي استردتهن هوازن بعد توزيع الغنائم منهن المرأة التي كانت عند عبد الرحمن بن عوف وعلي وعثمان وطلحة وصفوان ابن أمية وعبد الله بن عمر، ماعدا المرأة التي كانت عند سعد بن أبي وقاص اختارت أن تبقى مع سعد ولها منه ولد^(١). أما باقي السبايا — وهي النسبة الكبيرة — فقد استردتها هوازن قبل توزيع الغنائم، لذلك قال الواقدي ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال لوفد هوازن عندما جاءه يطلب السبايا «.. قد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون»^(٢). وعلى أي حال، فلقد كانت استعادة النساء والأطفال في صالح هوازن، لأن الغنائم كانت من حق الغالب^(٣)، وبذلك حصلت هوازن وكسبت دون أن تخسر بالمقابل شيئاً.

وبقيت نقطة لا بد من ذكرها، فان بعض القبائل التي شاركت مع الرسول صلى الله عليه وسلم لم ترض بالتنازل عن حصتها من السبايا أمثال بنى تميم وبنى فزارة وبنى سليم وهذا ما جاء على لسان رجالهم. يذكر الواقدي: «ان الأقرع بن حابس قال: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أما أنا وفزارة فلا، وقال عباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا، قالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله»^(٤). لذا فقد ردّ عليهم العباس بن مرداس: لقد أضعفتُموني، ويقصد لم تعاضدوني بعد أن طلبت ذلك باسمكم.

ومن الشايت أن الجعرانة قد لعبت دورا بارزا في دخول هوازن في الإسلام، وبذلك اثبت الرسول مرة أخرى المهارة الفائقة والحنكة التي أظهرها في المواقف الصعبة والخطيرة، وبذلك استطاع أن يرضي رغبات هؤلاء ويشيع أحاسيسهم بالفخر وحبهم للشرف والرفعة.

ورغم قدوم وفد هوازن وإسلامه، ودخول مالك بن عوف النصري في

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٢.

(٢) الواقدي المغازي، ج ٣، ص ٩٥٠.

(٣) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ١٣٤، طبعة الحلبي، ١٩٦٦.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥١ — ٩٥٢.

الإسلام.. ورغم الخسارة الكبيرة التي حلت بثقيف فقد بقيت على عنادها واصرارها ممتنعة في طائفها لا تقبل الدعوة ولا ترضى الرسول نبياً^(١). وأزاء هذا الموقف المتشدد قرر الرسول صلى الله عليه وسلم محاصرتها، لكن هذه المرة بحلفائها وجيرانها محاصرة اجتماعية واقتصادية، وبذلك عهد إلى هوازن وبنى نصر واستعمل مالكا على لواء يقاتل به ثقيفا^(٢). فضيق عليهم الخناق، فلا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه وأخذهم منهم، وقد استمات مالك في الدفاع عن الرسول والمسلمين، ولا سيما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد وعده بالمال والغنائم وعلى كل ما يحصل عليه مقابل الخمس للرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا نوع من الترغيب المادي. فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم عارفاً به تماماً، فبعث مرة للرسول مائة بعير ومرة ألف شاة^(٣). ومن هذه الأعداد ندرك مقدار ما كان يغتم منهم. ونتيجة لذلك دخلت ثقيف في معارك ابتدأت بالشعر مع أعدائها الجدد وحلفائها القدامى. فقال أبو محجن الثقفي عندما نهب أغنامه:

نهاب الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سلمة
وأتاننا مالك بهم ناقضاً للعهد والحرمة
وأتوننا في منازلنا ولقد كانوا أولى نقمة
فرّد عليه مالك بن عوف النصري، حيث قال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعلى للجزيل إذا اجتدى ومتى تشأ تخبرك عما في غد
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها بالمشرفي وضرب كل مهتد
فكأنه ليث على أشباله وسط الهبابة خادر في مرصد^(٤).

(١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٨، ٩٩.

الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥.

ابن هشام: السيرة، المجلد، ص ٤٩١، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥.

الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٨٨، ٩٩.

(٤) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥ - ٩٥٦. =

لقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم الجعرانة بعد أن قضى فيها ثلاث عشرة ليلة فكان رحيله في يوم الاربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة ليلا إلى مكة ثم ترك مكة عائدا إلى المدينة، واضعا عتاب بن أسيد على مكة وخلف معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري يعلمان الناس القرآن والفقه في الدين^(١).

وأخيرا، لابد لنا من وقفة عند بعض الاجراءات والأعمال التي اتخذها الرسول تجاه ثقيف لتتعرّف إلى ما كان يستهدفه مستقبلا، وهل تحقّق له ما أراد أم لا.

فن الناحية العسكرية، استخدم الرسول صلى الله عليه وسلم كل الوسائل التي توفرت لديه أثناء الحصار كالمجنّيق والدبابة والحسك، لكنه لم يتمكن من فتح الطائف لما كانت تتمتع به المدينة من تحصين وأسوار قوية واستماتة أهلها بالدفاع عنها، ثم الانتهاء من أمر ثقيف بدون حرب وكسب القبائل من عرب جنوب الحجاز وغربه وضمهم لجانبه وجعلهم أعداء لثقيف كما حصل لهوازن ومالك بن عوف النصري. ومن القبائل التي انضمت لمالك هوازن وفهم^(٢)، وكذلك كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي جاء إلى الرسول تائبا ومسلما فقبل الرسول منه التوبة^(٣). وكذلك ما جاء على لسان عبد ياليل وخوفه من حصار المسلمين على مدينته حين قال: « قد أوطأ الأرض غلبة ونحن في حصن في ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاش، والله لو قام على حصننا شهرا لمتنا جوعنا، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يوما مثل يوم مكة^(٤)». وبذلك حول كفاية الطائف بهذا الحصار الاجتماعي والاقتصادي إلى جوع واستجداء، وبذلك أدرك أهل الطائف من أنفسهم بأن كسب ودّ وصدقة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين أحسن وأكثر فائدة من عداوته بعد أن

بيننا ذكر ابن هشام، مجلد ٢، ص ٤٩٢ في قول أبي محجن البيت الثالث مخالفا لما ذكره الواقدي حيث يذكر:

وأوتونا في منازلنا ولقد كنا أولى نقمة

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٨ - ٩٥٩.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥.

(٣) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٠١ وما بعدها، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٧.

ساعت حالتهم. وهذا ما كان يريد الرسول ويستهدف تحقيقه، ولذلك وضع خطا للرجعة معهم وإمكانية دخولهم الإسلام حيث لم يعن في قتلهم وسفك دمائهم ومعاداتهم وبذلك تتعمق الهوة والحقد بينهم وبين المسلمين وفعلا تحقق له كل ما أراد تقريبا^(١). فقد أذعنت ثقيف وانصاعت للأمر الواقع وجاءت تطلب المسالمة والاسلام، وهذا ما سنبحثه فيما بعد.

وهذه الأحداث انتهت أشد مرحلة من مراحل حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصبح سيدا لشبه الجزيرة العربية كلها بلا منازع.

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ٦٢، طبعة الموسوعات ١٩٠١.
ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٥٢، طبعة المعارف بمصر.
بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٦١ - ٦٢، طبعة دار الملايين.

يوضح الجدول التالي أسماء من تألفهم النبي صلى الله عليه وسلم) بعد حنين
وقبائلهم ومقدار ماناهم من العطايا(١):

أبوسفيان بن حرب	عبد شمس	١٠٠ جل
يزيد بن أبي سفيان	عبد شمس	١٠٠ جل
معاوية بن أبي سفيان	عبد شمس	١٠٠ جل
حكيم بن حزام	أسد	١٠٠ جل
النضير بن الحارث	عبد الدار	١٠٠ جل
أسد بن حارثة	نقيف-حليف بني زهرة	١٠٠ جل
العلاء بن جارية	نقيف-حليف بني زهرة	١٠٠ جل
الحارث بن هشام	مخزوم	١٠٠ جل
صفوان بن أمية	جع	١٠٠ جل
سهيل بن عمرو	عامر	١٠٠ جل
حويطب بن عبد العزى	عامر	١٠٠ جل
الأقرع بن حابس	نمير	١٠٠ جل
عينبة بن حصن	غطفان	١٠٠ جل
مالك بن عوف	هوازن	١٠٠ جل
مخرمة بن نوفل	زهرة	دون المائة
عمير بن وهب	جع	دون المائة
هشام بن عمرو	عامر	دون المائة
سعيد بن يربوع	مخزوم	٥٠ جلا
قيس بن عدى	سهم	٥٠ جلا
العباس بن مرداس	سليم	أعطاه حتى رضي - لم يذكر العدد.

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩٤ - ٤٩٦ طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٤٤ - ٩٤٦.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٩٠.

رابعا: اعتناق ثقيف للإسلام :

لم يدم مكوث الرسول صلى الله عليه وسلم بالجعرانة بعد فك الحصار عن الطائف طويلا، فقد بقي ثلاث عشرة ليلة فقط^(١). بعدها انتقل إلى مكة لتأدية العمرة والعودة للمدينة مركز الدولة الجديدة، بعد أن رتب أمور مكة وعين عليها عتاب بن أسيد وهو من بنى أمية بن عبد شمس، لأن فترة المكوث القصيرة فيها بعد الفتح والظروف الملحة لمواجهة هوازن وثقيف في حنين والطائف لم تسمح له بتعيين وال عليها^(٢). ويبدو أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قاصدا هذا التعيين لدعم وتقوية بني عبد شمس في مكة، ولا سيما أنهم من المتنفذين فيها والذين ساهموا في الفتح وفي موقعة حنين وحصار الطائف ثم هدم بيت اللات بعد اسلام ثقيف^(٣).

ورغم الاستقرار والأمن الذي حل بمكة وبطريق التجارة البعيدة، فإن مكة لم تسترد مكانتها التجارية التي كانت عليها قبل الفتح بسبب التغيرات الجديدة التي جاء بها الاسلام، كمنع الربا وتحريمه ولأن النشاط انتقل إلى المدينة لأنها صارت عاصمة الدولة، وقد أنتقلت إليها أعداد كبيرة من قريش وخاصة أصحاب الطموح الذين يحبون دائما أن يكونوا قرييين من مركز السلطة، بالإضافة إلى أن الحرمة العامة قد تقرررت بخضوع العرب للإسلام، فلم تعد مكة هي المكان الأمين وحده وإنما صار الأمن عاما^(٤).

وبانتهاء أحداث الجعرانة وإسلام هوازن وقبائل أخرى مثل ثماله وسلمة وفهم^(٥)، أصبحت الزعامة السياسية التي حصل عليها النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلى المدينة عامة وشاملة، وأصبح رئيسا لدولة جديدة يأمر بتنفيذ أوامره

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٨.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٠٠، طبعة الحلبي ١٩٥٥

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٠٠، ٩٢٩، ٩٧١.

(٤) أحمد الشري ف : مكة والمدينة، ص ٥٢٨ - ٥٣٠، طبعة دار الفكر.

(٥) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٤٩١، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٥٥.

باعتباره النبي الذي ينزل عليه التشريع وهو المنفذ للشريعة الإسلامية. لذا أصبح المسلمون مستعدين لتلبية أية أوامر تصدر إليهم لنشر الدعوة في الداخل والخارج.

وبعد فك الحصار عاشت الطائف فترة قاسية استمرت من ذى القعدة سنة ٨ للهجرة إلى رمضان سنة ٩ للهجرة، وعاشت محنة رهيبة وهي محاصرة، فهي ممنوعة من التجارة والرعي، وقد تخلّى بعض رجالها عنها ودخلوا في الإسلام أمثال يعلى بن مرة الثقفي والمغيرة بن شعبة، بعد أن أحسوا بعدالة الإسلام وكرهوا فكرة التعصب القبلي ووقفوا مع الرسول ضد مدينتهم وقبيلتهم^(١). وبذلك أصبحت الضربات تتوالى على ثقيف واحدة بعد الأخرى. فباسلام المغيرة ويعلى وبجير بن أبي سلمة والعلاء بن جارية وأسيد بن جارية وابنه حبيب بن أسيد بن جارية، وغيرهم من رجال وزعماء ثقيف^(٢)، تأثرت المعنويات في ثقيف وأصبح رؤساؤهم وأولهم عبد ياليل في حيرة من أمره يستشير هذا وذلك في مدينته المحاصرة لعله يجد مخرجاً للأزمة الخانقة^(٣). وزادت الأزمة واشتدت باسلام عروة بن مسعود الثقفي، أحد رجال ثقيف الكبار، والذي لم يكن موجوداً في الطائف أثناء الحصار الذي فرضه عليها الرسول بعد موقعة حنين، فقد كان في جرش يتعلم صنع الدبابات والمنجنيق والعرادات والضبور مع غيلان بن سلمة الثقفي^(٤). فلما عاد من جرش وعلم بالحصار وفتح مكة فكر ملياً بالأمر فكدف

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٠٠ - ٥٠١ طبعة الحلبي ١٩٥٥.

الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٢.

ابن قتيبة : كتاب المعارف، ص ٢٧٦، طبعة القاهرة.

(٢) ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ١٣٨ (بجير).

ابن حجر : الإصابة، ج ٣، ص ٦٦٩ (يعلى).

نفس المصدر : ج ٢، ص ٤٩٧ (العلاء).

نفس المصدر : ج ١، ص ٤٨ (أسيد).

نفس المصدر : ج ١، ص ٣٠٤ (حبيب).

(٣) الواقدي المغازي، ج ٣، ص ٩٦٢.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٠، لكن ابن هشام في السيرة مجلد ٢ ص ٤٧٨ يذكر أن غيلان بن

سلمة الثقفي كان بعية عروة بن مسعود في جرش.

الله في قلبه الاسلام، فذهب إلى الرسول ليعلن اسلامه وقد تم له ذلك فعلا في المدينة^(١).

ولابد لنا من وقفة عند اسلام عروة بن مسعود الثقفي، فهل حقا أسلم واهتدى قلبه للإسلام بشكل تلقائي؟ أم أراد من الدخول بالاسلام الحصول على مكاسب أو مغام شخصية له ولقومه الأحلاف؟ أو أراد أن يقطع الطريق على بنى مالك لئلا يسبقوه ويتحالفوا مع محمد صلى الله عليه وسلم بعد المحنة التي مروا بها، فأراد ان يكون قصب السبق له؟.

من المعروف أن عروة هو أحد الذين فاوضوا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ممثلا لقريش، ولم يكن الموقف مجرد لقاء عابر، بل كان مناقشة حادة انتهت بتوقيع معاهدة، فلا شك أن عروة تأثر بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وحنكته السياسية ولباقة الكلامية ومعرفته ببواطن الأمور وحججه المقنعة، ولربما ساورت عروة فكرة الدخول في الاسلام منذ ذلك اللقاء بدليل محاورته لقومه بعد عودته من المفاوضة حيث يقول في الرسول صلى الله عليه وسلم: «انى قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وانى مارأيت ملكا قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لايسثمونه بشيء أبدا»^(٢). هذا القول الصادر من عروة يوحى تماما بتأثره بالرسول صلى الله عليه وسلم ولولم يعلن إسلامه وقتذاك، ولكن تلك الوقفة بقيت عالقة وشاخصة حية في أفكاره.

لذا، بعد عودته من جرش تماثلت الحقيقة أمامه بعدما سمع عن فتح مكة وحصار الطائف فأعلن اسلامه وأدرك أن من واجبه أن يساهم في تقريب وجهات النظر بين قومه ثقيف والمسلمين وأراد أن يستخدم قوة نفوذه بين قومه لأنهم - حسب تصوره - لا يعصونه في أمر ولا يردون له طلبا، لمكانته الكبيرة بينهم، وقد عبر عن ذلك صراحة حين حذره الرسول صلى الله عليه وسلم من مغبة

(١) الواقدي: المغازى، ج ٣، ص ٩٦٠ - ٩٦١.

ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٨٣، طبعة بيروت.

(٢) ابن هشام: السيرة - المجلد الثاني، ص ٣١٤، طبعة الحلبي، ١٩٥٥. والمحاوراة طويلة في الواقدي للاطلاع عليها انظر:

الواقدي: المغازى، ج ٢، ص ٥٩٨ - ٥٩٩.

الذهاب إلى ثقيف، فقال: «أنا أحب إليهم من إيكار أولادهم»^(١). إلا أن الرسول كان يدرك تماما أنهم قاتلوه وقد قالها صراحة: «انهم اذن قاتلوك»^(٢). وبذلك، وبعد الاحاح الشديد من عروة أذن الرسول صلى الله عليه وسلم له بالخروج إلى الطائف، فوصلها بعد خمس ليال ودخل منزل دون المرور على بيت اللات (الربة)، والمرور على اللات تقليد ديني عندهم للمسافرين والعائدين. ولقد ارتابوا من هذا التصرف، وفسروا ذلك بكثرة أتعابه في السفر فأرادوا إختباره فحيوه بتحية الشرك فأنكر عليهم هذه التحية وطلب منهم أن يحيوه بتحية الإسلام، ثم دعاهم إليهم^(٣). هنا تبدل الموقف وشخصت الأبصار وارتابت القلوب ووهنت العزائم وبذلك بدأ يذكر لهم منزلته عندهم ويعدد لهم مناقب الإسلام وأنه لم يدخله إلا بعد أن لمس ذلك فعلا، لكنهم عتفوه وذكروه باللات وعدم احترامها وسقوها آراءه، ثم بدأت المؤامرة تحاك ضده ونفذت في اليوم التالي عند تأدية الصلاة فقتله أوس بن عوف وهو من بني مالك^(٤)، وقد طلب قبل وفاته أن يدفن مع شهداء الطائف وبذلك ضرب مثلا رائعا لقوة الايمان وصفاء العقيدة ورسوخها في قلبه.

ويعت عروة بن مسعود الثقفي حزن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال فيه مثله كمثل صاحب ياسين في قومه، يذكر الطبري: «حدثنا ابن بشار، قال:

-
- (١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٧، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
 - الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٠.
 - (٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٠.
 - ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٤٧٧، طبعة بغداد.
 - (٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦١.
 - (٤) اختلفت الرواية في مقتل عروة فمرة يذكر أن قاتله هو وهب بن جابر، وهو من الأحلاف. ومرة يذكر أن قاتله أوس بن عوف من بني مالك، وهو يرجح الرواية الأخيرة. ويذكر ابن هشام أن كلا من بني مالك والأحلاف كانوا يقتخرون بقتل عروة بن مسعود، ويؤيد الطبري ما جاء في ابن هشام.
 - الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٩٦١.
 - ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٨، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.
 - الطبري : الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١، طبعة دار المعارف المصرية.

حدثنا مؤمل، قال: حدثنا سفيان، عن عاصم الأحول عن أبي مخلد، كان اسم صاحب (يس) حبيب بن مري^(١). وقد ذكرت معظم المصادر هذا القول^(٢).

بعد مقتل عروة بن مسعود لم يتغير الموقف بالنسبة لثقيف وبقيت على موقفها المعادي للإسلام، مع أن الوهن والضعف ازداد في رؤوس قادتها، وهذا واضح من المحاورة التي جرت بين عمرو بن أمية، أحد بني علاج، وبين عبد ياليل عندما قصد الأول الثاني وكان بينهما شيء من الجفاء، إلا أن الحاجة الملحة جعلت كلا منهما يتنازل عن غطرسته وعنفوانه، فعند مقابلة عمرو لعبد ياليل قال له: «قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، انه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت وقد أسلمت العرب كلها وليست لكم بهم طاقة، وإنما نحن في حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تصاب.. ولا نأمن من أحد منا يخرج شبرا واحدا من حصننا هذا، فانظروا في أمركم»^(٣).

إن الحصار قد حول مدينتهم إلى سجن كبير بالنسبة لهم، وحولها من حالة الرخاء والرفاهية إلى ما يشبه الجوع والاستجداء والضائقة الاقتصادية. ولا بد لهم من تدارك الأمر والبحث عن حل ينهي لهم هذه الأزمة، وليس أمامهم إلا الصلح أو القتال، والقتال ليس لهم به طاقة، أى لا مقدرة لهم عليه، أما الصلح فهو الأوفق والأحسن، لكن المشكلة بالنسبة لهم كيف يبدأ هذا الصلح؟ ومن هو الذى يقود مفاوضات الصلح؟ وهم الذين قتلوا عروة بن مسعود وأضاعوا كل الفرص التي سنحت لهم. وعلى أي حال، لابد من انتهاء الوضع المتردي بينهم. وبذلك دخل الموقف مرحلة الموافقة النهائية، فاثمرت ثقيف فيما بينها حتى لا يقال إن فلانا أو جماعة معينة انفردت بالحل، وكان الحل أن اتفقوا على اختيار رأسهم الكبير عبد ياليل مبعوثا لهم على رأس الوفد المفاوض مع المدينة^(٤). لكن

(١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٢، ص ٢١، طبعة دار المعارف المصرية.

(٢) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٦١.

ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٢٨٣، طبعة بيروت.

ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٨، طبعة الحلبي ١٩٥٥.

(٣) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٦٢.

ابن هشام: السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٨، طبعة الحلبي.

(٤) الواقدي: المغازي، ج ٣، ص ٩٦٣. =

عبد ياليل أبى أن يفعل فى أول الأمر وخشي أن يصنع به إذا رجع كما صنع بعروة فقال: لست فاعلا حتى تبعثوا معى رجالا، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك فيكونوا ستة والثلاثة من الأحلاف هم عبد ياليل والحكم بن عمرو بن وهب بن معتب وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب، وثلاثة من بنى مالك هم عثمان بن أبى العاص وأوس بن عوف وغير بن خرشة. ويذكر الواقدي أن الوفد ضم أكثر من هذا العدد وكان من ضمنهم سفيان بن عبد الله^(١). ولربما كان لتشكيل الوفد غاية تتم عن تفكير عميق وسلم فى هذه المفاوضات، لأن عبد ياليل كان يخشى القتل من قبل ثقيف، لذا أراد أن يشرك الكل فى هذه المفاوضات ليضمن السلامة له وما قد يحدث بعد العودة^(٢).

لكن الأرجح أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى كان يرغب أيضا رغبة شديدة فى اسلام ثقيف ويأمل أن يكون هذا اليوم قريبا، ولقد أدرك الصحابة هذا الموقف تماما من الرسول بدليل تسابق أبى بكر الصديق — رضي الله عنه — والمغيرة بن شعبة فى بشارة الرسول بوصول وفد ثقيف إليه^(٣). أضف إلى ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما طلبوا مقابلته وكتابة معاهدة معهم، رحب ترحيبا كبيرا، حيث قال: «لا يسألون شرطا ولا كتابا أعطيته أحدا من الناس إلا أعطيتهم»^(٤). لأن الغرض والهدف الأول للرسول صلى الله عليه وسلم هو نشر الإسلام والدعوة للدين الجديد بين العرب جميعا. فهذه هي رسالته الأولى. ومهما قدم الرسول لثقيف من امتيازات وشروط فهو يدرك تماما أنها ستصبح فى النهاية جزءا من مجتمع الاسلام وستنصهر فى بوتقته وتحمل كل الواجبات الملقاة على عاتق المسلمين. وهذا ما حصل فعلا بعد اسلام ثقيف وما سنراه فيما بعد.

== ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٩، مطبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(١) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٣.

لكن ابن هشام، فى السيرة، مجلد ٢، ص ٥٣٩، لا يذكر إلا هؤلاء الستة فى الوفد.

(٢) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٣ — ٩٦٤.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٣٩، طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

(٤) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٤.

وهكذا أنزل الوفد في خيمات ثلاث وسط المسجد، وضيافتهم في دار المغيرة ابن شعبة بالبقيع، وكان الغرض من نصب الخيم وسط المسجد أن يسمعوا ويروا قراءة القرآن والصلاة وتعاليم الإسلام. ولقد بقي الوفد أياما في ضيافة الرسول يتدارسون الأمر لعلهم يجدون لهم صيغة موحدة في نقاش المفاوضات. وأخيرا استقرّ الرأي وبدأت المفاوضات بعرض مطالب ثقيف واستطلاع وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم فيها والتي تلخصت في إباحة الزنا والربا وشرب الخمر وإبقاء اللات لهم وأن يعفيهم من الصلاة والصوم^(١). فلم يقبل الرسول منهم مطلباً واحداً وقد قدّم مطالبهم وأقنعهم بالحجة والمنطق، وازاء هذا الموقف من قبل الرسول ووضع الثقيفين المتردى في مدينتهم أذعنوا للرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن ضمن الوفد النجاة وأن الرسول هو الذي سيهدم اللات وسيعفيهم من ذلك، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي كتب المعاهدة. وقبل كتابة المعاهدة وافق وفد ثقيف على تمسكهم بإقامة الصلاة وأداء الفروض الدينية المعتادة، وأن يولي عليهم رجلا منهم وأن يعفيهم من هدم اللات^(٢). وقد ورد نص المعاهدة في صورتين مختلفتين، أحدهما عند الواقدي وابن هشام وأبى عبيد. أما الصورة الثانية فقد أوردها أبو عبيد القاسم بن سلام، وإليك النصان:

نص المعاهدة كما أوردها الواقدي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من النبي رسول الله إلى المؤمنين، إن عضاه وج وصيده لا يعضد، ومتى وجد يفعل ذلك يجلد وتنزع ثيابه، فإن تعدى ذلك فانه يؤخذ فيبلغ محمدا، فان هذا أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم. وكتب خالد بن سعيد بأمر النبي الرسول محمد بن عبد الله. فلا يعتده أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قطع عضاه وج وعن صيده وكان الرجل يوجد يفعل ذلك فتنزع ثيابه واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمى وج سعد بن أبي وقاص»^(٣).

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٦ - ٩٦٨.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٨.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٧٣.

وقد ذكر ابن هشام في السيرة، مجلد ٢، ص ٥٤٢ - ٥٤٣ النص نفسه الذي ذكره الواقدي.

أمانص المعاهدة كما أوردها أبو عبيد :

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم
لثقيف، كتب: ان لهم ذمة الله الذى لا إله إلا هو وذمة محمد بن عبد الله
النبي، على ما كتب عليهم فى هذه الصحيفة: إن وادهم حرام محرم لله كله..
عضاه وصيده، وظلم فيه، وسرق فيه أو اساءة، وثقيف أحق الناس بوج، ولا
يعبر طائفهم، ولا يدخله عليهم أحد من المسلمين يغلبهم عليه، وما شاءوا أحدثوا
فى طائفهم من بنيان أو سواء بوادهم. لا يحشرون ولا يعشرون ولا يستكروهون
بمال ولا نفس وهم أمة من المسلمين يتولجون فى المسلمين حيث شاءوا، وأن
تولجوا ولجوا، وما كان لهم من أسير فهو لهم، هم أحق الناس به حتى يفعلوا به
ماشاءوا وما كان لهم فى دين من رهن فبلغ أجله فانه لواط مبراً من الله. وفى
حديث يروى عن ابن اسحق ان لياط مبراً من الله، وما كان من دين فى رهن
وراء عكاظ فانه يقضى إلى عكاظ برأسه، وما كان لثقيف فى دين فى صفهم
اليوم الذى أسلموا عليه فى الناس، فانه لهم وما كان لثقيف من وديعة فى
الناس، أو مال، أو نفس غنمها مودعها أو أضاعها، إلا فانها مؤداة، وما كان
لثقيف فى نفس غائبة أو مال فإن له من الأمن ما شاهدهم، وما كان لهم من
مال بليّة فان له من الأمن ما لهم بوج، وما كان لثقيف فى حليف أو تاجر
فأسلم فانه له مثل قضية أمر ثقيف، وإن طعن طاعن على ثقيف، أو ظلمهم
ظالم، فانه لا يطاع فيهم فى مال ولا نفس وإن الرسول ينصرهم على من ظلمهم،
والمؤمنين ومن كرهوا أن يلج عليهم من الناس، فانه لا يلج عليهم، وإن السوق
والبيع بأفنية البيوت، وأنه لا يؤمر عليهم إلا بعضهم على بعض، على بنى مالك
أميرهم، وعلى الأحلاف أميرهم، وما سقت ثقيف من أعناب قریش فان
شطرها لمن سقاها، وما كان لهم من دين فى رهن لم يلط فان وجد أهله قضاء
قضوا وإن لم يجدوا قضاء فانه إلى جمادى الأولى من عام قابل، فن بلغ أجله فلم
يقضه فانه قد لاطه، وما كان لهم فى الناس من دين فليس عليهم إلا رأسه، وما

كان لهم من أسير باعه ربه فان له بيعه، وما لم يُباع فان فيه ست قلائص، نصفان حقاق وبنات لبون كرام سمان، ومن كان له بيع اشتراه فان له بيعه^(١).

فاذا نظرنا إلى هذين النصين تبين لنا أن الأول منها، أى نص الواقدي وابن هشام لا يكاد يتضمن شيئا من النصوص السياسية التى تعيننا فى هذا البحث فهو يقتصر على الصيد والشجر والغالب أنه جزء من النص الأصلي، أما نص أبى عبيد فهو نص كامل يتضمن كل ما نتوقع أن تتضمنه مثل هذه المعاهدة من النصوص السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ومن خلال ما ذكره الواقدي فى موضوع المفاوضة بين الرسول صلى الله عليه وسلم ووفد ثقيف فانه ذكر معظم ما تضمنته المعاهدة التى أوردها أبو عبيد^(٢)، ولما كان القاسم بن سلام مؤرخا متقدما يوثق فيما ورد وقد وثق نصه بسند قوى يرجع إلى عروة بن الزبير فأنى أفضله وأتناوله هنا بالشرح والدراسة والتحقيق.

وباستعراضنا لما ورد فى هذه المعاهدة يتبين لنا مدى أهمية هذه الامتيازات التى حصلت عليها ثقيف ورغبة الرسول صلى الله عليه وسلم الشديدة فى اسلامهم، كما عبّر صلى الله عليه وسلم أثناء قدوم الوفد إلى المدينة حيث قال: «لا يسألون شرطاً ولا كتاباً أعطيته أحداً من الناس إلا أعطيتهم»^(٣).

نصت المعاهدة على تنفيذ بنودها واعطاء الأمان لأهلها بذمة الله والرسول وان لا رجوع عن هذه المعاهدة مطلقاً. ففى بداية المعاهدة ذكر: ان وادهم حرام محرّم لله كله، عضاه وصيده، وظلم فيه، وسرق فيه أو اساءة. وبذلك أعطى صلى الله عليه وسلم لثقيف مركزاً مرموقاً من الناحية الدينية ورفعها إلى مستوى المدينة المقدسة، وأعطاه مكانة خاصة تنسبها استقلالها الذاتى الذى فقد بدخولها تحت سلطة الدولة الإسلامية. ولها الاحقية فى مدينتها لا يشاركها فيها أحد وبذلك انتزع حق القرشين فى مشاركتها أموالها وتجارتها، وأتاح لها أن تبنى وتعمّر وتزرع وتشاجر بحرية مطلقة، وليس لأحد حق الاعتراض عليها أو دخول مدينتها بدون

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال ج ٢، ص ١٩٠ - ١٩٢ المطبعة التجارية الكبرى ١٣٥٣ هـ.

(٢) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٦ - ٩٦٩.

(٣) الواقدي : المغازى، ج ٣، ص ٩٦٣.

اذن منها. وبذلك سد الباب في وجه الأطماع الخارجية للقبائل بالطائف، ولا سيما أن هذه المدينة نظر إليها منذ القدم نظرة الحسد، وبذلك حصلت ثقيف على الأمان الذي كانت بحاجة ماسة إليه، ولم تحصل عليه حتى أيام عزها وقوتها. وأصبحت أمة مشاركة في أموالها وتجارها مرهونة بموافقتها هي أولا^(١). وأباحت المعاهدة لثقيف حق دخول أراضي الدولة الإسلامية، لأنها أصبحت جزءا منها، ولا يكون هذا الدخول مرهونا بـمكان ولا بزمان علما بأن المعاهدة منعت غيرهم من دخول مدينتهم إلا بموافقتهم، وبذلك أعطي امتياز لها لم يحصل عليه الآخرون.

وكذلك لا تؤخذ منهم صدقات المواشي إلا بمكانهم يأتهم المصدق - جابي الضريبة - إلى ديارهم ولا يحق له أن يأمرهم بأن يجلبوها إليه، وليس لأحد حق اكراههم على دفع أكثر مما نصت عليه المعاهدة، ويذكر أبو عبيد أن عليهم الصدقة من كل مائتين خمسة دراهم، وهو مبلغ زهيد إذا قيس بمدخول الثقفين وقتذاك. ولا يجوز للمسلمين اجبارهم على الدخول في حرب إلا بموافقتهم، وبذلك أعفاهم الشرط من المساهمة العسكرية للدولة إلا برضاهم وإراداتهم. ومن أسر في الجاهلية وأسلم وهو في أيديهم فهو لهم حتى يأخذوا فديته.

ونصت المعاهدة على الموافقة برباهم على الناس. ولكن ما عليهم من الربا رفعه عنهم، وبذلك حفظت أموال ثقيف المدانة للآخرين والمودعة لدى المسلمين وألزمتهم بضرورة ردّها والالتزام الكامل بشروطها السابقة، حتى نزلت الآية الكريمة: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين»^(٢).

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال، ج ٢، ص ١٩١ - ١٩٢ مع التصرف في تحليل نص المعاهدة.

(٢) القرآن الكريم : سورة البقرة، الآية رقم ٢٧٨.

وينزل الآية طلب منهم أن يشركوا الربا، إن كانوا صادقين في إيمانهم، لأن من شأن المؤمن الامتناع لأوامر الله. ويظهر هنا أن النص في المعاهدة كان يقصد به الرسول نصا مرحليا ينتهي بإيمان وتعمق الاسلام في نفوس ثقيف وهذه هي مرونة الرأي السياسي.

انظر تفسير القرآن للسيوطي، ص ٦٣، نشر مكتبة الكتبي.

ويؤيد على ذلك أيضا:

ابن كثير : تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

ولقد استكملت المعاهدة امتيازات أخرى لهم ولن لم يحضر معهم، ويظهر أن الوفد لم يكن يمثل كل الثقفين^(١)، وإنما ترك قسم منهم الأمر للظروف وحتى يتبين ويتضح الموقف فانهم بقوا بين بين، لذا لم تحرمهم المعاهدة من حق الدخول فيها، فأعطت المعاهدة صفة الشمولية أو العمومية، ولم تقصر الأمر على بنى مالك والأحلاف الذين حضروا المفاوضات وشملت حتى الحلفاء والتجار. من هنا يتبين أن الرسول كان ينظر نظرة مساواة للجميع ولا يتمسك بأي تقليد جاهلي أو عصبية قبلية مطلقا فهو كان يفاوض باسم دولة وليس باسم قبيلة أو تجمع قبلي أو تقليد جاهلي قديم متبع.

وذكرت المعاهدة أيضا أنه لا يحق لشخص أو فئة أن تظلمهم، وإذا ظلمتهم فيحق لهم مقاومتها وإن الرسول ينصرهم ويناصرهم ويقف بجانبهم ضد أي اعتداء عليهم ولا يولى عليهم أميرا أو حاكما إلا منهم، سواء من الأحلاف أو بنى مالك، وبذلك احترمت المعاهدة وضعهم الاجتماعي وتقسيماهم القبلية، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدرك بثاقب بصره الحساسية أو شعور الشك المتبادل بين الأحلاف وبنى مالك وكل منهم حليف لآخر، الأحلاف لقريش، وبنو مالك لهوازن، وبذلك حقق العدالة بينهم وتجنب أية حساسية مستقبلية وهو يدرك تماما بأنه بعد أن يثبت الإسلام ويتعمق في نفوسهم سيزول هذا الشرط مثلما زال في المدينة حين قدومه إليها عند الهجرة بين الأوس والخزرج وانتهت التسمية بتسمية جديدة هي الأنصار، وسيعمل الرسول على تحقيق هذا الهدف بكل ما يستطيع.

ولقد نصت المعاهدة أيضا: وما سقت ثقيف من أعناب قريش فان شطرها لمن سقاها. وبذلك أعطت ثقيفا حق المشاركة في غلات الأرض والمزارع التي كان يمتلكها القرشيون في الطائف، وبذلك قصد هنا نوع من الموازنة والتآلف المستقبلي بين القبيلتين القويتين قريش وثقيف.

ألزمت المعاهدة المسلمين بتنفيذها، وهذا ما أكد عليه الرسول في بداية النص
(١) ذكر أن الوفد ستة: ثلاثة من بنى مالك وثلاثة من الأحلاف، ونص المعاهدةؤكد غياب بعض الاطراف.

انظر الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٣.

باعطائهم ذمة الله ورسوله، وهذا يكفي لاحترام المسلمين لها وهي دلالة على ما لشقيف من أهمية في نظر الرسول. ولم تنقل المصادر لنا أية مخالفة من جانب المسلمين للمعاهدة.

ولقد عيّن الرسول عثمان بن أبي العاص، وهو من بني مالك، ليضمن عنصر الموازنة بينه وبين المغيرة بن شعبة وهو من الأحلاف، لذا أصبح تعيينه محل رضا وقبول الطرفين، بالإضافة لمعرفة بأصول الدين والقرآن والحديث ومساهمته مع الرسول(١).

نستطيع من خلال دراستنا وتحليلنا لهذه الامتيازات أن نصل إلى هدف واضح لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو التأليف بين القبائل وخاصة بين أقوى مجموعتين: ثقيف وقريش وهو يعلم أنه بعد تألفهم وتعمق الإسلام في قلوبهم ستنتهى كل الامتيازات التي منحت لثقيف وسيتساوون مع المسلمين تطبيقاً للشريعة الإسلامية، ورغم أن البعض شكك بثقيف وعاب امتيازاتها، فإن ثقيفا بقيت على اسلامها ووقفت إلى جانب المسلمين وساهمت في ضرب حركات الانفصال والردة ودافعت عن الاسلام والمسلمين بثبات وصبر وإيمان. وسلاحظ ذلك في فصول قادمة.

وبكتابة المعاهدة انتهى دور الوفد في المدينة، فقفلوا عائدين إلى الطائف وفي قلوبهم الخوف والوجل من ثقيف، وتخوفوا من أن يحل بهم مثل الذي حل بعروة ابن مسعود من قبل. لذا اقترح عليهم عبد ياليل بعدم البوح بنصوص المعاهدة وكتمان السر حتى يتبينوا أمر ثقيف، واتفقوا عند وصولهم على التظاهر بعدم قبول الرسول صلى الله عليه وسلم لشروطهم، لأنه أصر على تحريم الزنا والخمر والربا وهدم اللات، وهذه الشروط لا يمكن قبولها ولا طاقة لهم بها(٢). وعند وصول الوفد أجرى المراسم المعتادة بزيارة اللات والتبرك بها، إلا أن رجال ثقيف الذين رافقوا وصولهم أدركوا عدم مبالاتهم هذه المرة بها وعبر أحدهم عن

(١) أبو عبيد : كتاب الأموال، ص ١٩٠ - ١٩٢، المطبعة التجارية.

(٢) الواقي : المغازي، ج ٣، ص ٩٦٩.

الديار بكري : تاريخ الحميس، ج ٢، ص ١٢٧

ذلك بقوله: كأنهم لم يكن لهم بها عهد ولا برؤيتها^(١). وذهب كل منهم إلى أهله.

وفي اليوم التالي اجتمعت ثقيف لتسمع أخبار وفدها وما جاء به، فعقد الوفد اجتماعا، أشبه بمؤتمر، مع قبيلته وشرح لهم الأمر وأوضحوا للقبيلة أنهم قابلوا رجلا فظا غليظا لا يأخذ من أمره شيئا، قد ظهر بالسيف وأداخ العرب وأذعنت له الناس بالخوف والقوة وأنه اشترط عليهم شروطا قاسية كالتى ذكرت سابقا ولم تقبل بها، ولا بد لنا من التجهيز للقتال والعدة لأيام صعبة قد تواجهنا قريبا، لأنه ينوى العودة للحرب وتدمير الطائف^(٢). وفعلًا قام أهل الطائف بترميم الأسوار وتعميرها وتجهيزوا للقتال بعد أن نصبوا المنجنيق والعرادات وأدخلوا طعام سنتين للمدينة وشرعوا في حفر خندق خلف السور استعدادا لأي طارئ، لكن بعد أيام قلائل فترت هممتهم وخارت عزائمهم وقالوا: مالنا به طاقة، فطلبوا من الوفد العودة للمدينة وقبول شروط الصلح. عندها أعلن الوفد حقيقة الأمر وبينوا لهم مآلوقه أثناء المقابلة من عزة واحترام، فقالوا لهم: وجدناه أتقى الناس، وأبر الناس، وأوصل الناس، وأوفى الناس، وأصدق الناس، وأرحم الناس. وبذلك استطاع الوفد أن يهيء القبيلة نفسيا ومعنويا لقبول الصلح والدخول في الإسلام.

وبعد أن قبلت ثقيف المعاهدة وأقرتها وبدى بتنفيذ بنودها، وأولها هدم اللات، كلف أبو سفيان والمغيرة بن شعبة هدمها بمساعدة رجال من أحلاف ثقيف ويومها كانت النهاية لعهد الوثنية فى الطائف، ولم يبق سوى حسرة نساء ثقيف على معبودتهن. ولقد حاول سدنة اللات والمستفيدون منها عرقلة هدمها بالوعود الجوفاء من العقابة وعبثا حاولوا ذلك، فهدمت وانتزعت قلائدها وحليها وطيبها وأخذت^(٣)، وبذلك انتهى عهدا بعد أن طال.

(١) الواقدي : المغازي، ج ٣، ٩٦٩.

(٢) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٧٠.

(٣) أخذ جزء من أموال اللات وقضى به عن دين عروة والأسود ابني مسعود الثقفي.

ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٤٢، طبعة الحلبي ١٩٥٥

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٠٠.

وبدخول ثقيف في الإسلام، انهدمت أسوار الوثنية في الحجاز وانتهت أسطورة
الأصنام التي لا تنفع وأصبح الرسول زعيما دينيا وسياسيا في الحجاز وشبه الجزيرة
العربية كلها.

(الطائف فى عصر الراشدين)

- ١ - دور أهل الطائف فى عصر الخلفاء الراشدين
ومشاركتهم فى حركة الردة والفتوح الكبرى ١٨١ - ٢١٧
- ٢ - موقف ثقيف من الصراع على السلطة حتى قيام
الدولة الأموية وبروز العصبية الشقفية كبديل
للعصبية القرشية ٢١٩ - ٢٣٩

الباب الثالث مدينة الطائف في عصر الراشدين :

دور أهل الطائف في عصر الخلفاء الراشدين ومشاركتهم في حركة الردة والفتوح

لعب الثقيفون من أهل الطائف دورا بارزا في عصر الخلفاء الراشدين، وقد تميّز هذا الدور بمحدثين رئيسيين هما الردة والفتوح الإسلامية الكبرى وسنتطرق إليهما تباعا لنبين دور الثقيفين من أهل الطائف فيها.

أولاً: دور الثقيفين في حركة الردة ضد الدولة الإسلامية :

لم تدخل ثقيف الإسلام طواعية وفي وقت مبكر، بل دخلته مرغمة وفي وقت متأخر لكنهم أصبحوا بعد إسلامهم من أشد العرب حرصا على الإسلام وذودا عنه حتى في محنة الردة^(١). تذكر المصادر في أخبار الردة « أنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم، وسيّر أبو بكر جيش أسامة ارتدت العرب وتضرمت الأرض نارا وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا^(٢) ».

ولكى نقف على دور الثقيفين في حركة الردة، لابد لنا من لقاء الضوء على حالة المجتمع العربي أثناء ظهور هذه الحركة والدوافع المباشرة التي دعت إلى قيامها.

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ١١ للهجرة، كان المجتمع العربي

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٤٦ - ١٤٧، طبعة النهضة المصرية.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٤٢ طبعة بيروت.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢، طبعة دار المعارف.

يتفاوت إيمان أفراده بالإسلام، وذلك لعاملين مباشرين، أولهما مدى تغلغل وتفهم تعاليم الدين الإسلامي بين العرب، وثانيهما مدى تأثير شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم. وهذان العاملان يتوقفان على القرب والبعد عن مركز الدولة في المدينة (يثرب) والاتصال المستمر بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما أن وسائل اتصال القبائل معه لم تكن مباشرة أو متيسرة^(١). لذا، ظهرت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أحزاب وآراء متضاربة وهو ما يحدث في كل مجتمع يفاجأ بأحداث خطيرة^(٢).

فالدين الإسلامي يختلف عن بقية الأديان الأخرى، فلقد جاء بتعاليم دينية واجتماعية وقيم أخلاقية، قلبت مفاهيم المجتمع الجاهلي رأسا على عقب وتركت فيه آثارا واضحة المعالم ونتائج ملموسة، رسمت فيه طابعا جديدا يختلف عن الطابع القديم للعصر الجاهلي تماما. لذا، فقد تقبل الناس هذه التعاليم والقيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية بتفاوت بين جماعة وأخرى، كل حسب تفهمه لها ومصلحته منها^(٣). فالرعيل الأول من الذين أسلموا في بداية الدعوة وقدموا أموالهم وأنفسهم في سبيلها هم جماعة تختلف نظرهم تماما عن الآخرين، لأن إيمانهم بالدعوة كان صادقا لا مصلحة فيه سوى استجابة لنداء الله وتنفيذا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء ثبتوا على إيمانهم في أشد المواقف حرجا وهم الفريق الأول من المسلمين^(٤).

أما الفريق الثاني فهم الذين بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم وأرسلوا الوفود له معلنين إسلامهم وقبولهم بالدخول في الدولة الإسلامية نتيجة الحرب والقتال والهزيمة مثل أهل مكة وهوازن وأهل الطائف وحلفائهم من مجموعة قبائل قيس غيلان كقبيلة سليم مثلا^(٥). فأهل مكة أسلموا بعد الفتح وهوازن أسلمت

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٣٨، طبعة دار الفكر.

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٩٠.

(٣) أحمد شلبي : التاريخ الإسلامي، ج ١، ص ٢٧٧.

هاملتون جب : دراسات في حضارة الإسلام، ص ٦ - ٧.

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٧٩ - ٨٠.

فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٥٨.

(٥) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٤٩ وما بعدها. ==

بعد هزمتها في موقعة حنين وأسر أعداد كبيرة منها ورغبتها في استعادتهم خشية أن يصابوا بسوء بعد أن أصبحوا سبايا لدى المسلمين. أما أهل الطائف فقد أسلموا بعد حصارهم وما عانوه بعد الحصار من عزلة نفسية واجتماعية واقتصادية دفعت بهم إلى الفقر والاستجداء، هؤلاء جميعا دخلوا في الدين الإسلامي مرغمين ثم أصبحوا جزءا من دولته الكبيرة فيما بعد.

أما الفريق الثالث وهم الذين أسلموا نتيجة الحفاظ على مصالحهم الشخصية وابتغاء لكسب الامتيازات وتعجبا من انتشار الإسلام بهذه السرعة، هذه الطبقة في غالبيتها من أصحاب المصالح التجارية والأموال الذين وجدوا في استقرار الأوضاع في الدولة الإسلامية الجديدة عاملا مساعدا على قيامهم بأعمالهم التجارية وتنميتها وحصولهم على امتيازات السلطة والتجارة معا، وإن اعتناقهم الإسلام سوف يوفر لهم الاطمئنان والربح والاستقرار مقابل فرائض وعبادات بسيطة يقدمونها للإسلام كالصوم والصلاة والزكاة، وهي شعائر الإسلام وواجباته الدينية. ومن هؤلاء أهل اليمن واليمامة وعمان^(١). ولا سيما أن اليمن بلاد عريقة في الحضارة والتجارة وأرضها خصبة صالحة للزراعة، لذا كان من مصلحتها الاستقرار تحت ظل الدعوة الإسلامية الجديدة.

وهذا يبدو لنا أن جزءا كبيرا من القبائل العربية قد دخلت الإسلام تحت ظروف متعددة أو أهداف ذات مصلحة معينة خاصة بها، كما أن صلات الرسول صلى الله عليه وسلم وعلاقته بالقبائل الأخرى كانت ضعيفة ولا تتعدى الشعائر الدينية وتأديتها عن طريق من يرسلهم إليهم ليعلمهم هذه الشعائر، ناهيك عن أن بعض القبائل في الحجاز نفسه لم تدخل الإسلام إلا قبل وفاة الرسول بسنة أو سنتين^(٢). أما الوفود التي قصدت النبي صلى الله عليه وسلم لتقديم الطاعة

== مونجمرى وات : محمد في المدينة، ص ٧١ - ٧٣ الطبعة الانجليزية.

(١) ابن هشام : السيرة، المجلد الثاني، ص ٥٨١ وما بعدها. طبعة الحلبي، ١٩٥٥.

اليقوبي : تاريخ ج ٢، ص ٧٩ - ٨٠، طبعة بيروت.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٤٤.

فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٩١.

أحمد شليبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

والاقرار بولايته فلا يسوغ البتّ في أنها كانت تنوب عن كل أنحاء شبه الجزيرة، فإذا أسلمت القبيلة يومئذ فلم يكن في الأمر سوى أن زعماءها دخلوا في الدين، لم يكن الاقتناع بالعقيدة الإسلامية راسخا في النفوس متغلغلا فيها بعد، وبخاصة في مجتمع مثل المجتمع العربي الذي تأصلت فيه العادات القبلية المختلفة والتي أهمها العصبية التي جعلت ولاء الفرد لعشيرته وقبيلته أقوى من ولاءه لأي شيء آخر^(١).

هذه الأمور قد تلقى الضوء وتفسر لنا سرعة انتشار حركة الردة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إذا علمنا أن بؤادر هذه الحركة ظهرت في أواخر حياته صلى الله عليه وسلم وبخاصة عندما بدأت في اليمن وهي أكثر بلاد العرب استقرارا واطمئنانا مثل ردة الأسود العنسي ولقيط بن مالك بعمان^(٢). علما بأن الإسلام ساهم مساهمة فعالة في تنظيم حياة أهل اليمن، لكن قبائلها لم تستوعب مضمونها وشكلها في الجماعة الإسلامية، وذلك نتيجة لاختلاف هذا الشكل والمضمون عما كانت عليه في النظام القبلي، المبني على المفاهيم القبلية الصرفة، ولا سيما أن الإسلام أزال الفوارق والتناقضات بين أفراد القبيلة الواحدة وبين أفراد القبيلة والقبيلة الأخرى وأحدث فيها تغيرا أدى إلى ظهور ردود فعل عنيفة كان أهمها حركة الردة^(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن الردة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لم تظهر بشكل واضح، لكنها انتشرت وتوسعت وظهرت بشكل واضح بعد وفاته صلى الله عليه وسلم مباشرة وبخاصة بعد تولية أبي بكر الصديق - رضي الله - الخلافة. ولم تحدث الردة في مكان واحد، ولا لسبب معين واحد، بل اتخذت أشكالا

-
- (١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٣٣ - ١٤٥.
 ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢٨٦، طبعة بيروت.
 اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٧٩، طبعة بيروت.
 أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٣٨.
 فيليب حتى : تاريخ العرب، ج ١، ص ١٩١.
 (٢) اليعقوبي : تاريخ، ص ١٣٠ - ١٣١، طبعة بيروت.
 الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣١٣ - ٣١٦، ٣٢٣.
 (٣) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر، ص ٩٠، طبعة مصر سنة ١٩٥٥.

متعددة وأماكن مختلفة وبخاصة في مناطق العصبية الكبرى، أو تلك التي شهدت من قبل ملكا أو رياسة.

ويمكن اجمال الأسباب التي أدت إلى ظهور حركة الردة بما يأتي:

أولا: الأسباب السياسية :

إن العصبية القبلية كانت محور الحياة السياسية والاجتماعية في شبه الجزيرة العربية ووجود الكتل الكبيرة التي تدين بها والتي مازالت تعيش في ذكراها القبائل المتأخرة في اعتناق الإسلام فلم ترض عن انفراد قريش بالخلافة ورياسة العرب^(١). ورأت أن لها من القوة ما يمكنها من أن تكون رياسة العرب فيها. فقد انضم بنو حنيفة لمسيلمة الكذاب مع علمهم بكذبه وخداعه لهم، وهذا واضح من قول طلحة النخري عن مسيلمة، حيث قال: «أشهد أنك الكاذب، وأن محمدا صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر»^(٢). وكذلك هوازن وسليم اللتان ارتد بهما علقمة بن علانة، إلا أن ارتداده لم يفلح، لكن فلول غطفان وطي وسليم وهوازن ارتدت مع أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر وانتهت ردتها بقتلها وقتل مائة رجل معها ممن تبعها^(٣).

كذلك الأسود العنسي الذي ينتمى إلى عصبية مذحج إحدى كتل اليمن الكبيرة^(٤). وطلحة بن خويلد في بني أسد بنجد وينتمى لكتلة قيس القوية. قال عيينة بن حصن: « والله لأن نتبع نبيا من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش، وقد مات محمد، وبقي طليحة. فطابقوه على رؤية ففعل وفعلوا»^(٥). وكذلك اجتمعت ربيعة بالبحرين وارتدت وهذا واضح من قولهم: «نرد الملك في

(١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٥، ٢٥٩، ٣٠٣، طبعة المعارف.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٦٢، طبعة بيروت.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٠، طبعة بيروت.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٧ وما بعدها.

ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٣٣٦ وما بعدها.

ابن حزم: الجمهرة، ص ٤٠٥.

(٥) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٥٧.

آل المنذر، فلكوا المنذر بن النعمان بن المنذر^(١)، كما ظهرت سجاح في بني تغلب وقبائل تغلب لم تسلم^(٢)، ولقيط بن مالك في الأزد ويلقب بذي التاج وهو ينتمى إلى عصبية الأزد في اليمن^(٣). هؤلاء هم الذين لم يتغلغل الإسلام في نفوسهم واعتقدوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصل إلى زعامة العرب إلا بسبب عصبية قريش فرغبوا في محاكاته ولهم ما يؤيدهم من قبائلهم التي لا تقل بحال من الأحوال عن قبيلة قريش التي ينتمى إليها الرسول صلى الله عليه وسلم. لذا سيطر التعصب القبلي عليهم سيطرة تامة أدت بهم إلى الارتداد وعلان الرفض للدعوة الإسلامية. ويبدو أن إعجابهم بشخصية الرسول دفعهم لمحاولة تقليدها أملاً في الوصول إلى ما وصل إليه، لعدم ادراكهم معنى النبوة ادراكاً صحيحاً، لذا اعتقدوا أن الدعوة انتهت بموته ومصدق ذلك قولهم: «لو كان نبياً حقاً لما مات»^(٤). فلم الطاعة من بعده؟. لذا بدأوا يتجهون حول أنفسهم معتمدين على قوة عصبيتهم^(٥). ولم ينحصر الخلاف بين هذه العصبيات الكبيرة فقط بل امتد هذا العصيان لمكة أيضاً لولا تدخل عتاب بن أسيد، عامل مكة، وسهيل بن عمرو ونهيهما عن هذا الأمر^(٦). ويورد محمد حسين هيكل قولاً لسهيل بن عمرو في الردة ويقول: «إن ذلك — ويقصد الارتداد — لم يزد الإسلام إلا قوة، فمن رابنا ضربنا عنقه، ثم قال: والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٧). ولعل هذه الكلمة كانت أقوى أثراً في نفوسهم من التهديد فاستمسكوا بالإسلام وأقاموا عليه.

إن المرتدين كانوا في نظر الدولة رافضويّة ومتمردون على حكم الإسلام،

- (١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٠٣.
 - (٢) الطبري الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٦٧ وما بعدها.
 - (٣) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٥٤.
 - (٤) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٢.
 - (٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٠٢.
 - أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٧٨.
 - (٥) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤١، طبعة دار الفكر، ١٩٦٨.
 - (٦) ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٩٣ - ٩٤، ٩٥ - ٩٦.
 - (٧) محمد حسين هيكل : الصديق أبوبكر، ص ٨٢ - ٨٣، طبعة القاهرة، ١٩٥٨.
- ويذكر ابن حزم في الجمهرة، ص ١٦٦، بأن سهيل بن عمرو قد أسلم وحسن إسلامه.

فالردة كانت انفصالاً عن الدولة الإسلامية، وقد فسر ذلك أبو بكر — رضي الله عنه — بأنه ارتداد إلى الجاهلية وردة عن الإسلام، وعلى هذا الأساس استباح حربهم وانزلهم على حكم الخليفة الشرعي.

فالردة في الحقيقة لم تكن ردة عن الإسلام كدين وإنما كانت ردة على النظام السياسي الذي أوجده الإسلام، وخروجاً على الدولة وثورة على الزعامة القرشية التي تولت الحكم بعد النبي وكان اعتذار الناس بعد أن عادت البلاد إلى حكم المسلمين أنهم كانوا حديثي عهد بالجاهلية^(١). يذكر الطبري: «إن الله قد قتل الأسود الكذاب العنسي، قتله بيد رجل من إخوانكم، وقوم أسلموا وصدقوا، فكنا كأننا على الأمر الذي كان قبل قدوم الأسود علينا، وآمن الأمراء وتراجعوا، واعتذر الناس وكانوا حديثي عهد بالجاهلية»^(٢).

ويذكر الدكتور الشريف: إن الزعماء الذين هزموا وأُسروا طلبوا أن لا يطبق عليهم قانون الارتداد، وإنما طلبوا أن يطبق عليهم قانون الاستبراء، ويقول عيينة بن حصن الغزاري حين جرى به إلى المدينة أسيراً، وقيل له: أكفرت بعد إيمانك؟ قال والله ما كنت آمنت بالله قط^(٣).

فالردة لم تكن إذن ردة عن دين، وإنما كانت ردة عن الوحدة السياسية ومنافسة على الزعامة وعصبية تطلب ملكاً وتتنافس عليه وتضطنع الدين وسيلة للوصول إليه، وهذه القبائل نفسها هي التي ثارت على قريش في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان — رضي الله عنه — وكانت ثورتها سبباً في الفتنة الكبرى^(٤).

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٥.

ابن خلدون : المقدمة، ص ٢٧٩، وما بعدها.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٣٩، طبعة دار المعارف.

(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٥.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٦٠، طبعة دار المعارف.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٤٨، طبعة بيروت.

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٤٥.

ابن خلدون : المقدمة، ص ٣٨٠، وما بعدها.

ثانيا : الاسباب الدينية والاجتماعية

من المرتدين فريق امتنع عن دفع الزكاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وعدّها ضريبة مهينة يصعب على العربي دفعها، ونوعا من الصدقة تدفع للرسول، انتهت بموته فلا داعي للاستمرار في تأديتها وأصبحوا في حل من دفعها لمن قام من بعده، ومرد ذلك أن هؤلاء لم يكونوا يدركون، لبداوتهم وقلة حظهم في المعرفة الإسلامية مدى حدوده كدين يحتوى تشريعا تقوم عليه دولة^(١). وهذا الخصوص يقول الدكتور أحمد الشلبي إن أغلب مانعي الزكاة أساءوا فهم الآية الكريمة التي تقول: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها»^(٢). وظنوا أن الرسول وحده والخطاب في الآية الكريمة له هو الذي يجوز له أن يأخذ الزكاة، ففي ذلك تطهير وتزكية لهم، وقد نسي هؤلاء، لقلة معرفتهم بالعقيدة الإسلامية، التفسير الدقيق للآية الكريمة، كما نسوا الآيات الأخرى التي تقرر أن للفقير حقا في مال الغني كما يقول الله عز وجل: «والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»^(٣). وقد وصف القرآن الكريم حالة أمثال هؤلاء من الأعراب بقوله: «الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم»^(٤).

وفي صحيح مسلم والبخاري، يذكر بأن مانع الزكاة قد أوعده الله ورسوله بالعذاب المقيم والعقاب الأليم دون أن يصرح عليه بالكفر أو الارتداد، أو الرجوع عن الإسلام^(٥). وقد حدد معنى الردة بأنها الاسم من الارتداد، والردة عن

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز ص ١٤٦.

(٢) أحمد شلبي : التاريخ الاسلامي، ج ١، ص ٢٨١.

القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية رقم ١٠٣.

(٣) القرآن الكريم : سورة الماعز، الآية رقم ٢٤، ٢٥.

(٤) القرآن الكريم : سورة التوبة، الآية رقم ٩٧، ٩٨.

(٥) البخاري : صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٣٢.

مسلم : صحيح مسلم، ج ١، ص ٦٢.

الإسلام الرجوع عنه، وارتد فلان عن دينه إذا كفر بعد اسلامه^(١). لذا فإن هذا التعريف لمناعي الزكاة يدل على أن الصحابة لم يعدوهم قد كفروا بالإسلام، وقد عارض عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أبا بكر - رضي الله عنه - في حربه لهم محتجا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لكنه عاد وأقر مشروعية الحرب^(٢)، بعد اقتناعه برأي أبي بكر في أن الامتناع عن دفع الزكاة هدم لركن من أركان الدين، وإن التهاون فيه قد يجزّ إلى هدم غيره من الأركان، بالإضافة إلى أنها المصدر الوحيد لموارد بيت المال، وأن التنازل عنها سوف يصيب بيت مال المسلمين بالعجز المادي في حين كانت الدولة بأمرس الحاجة للمال. لذا وافق عمر على رأى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -^(٣).

وخلاصة القول إن المرتدين رفضوا الاذعان لسلطة الدولة، فكان بديها أن يمتنعوا عن دفع الزكاة لأنهم لا يعترفون ولا يخضعون لسلطة الدولة وقتذاك.

أما العوامل الاجتماعية فقد تمثلت في عدم قبول العرب بمبادئ المساواة والاقلاع عن العادات التي تعودوا عليها في جاهليتهم بسهولة، وهم وإن كانوا قد قبلوا بها أيام الرسول صلى الله عليه وسلم تأثرا بشخصيته وتمشيا مع الظروف، فانهم سرعان ما رغبوا بالعودة إلى ما اعتادوا عليه بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وإن تحججوا بالاتاوة وغيرها. ويذكر ابن الأثير محاورة عمرو بن العاص لقرة بن هبيرة من بني عامر فيقول: «قال: قرة لعمرى يا هذا إن العرب لا تطيب

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ص ١٧٢ - ١٧٣، طبعة بيروت ١٩٥٥، كلمة ردة.

الزبيدي: تاج العروس، ج ٨، ص ٩٠، طبعة وزارة الارشاد الكويتية.

(٢) قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ومن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله. وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه. فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق».

البخاري: صحيح البخاري، ج ٢، ص ١٣٢، طبعة دار الشعب.

(٣) أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ١٤٦، طبعة دار الفكر.

لكم نفسا بالاتاوة، فان أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم» (١).

هذا إذا علمنا أن فهم تعاليم الدين الجديد وما يتطلبه من تنفيذ لمبادئه كان ضعيفا لدى القبائل العربية، وبخاصة تلك التي كانت بعيدة عن المدينة كقبائل نجد وجنوب الجزيرة العربية، ووسائل اتصالها بالرسول صلى الله عليه وسلم صعبة وقليلة وذلك لصعوبة المواصلات بينها وبين المدينة، بالإضافة إلى أن الزمن لم يكن كافيا لاكتساب الاتباع بحيث لم يكن مستطاعاً بالفعل أن يدخل الإسلام الأغلبية الغالبة منهم، وحتى الذين أسلموا بقوا مسلمين اسمياً فقط (٢)، ومصداق قوله تعالى: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» (٣).

ومن هذا تتبين لنا الأسباب الداخلية التي أدت إلى ردة بعض القبائل العربية والتي انحصرت ما بين مرتد وممتنع عن دفع الزكاة، لكن الموقف كان يتطلب الوقفة الحازمة ضدهم لئلا يتسرب الوهن والضعف لبقية المسلمين، ولا سيما أن بعض قبائل الطائف ومكة بدأت تتململ وتهم بالتحرك نحو الردة وإعلان الرفض للدعوة الإسلامية، وهذا واضح من موقف عتاب بن أسيد، عامل مكة، وسهيل بن عمرو بن عبد شمس، وقول عثمان بن أبي العاص عامل ثقيف حينما قال لهم: «انكم آخر من أسلم فلا تكونوا آخر من ارتد» (٤). فكان لزاماً على من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقف موقف الحزم والجديّة، ويعتبر كل خروج على سلطة الدولة وقانونها الديني ردة. فلا فرق بين ردة كاملة وبين ترك ركن من أركان الإسلام وهي الزكاة، وهذا ما فعله أبو بكر واعتبرهم جميعاً

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٣٥٢، طبعة بيروت.

أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ١١٤.

(٢) أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ١٤٦ - ١٤٧.

فيليب حتى: تاريخ العرب المطول، ج ١، ص ١٩١.

(٣) القرآن الكريم: سورة الحجرات، آية رقم ١٤.

(٤) أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ١٤٦ - ١٤٧، طبعة دار الفكر.

ابن حجر: الإصابة، ج ٢، ص ٤٥٢، ٤٦٠.

محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر، ص ٨٢ - ٨٣.

مرتدين يحق مقاتلتهم حتى ينصاعوا لأمر الله بلا قيد ولا شرط والا فالحرب والدعاء^(١).

ثالثا : العوامل الخارجية :

ولربما كان لدولتي الروم في الشمال والفرس في الشرق دور في تأييد المرتدين، ولو أن المصادر لم تجربنا صراحة بذلك، لكنها حاولتا، قبل الإسلام، السيطرة على أطراف شبه الجزيرة الجنوبية والشرقية. لذا، ربما وجدوا في حركة الارتداد سببا في اضعاف دولة المسلمين الجديدة وعدم رغبتهم في توحيد الجزيرة تحت ظل الإسلام حتى لا تكون الدولة الجديدة ندا جديدا لهما. ولا سيما أنهم كانوا يتصارعون لمد النفوذ إليها، ولربما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مدركا لهذه الأخطار فوجه همّه نحو الشمال في أواخر حياته فكانت غزوة مؤتة سنة ٨ للهجرة وغزوة تبوك سنة ٩ للهجرة^(٢).

بعد أن استعرضنا الردة وأسبابها الداخلية والخارجية، لابد لنا من البحث في موقف ثقيف من هذه الأحداث. فهل شاركت ثقيف بها دفاعا عن الدين والإسلام أم كانت مشاركتها دفاعا عن الوثنية والباطل والارتداد؟.

لقد ذكرنا، سابقا، في صفحة (١٨١) أن العرب ارتدت وتضرمت الأرض نارا وارتدت كل قبيلة عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا.

من الثابت لدينا أن ثقيفا اعتنقت الإسلام متأخرة، سنة ٩ للهجرة، وبموجب معاهدة مكتوبة مع الرسول، ولم يدخل في الإسلام منها إلا قلة قليلة أمنت به في وقت مبكر وقبل موقعة حنين وحصار الطائف أمثال المغيرة بن شعبة وغيره^(٣).

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٣٠.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٤٢.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٣) الواقدي : المغازي، ج ٢، ص ٥٩٥ - ٥٩٦.

نفس المصدر : ج ٣، ص ٩٦٧.

لكنها لم ترتد ولم تعرف الردة مطلقا كما أشارت المصادر، رغم احاطتها بالقبائل التي تحركت نحو الردة مثل هوازن وسليم وبنى عامر، ورغم أن الأسود العنسي المرتد في اليمن قاربت رده حدود مدينتها الطائف^(١). ولم نجد سوى إشارة لابن حجر يذكر فيها بأن ثقيفا همت بالارتداد، لكن عثمان بن أبي العاص الثقفي، وهو من بنى مالك الذي عيّنه الرسول صلى الله عليه وسلم عاملا عليها بعد اسلامها حذرهم وذكرهم بأنهم آخر من أسلم فلا يكونوا أول من ارتد، قال ابن حجر: ان عثمان بن أبي العاص خاطب ثقيفا يوم همت بالارتداد، قائلا: «كنتم آخر الناس اسلاما، فلا تكونوا أولهم ارتدادا»^(٢). وطالبهم بالمحافظة على مكانتهم في الدولة الجديدة والمحافظة على أواصر القربى والنسب بينهم وبين أهل مكة وذكرهم بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ومسامحته وحسن معاملته لهم وعفوه عنهم، وبذلك تغيرت أفكارهم، فتمسكوا بالاسلام ولم يرتدوا، والمصادر المختلفة قد أكدت أنهم لم يرتدوا أبدا. فقد ذكر الطبري: «لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفصل أسامة ارتدت العرب عوام وخواص، وتوحي مسيلمة وطلحة، فاستغلظ أمرهما، واجتمع على طليحة عوام طيء وأسد، وارتدت غطفان إلى ما كان من أشجع وخواص من الأفناء فبايعوه، وقدمت هوازن رجلا وأخرت رجلا، أمسكوا الصداقة إلا ما كان من ثقيف ولفها، فانهم اقتدى بهم عوام جديلة والاعجاز، وارتدت خواص من بنى سليم، وكذلك سائر الناس بكل مكان»^(٣).

إن قيام أبي بكر بأمر الخلافة ونهوض أهل مكة إلى جانبه في أمرها كان له الأثر في ثقيف مثلما كان له في مكة، فقد تشابهت المدينتان في ظروف الحياة المختلفة^(٤). بالإضافة إلى أن الثقيفيين أدركوا تماما إن الالتزام بمبادئ الإسلام والثبات عليها سيمنحهم مستقبلا جيّدا في مدينتهم حيث سينعمون بالأمن

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٣٠.

ابن الأثير : الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٢) ابن حجر : الاصابة، ج ٢، ص ٤٦٠.

محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر، ص ٨٣، طبعة مصر، ١٩٥٨.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٤٢، طبعة دار المعارف.

(٤) انظر ص ٥٠ من هذا البحث وما بعدها.

والأطمئنان وعدم الدخول ثانية في حروب خسروها من قبل ويعنحهم السلطان والمجد وهم التجار الأذكياء^(١). لقد برهنت قبيلة ثقيف من خلال اسلامها أنها لا تقدم على عمل حتى تتأكد منه وتضمن فيه مصلحتها، ولهذا اتصفت القبيلة بقوة الرأي وحسن تقدير الأمور فصار يضرب به المثل. يذكر ابن سعد أنه قيل في حق ثقيف: «لا رأي إلا لثقيف ثبتوا أولا في رأيهم، فلما تحققوا من الإسلام ودخلوا فيه ثبتوا عليه»^(٢). وقال فيهم كذلك: «لا أعلم قوما من العرب بنى أب ولا قبيلة كانوا أصلح اسلاما منهم»^(٣).

من الثابت أن ثقيفا أسلمت ولم ترتد عن الاسلام، لا بل ساهمت واشتركت في حروب الردة بجانب المسلمين، وساهمت بالقضاء على هذه الحركة على مستوى الأفراد وعلى مستوى القبيلة ككل، وأصبحت مدينتها قاعدة تمد جيش المسلمين بما تؤمر به للمساهمة في هذه الحروب وما يحتاجون إليه من مال وسلاح ورجال، وهذا ما كان يدركه الرسول صلى الله عليه وسلم فيها تماما قبل اسلامها عندما قال: «اللهم اهد ثقيفا وآت بهم»^(٤).

ومن أمثلة المساهمة الثقافية في حروب الردة ما كتبه عثمان بن أبي العاص، عامل الطائف آنذاك، إلى الخليفة أبي بكر يعلمه بثبات قومه على الإسلام وركوب من ارتد في أهل عمله، فأمره الخليفة بمقاتلتهم بمن ثبت على الاسلام من قوم وسكان الطائف، فبعث عثمان بن أبي العاص بعثا إلى شنوة، وقد تجمعت فيها جموع المرتدين من الأزدي وبجيلة وخثعم يقودهم حيضة بن النعمان، وعلى أهل الطائف عثمان بن ربيعة الثقفي، والتقى الجمعان هناك، وبعد قتال هزمت جموع المرتدين وتفرقت عن حيضة بعد أن هرب من المعركة^(٥). فقال عثمان بن ربيعة في ذلك شعرا.

(١) لا مانس : مدينة الطائف، ص ٣ وما بعدها. الطبعة الفرنسية.

(٢) ابن سعد : الطبقات، المجلد الثاني، ص ٥٣، طبعة دار التحرير القاهرية.

(٣) ابن سعد : الطبقات، المجلد الثاني، ص ٥٣، طبعة دار التحرير القاهرية.

(٤) الواقدي : المغازي، ج ٣، ص ٩٣٧.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣١٩، ٣٢٠.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٤ - ٣٧٥

فضضنا جمعهم والنقع كاب وقد تعدى على الغدر الفتوق
وأبرق بارق لما التقينا فعادت خلبا تلك البروق (١)

ولقد ساهمت ثقيف مساهمة جماعية على مستوى القبيلة ضد ردة اليمن الثانية
فاشتركت في جيش المهاجر بن أبي أمية والذي خرج من المدينة بتكليف من
الخليفة لمحاربة ردة خثعم في اليمن فربكة والطائف ولديه كتاب من الخليفة أبي
بكر إلى عامل الطائف عثمان بن أبي العاص يأمره بامداد جيش المهاجر برجال
الطائف ومخالفها وحسب المقدرة والظروف، وقد فرض عثمان على كل غلاف
عشرين رجلا بقيادة أخيه عبد الرحمن بن أبي العاص لجدارته وثقته به،
وبانضمام رجال الطائف ومكة ونجران وبقية القبائل الأخرى استطاع هذا
التجمع الإسلامي هزيمة المرتدين وقضى عليهم وعلى فتنهم (٢).

أما في ردة حضرموت وكندة، فقد ساهمت ثقيف بقائدها المغيرة بن شعبة
والذى بعثه الخليفة أبو بكر وأمره بمساعدة المهاجر بن أمية بالقضاء على المرتدين
هناك وقتلهم جميعا إن لم ينصاعوا لأمر الله، وكان المهاجر قد شدد الحصار على
المرتدين من جماعة الأشعث بن قيس في حصن النيجر حتى استسلموا وأخذوا مع
الأشعث أسرى إلى الخليفة، وساعتها هزمت كندة وردتها (٣).

وفي ردة البحرين، استشهد من الثقيفين حبيب بن أسيد بن جارية
بن جارية الثقفي، في الإمامة (٤). وكذلك أخوه حيي بن جارية الثقفي وأبو صفية المهاجر
وغيرهم (٥).

ومن الذين ساهموا من ثقيف ضد المرتدين مالك بن عمرو الثقفي الذى بعثه
الخليفة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - إلى مسيلمة الكذاب لنصحه

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٢٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٢٩ - ٣٣٠.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣٧٥ - ٣٧٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٣٧.

(٤) ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ٣٠٤.

(٥) ابن دريد : الاشتقاق، ص ٣٠٢، طبعة القاهرة، ١٩٥٨.

أنظر إلى الحصن
الذى يسمى النيجر
أبو بكر بن قيس
بن جارية

وامكانية اقناعه بالعدول عن الردة، فخطب في مسيلمة وجماعته خطبة بليغة دعاهم فيها إلى الرجوع إلى الله ونبذ الشرك والوثنية والردة، مما أغضب مسيلمة غضبا شديدا، فهم بقتله فهرب ولم يتمكن منهم^(١).

خلاصة ما تقدم أن قبيلة ثقيف أسلمت متأخرة، لكنها لم ترتد مطلقا. لا بل ساهمت مساهمة فعلية على مستوى الأفراد والقبيلة في دعم وتثبيت دعائم الدولة الاسلامية والاشتراك بالقضاء على المناوئين والمرتدين، وساهمت في وقت كان الإسلام في محنة وبأشد الحاجة لمساهمتها، حيث كانت الأخطار تهدده في وقت أصبح مقصورا على مكة والمدينة والطائف وبنى عبد القيس^(٢). هذا الموقف لثقيف قد برهن للعرب على حسن ظن الرسول بها وان ما منحها من امتيازات في معاهدة الصلح معها كان حقا تستحقه، وتبين مدى بعد نظر الرسول فيها ومكانتها لديه، وبذلك أزال حسد المسلمين لها، وشكوكهم التي كانت تساورهم فيها، وبهذه الوقفة أتاحت لرجالها الفرصة وفتحت لهم الطريق للوصول إلى المراكز الحساسة في الدولة، مما جعلهم يلعبون دورا بارزا فيها، سواء في عهد الراشدين أو في عهد الدولة الأموية. وهذا ماسنراه في فصول قادمة.

(١) ابن حجر : الإصابة، ج ٣، ص ٣٥٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٠١.

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٣٤٥.

دور المثقفين من أهل الطوائف في حركة الفتوح الإسلامية وإدارة الأمصار

ساهمت ثقيف — كما بينا سابقا — في القضاء على حركة الردة، بجانب من أدى دوره في هذه المحنة الصعبة التي واجهت الدعوة الإسلامية ودولتها الفتية. وباندحار المرتدين وانتصار المسلمين عليهم أصبحت الجماعة الإسلامية أشد مما كانت عليه قوة وإيمانا، مما جعلهم يحملون أرواحهم على أكفهم لاعلاء كلمة الحق والجهاد المقدس في سبيل العقيدة الإسلامية، والعمل على مواصلة الجهاد وتبليغ الدعوة إلى الأماكن التي لم تصلها داخل شبه جزيرة العرب والتطلع لنشرها خارج جزييرتهم اتماما للوعد الذي قطعوه على أنفسهم أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ولقد وقف بجانب الدعوة ونشرها الرجال الذين آمنوا بها وثبتوا في إيمانهم، ومن هؤلاء رجال ثقيف المعروفون بشجاعتهم وطموحهم، أمثال المغيرة بن شعبه وعثمان بن أبي العاص وأبى عبيد بن مسعود الثقفي وغيرهم^(١). الذين ساهموا فيما بعد بحركة الفتوح الإسلامية الكبرى مساهمة فعالة أدت إلى نشر الإسلام في أماكن مختلفة خارج شبه الجزيرة، وكذلك مساهمتهم في إدارة الأمصار الإسلامية أيضا.

لم تكن فكرة الفتوح الإسلامية ونشر الدعوة خارج شبه الجزيرة العربية من بنات أفكار شخص أو خليفة معين، بل كانت بداية بدأها صاحب الدعوة ورجلها الأول الرسول صلى الله عليه وسلم حيث بدأها منذ السنة السادسة للهجرة بارسال الكتب إلى الملوك والأمراء فكتب إلى هرقل، أمبراطور الروم، وإلى كسرى فارس، وإلى النجاشي أمبراطور الحبشة، والمقوقس عامل هرقل على مصر، وإلى المنذر بن ساوى أخى عبد القيس صاحب البحرين^(٢). يدعوهم إلى التوحيد والإيمان، ثم محاربته للرومان وحلفائهم من الغساسنة على حدود بلاد

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٤٤.

اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٤٢

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٢١٠ وما بعدها.

الشام لما سخرخوا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه منهم الحارث بن عمير الأزدي الذى ضرب الغساسنة عنقه^(١)، وقتل في مؤتة زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة^(٢). وقد جهّز الرسول، قبل وفاته، حملة لتأمين حدود الدولة الإسلامية الشمالية عقد لواءها لأسامة بن زيد بن حارثة، وكان أسامة حين استشهد أبوه في مؤتة فى الخامسة عشرة من عمره. ولما بلغ الثامنة عشرة عقد له الحملة تكريما لذكرى أبيه ولأخذ ثأر المسلمين الذين قتلوا وتأديب الروم وحلفائهم الذين سخرخوا بالدعوة الإسلامية، وإمكانية نشر هذه الدعوة هنالك^(٣).

ان كتب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء وارساله الرسل إلى البلاد المختلفة وعقد حملة أسامة تعتبر دلالة صريحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام، فقد قال تعالى في سورة سبأ: «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون»^(٤).

فالشاب أن الفتوح قد بدأت فكرتها منذ عهد الرسول وهو الذى بدأها استجابة لنداء الله بنشر الدعوة إلى العالمين، وقد أدت هذه الفكرة إلى استمرار روح الجهاد فى الجماعة الإسلامية من بعده، وقد كانت الحروب درسا بليغا وتدريباً علمياً منظماً للجند الإسلامى الذى لم يتعود على مثلها فى السابق، هذه الحروب التى كانت بداية لدخول الدولة الإسلامية فى الصراع مع اعدائها، ومن هذه الحروب القتال الذى دار فى مؤتة واستشهد فيه بعض الصحابة، إلى أن تمكن خالد ببراعة عسكرية من سحب الجيش وتخليصه من خسارة متوقعة، ولقد كانت مؤتة تدريباً عملياً لهم واثباتاً لقوة عقيدتهم فقد عبأوا الجيش وقسموه إلى

-
- (١) ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ٢٨٦.
 - (٢) اليعقوبي : تاريخ، ص ٦٥.
 - (٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٩.
 - (٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٨٤ وما بعدها.
 - ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٣١٧.
 - (٤) القرآن الكريم : سورة سبأ، آية رقم ٢٧. وكذلك انظر سورة ص، آية رقم ٨٦ - ٨٧. وسورة يس آية رقم ٦٨ - ٦٩.

ميمنة وميسرة وشنوا هجوما صاعقا بسيفه حتى قتل^(١). وان كانت نتيجة هذه الموقعة في غير صالح المسلمين لكنها كانت بداية لصراع طويل مع الروم وقهرهم في النهاية وتحقيق هدف المسلمين بنشر لواء الاسلام في بلاد الشام.

وقبل التطرق إلى دور الثقفين في هذه الفتوح، لابد لنا من استعراض أهم دوافع هذه الفتوح.

دوافع الفتوح العربية الإسلامية :

إن حركة الفتوح الإسلامية كانت ظاهرة تاريخية كغيرها من الحركات التي شهدتها الشعوب قديما وحديثا بعد توحدها أو نهضتها وإصلاح أمرها^(٢). وقد اختلف المؤرخون أو الباحثون وخاصة المستشرقين منهم في تحديد بواعث هذه الحركة فالبعض ردها إلى عوامل اقتصادية تمثلت في رغبة العرب بالتمتع بخيرات البلدان المجاورة التي كانوا يعرفونها بسبب تجارتهم معها كبلاد الشام والعراق^(٣). والبعض الآخر يرى أنها كانت حلا لمشكلات العرب الداخلية الاقتصادية والسياسية والتي تمثلت في توجيه طاقة العرب المطبوعين على حب القتال بعد حروب الردة والقضاء على المرتدين وما نشأ عنها من قوة عسكرية وقتل أعداد كبيرة من المرتدين، فلو بقي العرب في داخل شبه الجزيرة العربية لأفنوا بعضهم بعضا، وخاصة أن البدو منهم لم تعرف حياتهم الاستقرار. لذا كان يخشى الخليفة من هذا الأمر فاتجه نحو استغلال هذه القوة لصالح الدعوة الإسلامية، فكانت الفتوح في الخارج توحيدا وتماسكا للعرب في الداخل^(٤).

أما فيما يخص الرأي الأول الذي يعلل حركة الفتوح بدوافع اقتصادية ويزعم

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦١.

(٣) نفس المصدر، ص ١٦٨، نقلا عن برنارد - العرب في التاريخ، ص ٧٥.

أرنولد : الدعوة إلى الاسلام، ص ٤٦ - ٤٧.

نرومان بنز : الامبراطورية البيزنطية، ص ٥٥.

(٤) جلوب : الفتوحات العربية الكبرى، ص ١٩٢، تعريب خيرى حماد.

فلهوزن : الدولة العربية، ص ٢٣.

أنهم ما قاموا بهذه الفتوح إلا طمعا في خيرات البلاد المجاورة فرأى خاطيء لا يؤيده أي دليل، لأن الحقيقة أن العرب اندفعوا في هذه الفتوح بدافع الايمان بالدين الاسلامي والجهاد في سبيله وشعورهم بأن عليهم مواصلة هذا الجهاد حتى يصير الدين كله لله. وهذا واضح في قول الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : «إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك... سيروا في الأرض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها، فانه قال: (ليظهره على الدين كله)، والله مظهر دينه، ومعزّ ناصره، ومول أهله مواريث الأمم». والآية الكريمة تقول: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير»^(١). وفي كل المعارك التي خاضوها والحملات التي قادوها نجد أن الدافع الديني هو الأول بدليل أنهم كانوا يعرضون على كل بلد يريدون فتحه الإسلام، فاذا قبلوه كانوا أخوة للمسلمين، ومن ثم فلا كسب مالياً يرجى في هذه الحالة. أما إذا رفضوا الإسلام قرّرت عليهم الجزية لكي تكون حافزاً لهم على أن يتخلوا عن عقائدهم القديمة ويدخلوا في دين أولئك العرب الفاتحين، لأن الجزية في الحقيقة لم تكن مجرد مال يدفع، بل كانت اشعاراً بغير المسلم بأنه أقل من الناحية المعنوية والروحية من المسلم، ومن صالحه لذلك أن يرتفع لنفسه من ذل الجزية إلى حرية الإسلام. فقد قال خالد بن الوليد في أهل الحيرة أثناء الفتح: «انى أدعوكم إلى الله وإلى عبادته وإلى الإسلام، فان قبلتم فلکم مالنا وعليکم ماعلینا، وإن أبیتم فالجزية، وإن أبیتم فقد جئناکم بقوم یحبون الموت كما تحبون أنتم شرب الخمر». فقالوا: لا حاجة لنا في حربك، فصالحهم على تسعين ومائة ألف درهم، فكانت أول جزية حلت إلى المدينة من العراق»^(٢).

إن المؤرخين، وخاصة المستشرقين منهم، لم يكن رأيهم إلا استنتاجاً أقاموه على حالة تمت، ونظروا إليها من خلال ما مضى من تاريخ شبه الجزيرة العربية، ومن خلال ما استقرت عليه الأوضاع بعد الفتح، فالجزيرة كانت مركزاً

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٤٥.

القرآن الكريم : سورة الأنفال — آية رقم ٣٩.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٥.

لهجرات كثيرة تمت من قبل القبائل نتيجة الاضطرابات الداخلية السياسية منها والاقتصادية، مثلما حدث من هجرات القبائل العربية في الجنوب والتي لم تكن تدفقا قبليا وغزوا وانما كانت حركات اضطرابية بطيئة استقرت على مشارف البادية^(١).

أما الرأي الثاني والذي يرى أنها كانت حلا لمشكلات العرب الداخلية، الاقتصادية والسياسية فهذا يتناقض تماماً والسياسة التي اتبعها الخليفة أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - تجاه المرتدين، إذ حظر على القبائل التي تمردت المشاركة في حركة الفتوح، ولم يرفع عنها الحظر إلا أيام الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد ذكر الطبري أن أبا بكر قال لخالد بن الوليد: «...أن استنفر من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيي. فلم يشهد الأيام مرتد»^(٢). ثم ذكر الطبري في مكان آخر في كتابه: «فكان أول شيء أحدثه عمر في خلافته مع بيعته بعث أبا عبيد، ثم بعث أهل نجران، ثم ندب أهل الردة، فأقبلوا سراعا من كل أوب، فرمى بهم الشام والعراق»^(٣).

إن الدوافع الحقيقية لحركة الفتوح العربية الإسلامية كانت الرغبة في نشر الإسلام، تنفيذا لأوامر الله الذي دعا المسلمين لنشر دينه بين الناس كافة، وهذا مايتناه في أول الموضوع.

ثم الرغبة في استكمال وضع الدولة العربية الطبيعي، فبعد أن أتمت الدولة وحدتها في الداخل، كان لا بد لها أن تستكمل هذه الوحدة بضم كل العنصر العربي المقيم على تخوم شبه الجزيرة، خاصة أن القبائل العربية في العراق والشام كانت وثيقة الصلة بأحداث شبه الجزيرة العربية^(٤)، ولها الرغبة الأكيدة في تحرير بلادها الواقعة تحت السيطرة والنفوذ الأجبيين كالنفوذ الفارسي

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦٤.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٧.

(٣) المصدر والجزء ذاتها، ص ٤٤٨.

أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦٨.

(٤) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ١٦٦.

والروماني، ودليل ذلك حركة المثنى بن حارثة الشيباني ضد الفرس وطلبه النجدة من الخليفة أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — فقد ذكر الطبري أن المثنى قال: «أمرني على من قبلي من قومي، أقاتل من يليني من أهل فارس، وأكفيك ناحيتي، ففعل ذلك، فأقبل فجمع قومه وأخذ يغير بناحية كسكر مرة، وفي أسفل الفرات مرة»^(١). هذه الحركة العربية تمتد جذورها إلى أبعد من ذلك إلى موقعة ذي قار وانتصار العرب على الفرس، أملا في التخلص من السيطرة الأجنبية على بلادهم، فقد ذكر اليعقوبي بأن كسرى الفرس وجه إلى هانيء بن مسعود الشيباني جيشا عندما رفض تسليمه ابنة النعمان وماله وسلاحه الذي كان قد أودعه النعمان بن المنذر عنده قبل توجهه إلى كسرى... فذكر «أن اجتمعت ربيعة، وكانت وقعة ذي قار، فزقت العرب العجم، وكان أول يوم ظفرت به العرب بالعجم. ويروى عن رسول الله أنه قال: هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبى نصر»^(٢). وقد وقعت في السنة الثانية للهجرة بعد وقعة بدر بأربعة أشهر أو خمسة^(٣).

ومما سبق، يتضح لنا أن الفتوح الإسلامية كانت حركة تحرير وتوحيد للمقبائل العربية في العراق والشام، فالدافع كان قوميا وسياسيا، بجانب الدافع الديني الأقوى^(٤).

ولهذا كان تجهيز الجيوش وإرسالها خارج الجزيرة في أيام أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — استمرارا للسياسة التي رسمها الرسول صلى الله عليه وسلم منذ العام السادس للهجرة والتي تمثلت في إرسال الكتب إلى الأمراء والملوك وغزوتي مؤتة وتبوك وتجهيز جيش أسامة كما بينا سابقا أيضا.

وهكذا نجد أن حركة الفتوح كانت في أعقاب حركة الردة أو في نهايتها، فقد بدأت حركة المرتدين ولم تكن قد انتهت، حيث أمر خالد بن الوليد بالتوجه

(١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٤.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، ج ١، ص ٢١٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٦.

(٤) أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ١٧٤.

إلى العراق وهو لا زال باليامة^(١). ثم كتب أبو بكر إلى عماله في مكة والطائف واليمن وعرب نجد والحجاز يستحثهم على الجهاد والمساهمة فيه، ويعدّهم بما للجهاد من أجر وثواب ويرغبهم بالغنائم والمكاسب الرومية والفارسية. فقد ذكر البلاذري: «لما فرغ أبو بكر رضي الله عنه من أمر أهل الردة، رأى توجيه الجيوش إلى الشام، فكتب إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب وطامع، وأتوا المدينة من كل أوب»^(٢).

وبذلك سيرت الجيوش إلى العراق والشام ولم تشهد بدايتها أية مساهمة من المرتدين إلا بعد وفاة أبي بكر ومجيء الخليفة عمر بن الخطاب، واستمرت جيوش الإسلام تقاتل وتفتح وتنشر الإسلام في خلافتي عمر وعثمان رضي الله عنهما، ولم تتوقف إلا في خلافة علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، بسبب ما رافق عهده من اضطرابات وفتن داخلية، خاصة النزاع بينه وبين معاوية بن أبي سفيان.

دور الثقفين في الفتوح الإسلامية :

اشترك الثقفيون في حركة الفتوح الإسلامية وساهموا مساهمة فعالة فيها، قبيلة وأفراداً، بجانب اخوانهم المسلمين. ففي فتوح الشام سنة ثلاث عشرة^(٣)، اشتركوا مع أهل المدينة ومكة وبقية المناطق الأخرى في شبه جزيرة العرب، وساهموا مع جيوش أبي عبيدة وعمرو بن العاص^(٤). ففي معركة اليرموك اشترك المغيرة بن شعبة فيها وقد أصيبت عينه في المعركة^(٥). واستخدم عبد الله بن مسعود بن معتب الثقفي على قيادة أحد الكراديس الحربية التي اشتركت في المعركة، وأغلب

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٣.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٨٧.

ابن الأثير : الكامل ج ٢، ص ٤٠٢.

(٤) الواقدي : فتوح الشام، ص ٨، ١٠، ٢٤.

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٨٤ - ٢٨٦.

جنوده كانوا من أفراد قبيلته^(١). ويذكر الطبري وابن الأثير أن عبد الله بن مسعود الثقفي كان على الأقباض، أى على ما جمع من الغنائم^(٢). واستشهد نافع بن غيلان بن سلمة الثقفي في دومة الجندل مع من شهدا من ثقيف وكان ومن معه من ضمن جيش خالد بن الوليد وقد بكاه أبوه غيلان كثيرا وجزع عليه^(٣). وتوفي عامر بن غيلان الثقفي في طاعون عمواس وكان هو وأخوه عمار قد التحقا بجيش خالد المتجه إلى الشام، وكان عمر فارس ثقيف يومئذ، وقد رثاه أبوه غيلان في موته^(٤).

وفي فتوح العراق، اشتركت ثقيف أفرادا وجماعات، مع جند الاسلام الذى حارب على هذه الجبهة الهامة، منهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي، وهو أول من انتدب للحرب من قبل الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — بعد أن دعا عمر لهذه الحرب في اليوم الرابع من خلافته سنة ١٣ للهجرة، ثم تتابع الناس معه حتى اجتمع ألف رجل من المدينة وما حولها، أكثرهم من ثقيف، وقد خرج أبو عبيد مع أهله في هذا الجمع من المسلمين، وقد هزم جيش الفرس في صحراء (ملس) التابعة لكسرك، وغنم كثيرا من الغنائم واستولى على خزائن (نرسي) وهو ابن خالة كسرى وأخذ من أهلها الجزية^(٥). ثم هزم الجالينوس في بباقيثا من أعمال باروسا واستولى على تلك البلاد ثم ارتحل حتى قدم الحيرة^(٦).

= ابن حجر : الإصابة، ج ٣، ص ٤٥٢ — ٤٥٣.

الأصفهاني : الأغاني، ج ١٦، ص ٧٩.

(١) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٨.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٩٧.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤١٢.

(٣) ابن حجر : الإصابة، ج ٣، ص ٥٤٦.

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ٩٠.

ابن حجر : الإصابة، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٠ وما بعدها.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٦.

أحمد كمال عادل : الطريق إلى المدائن، ص ٣٧٩ — ٣٩٠ — ٣٩٢.

(٦) ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٣٧.

أحمد كمال عادل : الطريق إلى المدائن، ص ٣٩٥ — ٣٩٧.

وبانتصارات أبى عبيد على الفرس غضب رستم، قائد الجيش، فجهز جيشا كبيرا أشرك فيه بهمن جاذويه والجالينوس نفسه فكانت معركة الجسر التي قتل فيها أبو عبيد بعد أن داسه الفيل وبرك عليه، ثم قتلت الفيلة سبعة من المحاربين الأشداء وكلهم من ثقيف وهم القادة الذين أوصى بهم أبو عبيد قبيل وفاته حتى أخذ الراية المشنى بن حارثة وانسحب بالناس^(١). وفي غمرة هذه الأحداث قطع عبد الله بن مرثد الثقفي الجسر على المسلمين، قائلا: أيها الناس، موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا^(٢). لقد كان لقطع الجسر أثر في موت الكثير من المسلمين غرقا في نهر الفرات. ومن الذين أبلوا في المعركة واتصف بالشجاعة والاقدام أبو محجن الثقفي الذي هاجم الفيلة وضرب أحدها وقطع رجله، وكان رجلا لا يهاب الموت في سبيل الله والعقيدة^(٣). أما من قتل في معركة الجسر من ثقيف فهم: أبو عبيد بن مسعود الثقفي وحبيب بن ربيعة بن عمر الثقفي والحكم بن مسعود أخو أبى عبيد الثقفي وابنه جبر بن الحكم بن مسعود الثقفي وأوس بن أوس بن عتيك الثقفي وأخوه ثابت بن عتيك الثقفي، لقد قاتل هؤلاء قتالا كبيرا، اخلاصا لله والدين، ولم يكن هؤلاء فقط، بل استمات الثقيفيون في المعركة واستشهد منهم عدد كبير بلغ الثلاثمائة مقاتل في المعركة^(٤). وكانت وقعة الجسر يوم السبت في آخر شهر رمضان سنة ثلاث عشرة^(٥).

لقد صعب على ثقيف مقتل قائدها وفارسها أبى عبيد تحت أرجل الفيلة الفارسية فحنقت على الفرس وحققت عليهم، تريد الانتقام منهم في فرصة سانحة. لذا ساهمت واشتركت في فتوح البصرة مع عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة فشهدت فتح الأبله بعد شهر من وصولهم إلى البصرة برجالها: أبى بكرة

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٤٣٨ - ٤٣٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٤٣٩.

الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٤ - ٤٥٧.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ج ٣، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٥٤ وما بعدها.

ابن الأثير: الكامل، ج ٢، ص ٤٣٩ - ٤٤٠.

ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٨، ٥٠.

ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٢٢١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٣٠٩.

الشفقي الذى قتل ستة رجال من الكفار ونافع بن الحارث الذى قتل تسعة والمغيرة بن شعبة وربيعه بن كلدة ابن أبى الصلت الثقفي، وبعد الفتح بعث نافع بن الحارث إلى الخليفة يعلمه بالفتح ويبيّنه بالانتصار، وهذا يدل على ما لنافع من أهمية ومركز في جيش عتبة بن غزوان وقتذاك. أما غنائم الأبله فبلغت ستمائة درهم، وقد تولى زياد بن أبيه الثقفي، وهو يومها ابن أربع عشرة سنة تقسيمها لأنه كان يعرف القراءة والحساب، لقاء درهمن عن كل يوم يعمل فيه، وكان فتح الابله في رجب أو شعبان من سنة أربع عشرة للهجرة. وقد ولي عتبة بن غزوان إمارة البصرة سنة خمس عشرة ومدة إمارته كانت ستة أشهر وهو أول أمير تولى هذا المنصب فيها^(١).

لقد ساهم المغيرة مع عتبة بن غزوان في فتح ميسان ودستميسان وإبرقباد والأهواز ومنطقة نهر تيرى ومناذر^(٢). وقد استعمل الخليفة عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة على البصرة بعد وفاة عتبة بن غزوان سنة خمس عشرة وبقي فيها سنتين ثم استبدل بأبى موسى الأشعري سنة سبع عشرة^(٣). واستعمله سعد بن أبى وقاص مفاوضا بينه وبين الفرس قبل المعركة القادسية لقوة شخصيته وقدرته على المناقشة وجراته وإقدامه حتى وقوع الحرب، وقد كان فعلا أهلا لهذه المهمة، فقد ذكر الطبري هذه المحاورة، ونحن هنا نقتطف جزءا منها:

قال رستم: «إنكم معشر العرب كنتم أهل شقاء وجهد، وكنتم تأتوننا من بين تاجر وأجير ووافد، فأكلتم من طعامنا، وشربتم من شرابنا، واستظللتم من ظلالنا، فذهبتُم فدعوتُم أصحابكم، ثم أتيتُمونا بهم، وإنما مثلكم مثل رجل كان له حائط من عنب فرأى فيه ثعلبا واحدا، فقال: مائعلب واحد؟. فانطلق الثعلب فدعى الثعالب إلى الحائط فلما اجتمعن فيه جاء الرجل فسد الجحر الذى دخلن

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٠ وما بعدها.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٤٨٥ وما بعدها.

ابن حزم : الجمهرة، ص ٢٦٠.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٥ - ٥٩٦.

المصدر ذاته، ج ٤، ص ٧٢ - ٧٤.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٧.

منه، ثم قتلهن جميعا وقد أعلم أن الذى حملكم على هذا معشر العرب الجهد الذى أصابكم، فارجعوا عنا عامكم هذا، فانكم قد شغلتمونا عن عمارة بلادنا، وعن عدوتنا، ونحن نوفر لكم ركائبكم قححا وتمرا، ونأمر لكم بكسوة، فارجعوا عنا عافاكم الله..»

فقال المغيرة بن شعبة: «لا تذكر لنا جهدا إلا وقد كنا في مثله أو أشد منه، أفضلنا في أنفسنا عيشا الذى يقتل ابن عمه، ويأخذ ماله فيأكله، نأكل الميتة والدم والعظام، فلم نزل كذلك حتى بعث الله فينا نبيا، وأنزل عليه الكتاب، فدعانا إلى الله وإلى مابعثه به، فصلى منا مصلق، وكذبه منا آخر، فقاتل من صلى منا من كذبه حتى دخلنا في دينه، من بين موقن به، وبين مقهور، حتى استبان لنا أنه صادق، وأنه رسول من عند الله. فأمرنا أن نقاتل من خالفنا، وأخبرنا أن من قتل منا على دينه فله الجنة، ومن عاش ملك وظهر على من خالفه، فنحن ندعوك إلى أن تؤمن بالله ورسوله، وتدخل في ديننا، فإن فعلت كانت لك بلادك، لا يدخل عليك فيها إلا من أحببت وعليك الزكاة والخمس، وإن أبييت ذلك فالجزية، وإن أبييت ذلك قاتلناك حتى يحكم الله بيننا وبينك» (١).

إن هذا الحوار بين المغيرة ورسم يبين لنا مدى تفانى العرب في سبيل نشر الإسلام والتضحية في سبيل العقيدة ودفاعهم عنها في أشد المواقف حرجا، وهذا يفسر لنا قوة الايمان بدينهم والثقة العالية بنصرهم. كما ساهم في فتوح المشرق مع النعمان بن المقرن، فاشتراك في معركة نهاوند سنة ٢٠ للهجرة، وفي فتح اذربيجان سنة ٢٠ للهجرة، واشترك أيضا في فتح همدان سنة ٢٣ للهجرة (٢). وقد شاركت المرأة الشقفية المسلمين في الحرب بجانب الرجل فقد أوهمت أردة بنت الحارث بن كلدة الشقفى ونساء أخريات من ثقيف اتخذن من خارهن رايات فأوهمن العدو بأن جيشا كبيرا ومددا طويلا للمسلمين مقبل عليهم، وبذلك خارت عزائمهم وانكشفوا ودبت الهزيمة في صفوفهم وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٧٤.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٧١، ٣٨٠، ٤٠٠.

خلقا كثيرا وانتصروا عليهم وكان ذلك في قتال أهل ميسان^(١). ويذكر البلاذري بأن أسماها أزد بن الحارث بن كلدة وهي زوجة عتبة بن غزوان، وقد كانت تقوم بتحريض المسلمين على القتال وهي تقول «إن يهزموكم توجوا فينا الغلف»^(٢). وفي خلافة الخليفة عثمان بن عفان ولي المغيرة قيادة جيش المسلمين لمقاتلة ملك الحزير بدلا من عثمان بن حذيفة الذي نحى عن مهمته^(٣).

ولم تقتصر مشاركة أبي محجن الثقفي على حرب الجسر فقط، بل شارك مشاركة فعالة في حرب القادسية، وكان يومها مسجوناً في قصر سعد لشربه الخمر، فلما التحم الجمعان ورأى أبو محجن ذلك وهو ينظر من قصر العذيب الذي كان مسجوناً فيه قال:

كفى حزنا ان تروى الخيل بالقنا وأترك مشدودا على وثاقيا
إذا قت عناني الحديد وأغلقت مصاريع دونى لاتجيب المناديا
وقد كنت ذا مال كثير واخوة فمقد تركونى واحدا لا أخاليا

وبذلك تآقت نفسه للحرب وروحه للتضحية والفداء وعزّ عليه أن لا يشارك المسلمين حربهم ضدّ الأعداء، فكلّم زبراء التي كان مسجوناً عندها وهي أم ولد سعد بن أبي وقاص وطلب منها إطلاق سراحه ووعدّها بعهد الله وميثاقه أن يعود إلى سجنه بعد الحرب، فأطلقت سراحه وأعطته فرس سعد، فشّد على الأعداء وسعد ينظر لا يدري من هو المحارب. وبعد القتال وهزيمة جوع الفرس عاد أبو محجن إلى سجنه وعندما علم سعد به وباخلاصه وتضحيته وشجاعته أطلق سراحه من السجن^(٤).

أما في فتوح مصر، فقد اشترك الثقفيون في جيش عمرو بن العاص وكان

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٦.

(٢) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٢١.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٨.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٧٥.

ذلك سنة ٢٠ للهجرة^(١). وشاركوا فيها مشاركة فعالة، منهم حبيب بن أوس الشقفي الذي اختط داراً لثقيف ضمن خطط القبائل الأخرى، فقد كانت خطة أهل الراية من قریش والأنصار وثقيف وغيرها من القبائل، وسميت دار ثقيف بدار أبي عرابة، وكان حبيب بن أوس، سيد ثقيف في جيش عمرو بن العاص، وعليه نزل يوسف بن الحكم ومعه ابنه الحجاج أثناء قدومهما مع مروان بن الحكم إلى مصر. وكانت دار بني ثقيف هناك في منطقة يقال لها منطقة السراجين في ركن المسجد الشرقي^(٢).

أما عثمان بن أبي العاص الثقفي، عامل الطائف، في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والذي أضيفت إليه ولاية البحرين وعمان في عهد الخليفة عمر - رضي الله عنه - فقد ساهم في فتح الجزيرة وأرمينية وأخذ من أهلها الجزية^(٣)، وكان ذلك سنة ٢٣ للهجرة^(٤). ويذكر البلاذري أن عثمان بن أبي العاص ساهم في فتح فارس بعد أن عبر البحر ونزل «توج» ففتحها وبني فيها المساجد وجعلها داراً للمسلمين وأسكن فيها بني عبد القيس وغيرهم، واتخذوها قاعدة للانطلاق والاغارة على أرجان والمدن الأخرى، وكان ذلك في سنة ١٣ للهجرة على عهد أبي بكر^(٥). وكذلك ساهم في فتح كازون والتوبندجان وهما من أعمال سابور، وكذلك ساهم مع أبي موسى الأشعري في فتح أرجان وصالح أهلها على الجزية والخراج، وساهم كذلك في فتح شيزار وستيز وترك أهلها يصلحونها ويزرعونها بعد أخذ الخراج منها. كما ساهم في فتح جنابا بامان ثم دار بجر وكان عليها الهربذ وكذلك أرض جهرم وهي كلها في أرض فارس، وقد

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٥٤.

ابن الأثير : الكامل، ج ٢، ص ٥٦٤.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، ص ١٥٣.

ابن دقاق : كتاب الانتصار، ص ٣، ٩.

ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ٣٠٤.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤.

ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٧٦.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٥٧.

(٥) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٣٤.

فتحت سنة ١٩ للهجرة^(١). وفي سنة ٢٣ هـ فتح سابور وصالح أهلها على الجزية، وفي سنة ٢٦ للهجرة نقض أهل سابور الصلح وغدروا بالمسلمين وصلحهم ففتحها عثمان بن أبي العاص مرة أخرى عنوة سنة ٢٦ هـ^(٢). ثم فتح اصطخر سنة ٢٧ هـ ثم قضى على فتنة اصطخر الثانية سنة ٢٨ هـ^(٣). كما ساهم أخوه الحكم بن أبي العاص الثقفي في عدة فتوحات، منها فتح راشهر عنوة وقد أبلى هو وصحبه بلاء شديدا في هذه المعركة^(٤).

والسائب بن الأقرع الثقفي الذي رشحه أبو موسى الأشعري — صهره لفتح الصيمرة، مدينة مهرجا قذف، قرب نهاوند، في أرض فارس وصالح أهلها على الجزية ثم فتح الكور كله وأخذ من أهله الجزية والخراج^(٥).

وفي فتح طبرستان سنة ٣٠ هـ، استشهد في معركتها محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي. أما في فتح خراسان فقد اشترك عبد الله بن عقيل الثقفي في هذا الفتح^(٦). وكذلك ممن اشترك من الثقفيين مع جند الاسلام جبير بن حية بن مسعود الثقفي ابن عم المغيرة بن شعبة، وكان معلما للقرآن الكريم ثم كاتباً في الديوان في عهد عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ثم ولي أصبهان في عهد زياد بن أبيه ولم يمت إلا في عهد عبد الملك بن مروان^(٧).

ولم يؤخذ على ثقيف والثقفين في الفتوحات سوى ما أورده ابن كثير في رواية له منقولة عن شهد حرب القادسية بأن رجلا من ثقيف قد ارتد عن

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٧٦ — ٤٧٨.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٥.

البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٧٩.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٧٦ — ١٧٧، ٢٥٧.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٧٧.

ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٧٧.

ابن الأثير : أسد الغابة، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٦) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٦٧، ٢٧٠.

(٧) ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ٢٢٥.

الاسلام ولحق بالفرس وأخبرهم مواطن الضعف في جيش المسلمين، خاصة على الجناح الذي اشتركت فيه قبيلة بجيلة في الحرب بقصد تثبط عزائمهم وتخويفهم، وبالتالي إلحاق الهزيمة بهم^(١). لكن هذه الرواية كسابقاتها من الروايات التي نسبت ثقيفا إلى ثمود أو جعلتهم من نسل ثقيف الذي كان عبدا للنبي صالح وغيرها، وهذه روايات وضعت على ثقيف من باب التشهير بالثقيفين وبغضا لرجالهم أمثال الحجاج الذي عرف بقسوته وشدة وزياد بن أبيه الذي اشتهر بولائه للأمويين^(٢). وحتى لو صحت هذه الرواية على أبعد الاحتمالات، فإن خروج رجل وخيانتته للمسلمين من ثقيف لا يعنى خيانة القبيلة كلها، ولكل قاعدة شواذ.

ولقد أمتد دور الثقيفين إلى المساهمة في تخطيط وبناء المدن التي اتخذت كقواعد للمسلمين، آنذاك، فن الذين اشتركوا في تخطيط الكوفة السائب بن الأقرع الثقفي والذي اختط لثقيف ما بين الماء إلى دار الإمارة وكان لها وجود كبير في البصرة^(٣). أما أبو بكرة الثقفي فهو أول من غرس النخل في البصرة وشارك في بنائها وكذلك نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وزياد بن أبيه^(٤).

ومن هذا كله يتبين لنا دور ثقيف في حركة الفتوح الإسلامية ومساهمتها فيها مساهمة فعالة، سواء في الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب في شبه جزيرة العرب وخارجها، إلا أن دور القبيلة لم يظهر ككل، بل على هيئة أفراد، قواد وجنودا، وهذا يعود إلى أن المصادر الإسلامية المتقدمة لم تذكر القبيلة ككل، بل اكتفت بالإشارة إلى القواد والأفراد البارزين فقط.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٧، ص ٤٥.

(٢) جواد علي: العرب قبل الاسلام، ج ٤، ص ٢١٠.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، مجلد ٤، ص ٤٩٢.

صالح العلي: التنظيمات الاجتماعية، ص ٣٨.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، المجلد الأول، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

ابن الأثير: أسد الغابة، ج ٥، ص ٨.

الزركلي: الاعلام، مجلد ٤، ص ٧٣.

دور الثقيين في إدارة الأمصار الإسلامية :

لم تشهد منطقة الحجاز إدارة الدولة المنظمة إلا بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، حيث وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أول تنظيم للدولة الإسلامية في المدينة، فبنى المسجد واتخذ مكانا لتأدية فروض الدعوة من جمعة ولإدارة شؤون المسلمين وتنظيمهم ووضع أول دستور لهم (الصحيفة) من جهة أخرى. إلا أن انشغال المسلمين في عهد الرسول بأمور الدعوة ومقاومة معارضيها شغلهم عن التنظيمات الإدارية الموسعة، لذا أخذت هذه التنظيمات في عهدي الرسول وأبى بكر صفة البساطة وعدم التعقيد. وفي بداية الفتوحات الإسلامية بنيت المعسكرات في البصرة والكوفة والفسطاط واتخذت هذه المعسكرات كقواعد عسكرية للانطلاق إلى البلاد الأخرى التي فكر العرب في فتحها ونشر الدين الإسلامي فيها كبلاد ماوراء النهر والسند وأفريقيا ومناطق الدولة الرومانية في الشمال الأفريقي. ثم مصرت الأمصار منذ سنة ١٤ للهجرة^(١)، وقد رأى عمر بنظرة البعيد أن العرب إذا نزلوا في المدن الفارسية فقدوا مزايا الصحراء وأخلاق العروبة وغلب عليهم الترف وأضعفتهم الحضارة لذا فقد أحب الخليفة أن يقيم للعرب مدنا جديدة، يعيشون فيها مثل عيشتهم في الجزيرة فتكون لهم كثكنات الجيش، يبقون فيها أبدا جندا مستعدين للجهاد في سبيل الله كلما دعاهم داعية ويحفظون فيها عروبتهم وخلالهم فأنشأ لهم الكوفة والبصرة فبنيت الدور وفتحت المحلات واستقر الجند وكثرت الأموال وتوسعت الدولة^(٢). وظهرت الإدارة المنظمة والدواوين في خلافة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — أيضا حين كثرت

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٢٤١.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٥٩٠.

يذكر اليعقوبي أن البصرة بنيت سنة ١٤هـ والكوفة سنة ١٧هـ، بينما يذكر ياقوت أن البصرة مصرت سنة ١٤هـ والكوفة بعدها بستة أشهر.

اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٤٣، ١٤٩ - ١٥٠.

ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٤.

(٢) علي الطنطاوي : أخبار عمر، ص ١٢٩.

الأموال وتوسعت الفتوحات وأصبحت الدولة بحاجة ماسة لها وكان ذلك سنة ٢٠ للهجرة^(١).

لقد ساهم الثقفون في إدارة الأمصار التي بنيت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — ولربما لعبت الأسباب دورها في هذه المساهمة منها معرفة الثقفين بالناحية الحضارية منذ العصر الجاهلي الأخير، حيث اتصلوا بالعالم الخارجي عن طريق التجارة، سواء بشكل مباشر أو اشتراكهم مع قوافل قریش التجارية ولا سيما أن بلادهم كانت مخزناً للغلال المصدرة وبعض الصناعات المطلوبة كصناعة الأدم. لذا، فإن اطلاعهم على أحوال البلاد الأخرى وحضارتها واقتباس ما يمكن اقتباسه من الفرس والروم جعلهم يحتلون المرتبة الثانية بعد أهل مكة في هذا المضمار^(٢).

كما كان ثبوتهم على الإسلام وعدم ارتدادهم ومساهماتهم في قمع حركة الردة واشتراكهم في الفتوح اشتراكاً فعلياً سبباً في تقريب الخلفاء لهم، لاعتمادهم عليهم. وبالفعل أثبت الثقفون جدارتهم وحسن ظن الخلفاء بهم سواء في حروب الردة أو الفتوح فعينوا ولاية للأمصار الإسلامية المفتوحة، حيث لم يكن هناك فصل بين الوظائف المدنية والعسكرية في ذلك الوقت وإلى وقت طويل بعد ذلك، فكان الوالي حين يصدر قرار تعيينه يصبح هو القائد وهو الإداري وهو إمام الصلاة في وقت واحد، وإمامة الصلاة هي رمز الرياسة الدينية والمدنية^(٣).

ومن الولاة الثقفين عثمان بن أبي العاص الثقفي الذي ولي إدارة الطائف منذ اسلامها، واستمر بمنصبه في خلافة أبي بكر — رضي الله عنه — وفي عهد عمر أضاف إليه ولاية البحرين وعمان سنة ١٥ للهجرة^(٤). ويذكر ابن حجر أن

(١) البعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٥٣.

ابن الطقطقا : الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٨٣ — ٨٤.

(٢) الرسالة ذاتها، ص ٤٣. هامش رقم (٣) وص ٤٥، هامش رقم (١) وص ٧٨ هامش رقم ٤،

٥.

(٣) الكندي : الولاة والقضاة، ص ١٠ — ١١.

فلهوزن : الدولة العربية، ص ٢٥ — ٢٦.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٩٩ — ١٠٠.

عثمان بن أبي العاص ولّى أخاه الحكم بن أبي العاص على إمارة البحرين عند توجهه إلى البصرة بأمر الخليفة عمر بن الخطاب^(١). وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان أخذت داره بالمدينة وأعطى بدلا منها أرضا بالبصرة وهي الأرض المعروفة بشط عثمان حيال الأبلّة فكانت سبخة فأصلحها وعمّرها، واليه ينسب باب عثمان بالبصرة ومات فيها^(٢).

وقد بدأ عمر في عهده بعملية فصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية، ضمّانا لتحقيق العدالة حين صار يعين قاضيا في العاصمة بجانب الوالي فيها منهم أبو الدرداء في دمشق واسمه عويمر بن يزيد بن قيس بن عدى^(٣)، وكان القاضي يقوم مقام الأمير في غيابه^(٤). وقيس بن أبي العاص السهمي الذي ولي القضاء في مصر وهو أول قاض قضى في الإسلام بمصر^(٥). وأبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس بن سليم صاحب التوصية التي أوصى بها عمر بالقضاء وشروطه فقد ذكر الماوردي أن عمر قال: « القضاء فريضة محكمة وستة متبعة، فافهم إذا أدلي إليك، فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له وآس بين الناس في وجهك، وعدلك، البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حراما أو حرّم حلالا، ولا يمنعك قضاء قضيتته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فان الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل، الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب الله تعالى ولا ستة نبيه ثم أعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور بنظائرها، وأجعل لمن ادعى حقًا غائبًا أو بينة أمرا ينتهي إليه، فن أحضر بينة أخذت له بحقه.. وإلا استحلت القضية عليه، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودا في حدّ أو مجرّبا عليه شهادة زور أو ظنينا في ولاء أو نسب، فان الله عفا عن الايمان ودرأ بالبينات، وإياك والقلق

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٤٣٢.

(٣) ابن حزم: الجمهرة، ص ٣٦٢.

(٤) ابن حجر: الإصابة، ج ٤، ص ٥٩ - ٦٠.

(٥) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٢٥٤.

والفجر والتأفف بالخصوم، فأث الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ومحسن به الذكر، والسلام»(١).

وكان دستور المسلمين في القضاء القرآن والسنة النبوية الشريفة، وتوصيات الخلفاء للقضاة بضرورة سياسة الناس بالعدل، كما جاء في وصية عمر السابقة، وكان الخليفة عمر - رضي الله عنه - إذا شك شخص أحد عماله جمع بينه وبين من شكاه تحقيقاً للعدالة، وهو أول من راقب عماله مراقبة شديدة وحاسمهم محاسبة دقيقة كي لا يستغل هؤلاء العمال ولاياتهم وشعوبهم، وكانت رغبته شديدة في التنقل بالأمصار ليطلع بنفسه على أمورهم واحتياجاتهم وما يتطلب ذلك من إصلاح للرعية(٢). بالإضافة إلى مراقبته لأحوال الناس والأسواق وأمورهم والتطلع عليها وتفقد أحوالهم بنفسه.

لقد اتصفت الإدارة في عهد عمر - رضي الله عنه - بالاعتماد على العنصر العربي لأنه لم يكن من سبيل لتعيين غيرهم، وكان شرط الولاية عنده، السابقة في الإسلام والكفاية في العمل، لأنه اختار ولايتهم من كان يوصف بالخبرة والكفاءة والمقدرة خلال حياته، لأنه - رضي الله عنه - كان يدرك أن ذلك سوف يمكنهم من النجاح في البلاد المفتوحة وتأدية واجباتهم دون أن يصابوا بنكسة في وقت كانت الدولة بحاجة للنجاح والتقدم، فمن ولاته الكفاء سفيان بن عبد الله الثقفي على الطائف وعلى صنعاء يعلى بن منبه، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبي العاص(٣). ولقد ساهم الشقفيون في تلك الإدارات مساهمة فعالة واشتركوا في معظم أوجه النشاط الإداري والاقتصادي والاجتماعي هذه المساهمة التي أدت إلى ردود فعل إيجابية لصالح الأمصار الإسلامية والدولة ككل.

فلقد ساهم المغيرة بن شعبة في إدارة الأمصار التي ولي عليها كالبصرة والكوفة وهو أول من ساهم في وضع الديوان في البصرة(٤). وفي خلافة عثمان بن عفان

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٧١ - ٧٢.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٥، ص ١٨.

(٣) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣١٤.

ولاية أرمينية وأذربيجان ثم عيّن بعده القاسم الثقفي^(١). ثم ولي الكوفة سنة ٤١هـ وبقي فيها حتى مات. أما السائب بن الأقرع الثقفي فقد ولي أصبهان وتابعها سنة ٢٤ للهجرة^(٢).

أما نافع بن الحارث الثقفي وأبو بكر الثقفي فقد اشتركا في إدارة البصرة وساهما في أوجه النشاط المختلفة فيها، فشجعا على الزراعة فيه، وأعلما الناس بخصب أرضها وضرورة استغلالها^(٣). ونتيجة لهذه المساهمة فقد صارت لهم دور فيها وأموال واقطاعات تسمى باسمهم، فكانت أول دار بنيت بالبصرة هي دار نافع بن الحارث الثقفي الذي منحه الخليفة عمر - رضي الله عنه - أرضا بالبصرة، وهو أول من اقتنى الإبل هناك، ثم دار للمغيرة بن شعبة ودار للدمون الطائفي وأبو بردة الذي اشترك في فتوح مصر وكانت أمه بنت الدمون الثقفي وربيعة بن أبي الصلت الذي اشترك في تخطيط البصرة، وزهير بن عثمان الثقفي وهو صحابي وله دار بالبصرة^(٤).

أما الحياة الاجتماعية فقد شاركوا فيها - فهم كما عرفناهم سابقا لا يأنفون أعمال الصناعة والزراعة والتجارة، مهما كان نوعها، فلقد مارسوا في البصرة الأعمال الشعبية كبناء وإدارة الحمامات الشعبية، فكان هناك حمام لعبد الله بن عثمان بن أبي العاص وحمام لمولى زياد بن أبيه وحمام لمسلم بن أبي بكر^(٥). ولم تكن البصرة وحدها مسرحا لنشاطهم التجاري والصناعي، فلقد كانت لهم في الكوفة أيضا ومن الذين اشتغل بالتجارة والزراعة الحجاج بن عتيك الثقفي، وكذلك تشابهت لهم مثل هذه الأعمال في الأهواز وغيرها^(٦).

= الأصفهاني : الأغاني، ج ١٦، ص ٨٠.

(١) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٢٤١.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ١٤١، ٤٢٢.

البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٨٣.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٢١.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٢١ وما بعدها.

ابن حجر : الإصابة، ج ١، ص ٣٤٢.

(٥) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٤.

(٦) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٣٤٠.

وخلصا ما تقدم، أن الشقيين من أهل الطائف، أفرادا وجماعات، ولاية وقوادا، قدموا للدولة خدمة لا تنكر وأدوا دورهم بنجاح تام وبمسئولية كاملة فبنوا المساجد وجمعوا الخراج والجزية وأداروا الولايات التي عينوا فيها إدارة ناجحة وأدوا ما عهد به إليهم من أعمال بعناية تامة، فكانوا يستحقون كل ما أسند إليهم من مناصب ومراكز عليا في الدولة مكنتهم من تعويض ما فاتهم بسبب تأخر إسلامهم.

الفصل الثاني

موقف ثقيف من الصراع على السلطة حتى قيام الدولة الاموية

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ١١ للهجرة، تعرّضت الدولة الاسلامية للصعاب، وتوالت عليها المحن، وكادت أن تقضي عليها بعد أن تضعفها وتعود بالعرب والمسلمين إلى ما كانوا عليه في العصر الجاهلي الأخير.

وأول ماتعرّضت له هو رئاسة الدولة (الخلافة) ومن سيخلف الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. وكنتيجة لذلك انقسم المسلمون إلى فريقين: مهاجرين وأنصار. وبينها دار نقاش انتهى إلى تقرير الخلافة في المهاجرين من قريش، وخلف أبو بكر - رضي الله عنه - في رئاسة الدولة الجديدة. وثانيها محنة الردة حيث الارتداد والفتن التي كادت تؤدي إلى العصف بكيان الدولة، لولا الموقف الحازم الذي وقفه الخليفة الأول أبو بكر - رضي الله عنه - في تصفية هذه المشكلة والقضاء عليها نهائياً، وهذا ما بيناه سابقاً.

لقد بينّا سابقاً، موقف ثقيف من الردة والفتوح وإدارة الأمصار الاسلامية، وبقي لنا ان نبين موقفها من صراع السلطة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهل انحازت لجهة ضد أخرى؟ أم وقفت موقفاً محايداً منها؟ أم كانت ضدها؟.

من الثابت لدينا أن ثقيفا دخلت الاسلام متأخرة، لذا فهي ليس لها فضل السبق فيه، كما لم يكن أحد من ثقيف ضمن المهاجرين والأنصار، أو من الذين ساعدوا الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته في أي موقف من المواقف.. سوى ما كان يربطها من صلة القرابة بالرسول وكذلك بالعديد من بطون قريش^(١) إلا أن

(١) انظر نفس البحث، ص ٣٢.

هذه الصلة لم تنفع الرسول في دعوته حتى حين قصد الطائف مدينة الشقيين قبل الهجرة. لذا، لم تجد هذه القبيلة ماتستند إليه أو تطلب الخلافة بموجبه أو من أجله^(١). بينما كان للمهاجرين والأنصار فضل سبق والمشاركة الفعالة في مساندة الدعوة، منذ البداية، وضخوا في سبيلها بالأرواح والأموال والديار. لذا فقد أدرك الشقيون أن الدخول في منازعات الخلافة سوف يجلب لهم المتاعب التي هم في غنى عنها، ولا سيما أن الأسر المكيّة والمدنية قد بدأت انقساماتها واضحة في هذه المسألة كما حدث في بيعة السقيفة.

إلا أن الشقيين الذين أسلموا في وقت متأخر لم يشاركوا في الهجرة ولم يكن لهم وجود محسوس في المدينة، وحتى لو كان لهم وجود لم يكن لهم دور في المناقشة أو المنازعة على الخلافة، لأن الأمر كان للمهاجرين والأنصار فهم السابقون في الإسلام. وقد كانت هناك قبائل عربية هاجرت إلى المدينة وأقامت فيها مثل قبيلة أسلم القحطانية^(٢)، التي هاجر منها في يوم واحد سبعمائة أسرة إلى المدينة، ولكن رغم ذلك لم نقرأ في المصادر ما يبيّن أي دور لها في مناقشة أمر الخلافة، غير أن حضور رجالها أثناء المناقشة بين المهاجرين والأنصار ثم مبادرة رجالها إلى مبايعة أبي بكر - رضي الله عنه - كان كسبا للخليفة الجديد يوم السقيفة، لأن عدد المهاجرين في ذلك الاجتماع كان قليلا، بينما كان الأنصار كثيرين، فكانت بيعة رجال هذه القبيلة لأبي بكر حاسمة في ذلك اليوم. وهذا واضح من قول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد ذكر الطبري: «ان أسلم أقبلت بجماعتها حتى تضايق بهم السكك، فبايعوا أبا بكر، فكان عمر يقول: ما هو إلا أن رأيت أسلم، فأيقنت بالنصر»^(٣).

إذا كانت المصادر قد ذكرت بشكل صريح موقف ثقيف من الردة ومشاركتها في الفتوح الإسلامية وإدارة الأمصار، فإنها لم تذكر بأنها اشتركت أو حاولت الاشتراك والانحياز لجهة معينة في أمر الخلافة أو الظهور بمظهر الطامع

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٤٥.

(٢) القلقشندي: نهاية الأرب، ص ٣٩.

أحمد الشريف: دور الحجاز، ص ١١٢.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢٢٢.

فيها، سوى أن هناك إشارة في الطبري تقول إن المغيرة بن شعبة الثقفي قد طرح خاتمة على الرسول أثناء مراسم الدفن ليبين أنه أحدث الناس عهدا به وآخرهم كذلك، لكن لم يرد ما يشير إلى أنه ساهم أو اشترك في مناقشات الخلافة أو أبدى رأيا معينا فيها^(١).

هذا الموقف من الثقفيين، وفي تلك الظروف الحرجة المليئة بالمفاجآت جعلتهم موضع ثقة الخلفاء وتقديرهم، خلال القرن الأول الهجري لم تقدم أية قبيلة، باستثناء قريش، عددا عظيما من كبار الرجال مثلما قدمت ثقيف، سواء في الردة أو الفتوحات أو إدارة الأمصار الإسلامية، فكان منهم المغيرة بن شعبة وعثمان بن أبي العاص وأبو عبيد بن مسعود الثقفي وزباد بن أبيه وغيرهم. والأرجح أن علاقة قريش بالثقيفيين منذ العصر الجاهلي الأخير سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية جعلت الخلافة تقرب الثقفيين إليها، لأن الأنصار من أهل المدينة، لم يكونوا على وفاق تام مع أهل مكة، ولأن الثقفيين كانت علاقاتهم قوية مع القبائل، تلك العلاقات التي كانت مبنية على المصالح المتبادلة. ولذا اتسمت سياستهم بالمرونة، وهذه خاصة يندر وجودها، أحيانا في مجتمع مثل مجتمع الحجاز وشبه الجزيرة. بالاضافة إلى أن تأخر إسلامهم ووقوفهم الحيادي من مسألة الخلاف لم يثر الشكوك حولهم، خاصة بين من كان يتنازع على السلطة. لكن اليعقوبي يذكر أن المغيرة بن شعبة كان ممن استشارهم أبو بكر بعد أخذ البيعة مثلما استشار عمر وأبا عبيدة بن الجراح^(٢). وهذا لا يعنى انحياز المغيرة لجانب ضد آخر، لكن الثقفيين جيلوا على الميل نحو السلطة دوما. لذا فالأرجح أن كل الأطراف التي دخلت في مناقشات ومنازعات الخلافة كانت تميل إلى أن تكون ثقيف بجانبها لتكون قوة لها. لكن لا بد لنا من أن نذكر أن دور التوّد للسلطة الذي مارسه الثقفيون كالمغيرة بن شعبة، مثلا، قد مكّنهم من تبوؤ المراكز الحساسة في السلطة منذ عهد الخلافة وحتى نهاية عهد عثمان، وقد بينا ذلك في موضوع دور الثقفيين في إدارة الأمصار. ثم يتجه نحو معاوية الذي عيّنه

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٢١٤.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٢٤ - ١٢٥.

ابن حبيب : المنق، ص ٢٨٠.

نائباً عنه في مفاوضات الصلح مع الحسن بن علي بن أبي طالب والذي لعب دوراً بارزاً لصالح معاوية فعينه والياً على الكوفة سنة ٤١ للهجرة وبقي فيها حتى مات^(١)، كما بيّنا ذلك في صفحة (٢١٥ - ٢١٦) ومابعداها.

بهذا الموقف كان الثقفون بعيدين عن التنافس بين قريش وبعضها بعضاً هذا التنافس الذي كان عميقاً في الجاهلية، وظهر باستحياء بعد وفاة الرسول، وبرز بعد توسع الفتوحات الإسلامية، وفي خلافة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانوا بعيدين أيضاً عن التنافس بين المهاجرين والأنصار الذي ظهر واضحاً عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وظهور مشكلة الخلافة. ومن جهة ثالثة، فقد كانوا بعيدين عن الصراع بين أنصار علي، وقد انسحبوا من جيش عائشة في موقعة الجمل دون أن يذهبوا إلى علي، أو أن يشتركوا مع علي ضد معاوية، وعادوا إلى بلدهم «الطائف» ينتظرون ما تسفر عنه الحرب.

فقد ذكر الطبري: «لقي سعيد بن العاص مروان بن الحكم وأصحابه بذات عرق، فقال: أين تذهبون، وثأركم على أعجاز الإبل. اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم. لا تقتلوا أنفسكم. قالوا: بل نسير، فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعاً. فخلى سعيد بطلحة والزبير فقال: إن ظفرتما لمن تعجلان الأمر؟ أصدقائي: لأحدنا أينما اختاره الناس، قال: بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه فلا تدع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم. قال: أفلا أراني أسعى لإخراجها من بني عبد مناف، فرجع ورجع عبد الله بن أسيد، فقال المغيرة بن شعبة: الرأي ما رأى سعيد - ويقصد سعيد بن العاص - من كان هاهنا من ثقيف فليرجع، فرجع ومضى القوم»^(٢).

من هذا النص يتبين لنا أن سعيد بن العاص عندما رأى طلحة والزبير يسيران في الحقيقة إلى الحرب طلباً للخلافة تنبأ أنه ربما يكون على خطأ في

(١) الطبري: الرسل والملوك، ج ٢، ص ١١١، ١١٤.

فلهون: الدولة العربية، ص ١٠٢، ١٠٦.

(٢) الطبري: الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٥٣.

الاشتراك في الحرب أو الفتنة، وعندما نصح طلحة والزبير بأن يجعلوا الخلافة في ولد عثمان رفضا ذلك لأن معناه خروج الأمر من الصحابة إلى أبنائهم، وقد أدرك سعيد بن العاص أن هذه الحرب ستؤدي في النهاية إلى خروج الأمر من يد بنى عبد مناف ككل، وكان المتنازعون جميعا من بنى عبد مناف فقطن أنه لا يخدم بيته إذا ما اشترك في الحرب فقرر الرجوع عنها، وقد استصوب المغيرة بن شعبه هذا الرأي ورأى أن الأفضل أن يعود بقومه إلى الطائف وينتظر هناك ماتنجلى عنه الحرب، جريا على خطة ثقيف الدائمة في عدم الميل إلى طرف دون طرف في النزاعات التي نشبت بين العرب وانتظار ما تنجلي عنه الأمور.

وبذلك ظلت أيادى ثقيف نظيفة من دم عثمان وعلي، فجتبتهم هذه الفتنة اتهامات لم يسلم منها بعض الصحابة وتابعيهم. ولم يكن هذا الموقف للمغيرة مع المتنازعين في فتنة عثمان فقط، بل ساهم أيضا في نصيحة الخليفة الرابع علي بن أبى طالب حال تسلمه السلطة حيث قال لعلي: «أرسل إلى عبد الله بن عامر وإلى معاوية وإلى عمّال عثمان بعهودهم تقرهم على أعمالهم ويبيعون لك الناس، فانهم يهذئون البلاد ويسكنون الناس، فأبيت ذلك عليه يومئذ وقلت: والله لو كان ساعة في نهار لاجتهدت فيها رأيى، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولى» (١).

وهذا الموقف لشقيف لم تخالف فيه إجماع المسلمين على الخليفة الذى وقع اختيارهم عليه، فهي تباع من يبايعه عادة المسلمين، وتظل مؤيدة لهؤلاء الخلفاء ومطبعة لهم.

وبذلك حصلت على ماتريد دون أن تدخل في أية منازعات سياسية.

الفتنة في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وموقف الثقفين فيها

من الأحداث الخطيرة التي واجهت الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الثالث

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٣٩.

عثمان بن عفان الفتنة الكبرى وهي المحنة الثالثة بعد حركة الردة والتي حدثت في أواخر عهد الخليفة وأدت إلى مقتله بأيدي المسلمين أنفسهم، وهي بادرة خطيرة تعرضت لها الدولة الإسلامية. إلا أن الأمة الإسلامية ودولتها الفتية قد خرجت من هذه المحن بامتحان صعب وتجاوزتها، ومع ذلك فقد تركت على الدولة بصمات التفرقة والانشقاق، وظهر ذلك واضحا في خلافة علي بن أبي طالب وما حصل في عهده من اضطرابات داخلية وخلافات حول مقتل الخليفة السابق والمطالبة بدمه تستر للوصول إلى خلافة المسلمين وأولهم معاوية بن أبي سفيان، عامل الشام آنذاك، مما أدى في النهاية إلى انتقال الخلافة إلى البيت الأموي وحصرها فيه، خلافا للمبدأ الإسلامي الذي يستند على الشورى في خلافة المسلمين، مما أدى إلى ظهور ردود فعل عنيفة كان من نتائجها التصدع وبروز الحركات المناوئة للدولة في المجتمع الإسلامي كحركة الخوارج والفرق المتعددة فيما بعد^(١).

ومن المعروف أن حركة الردة قسمت المجتمع العربي إلى قسمين: الثابتين على الإسلام والمتردين، وبذلك ألغت التقسيمات التي وضعت منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه التقسيمات التي كانت على أربعة منازل: المهاجرون والأنصار والمناصرون للنبي من غير المهاجرين والتابعون باحسان^(٢). وقد أتيح لهؤلاء جميعا الاشتراك في الفتوحات الإسلامية ونالوا ما وعدهم الله به من أجر وثواب وما كسبوه من غنائم ومكاسب مادية أخرى، جريا على مبادئ الإسلام الأساسية في العدل والحق والمساواة بين المسلمين جميعا. ما خلا فترة قصيرة في أواخر أيام الخليفة أبو بكر - رضي الله عنه - حيث لم يشرك المرتدين بعد انتهاء أحداث الردة في الفتوحات باعتبارهم حديثي عهد بالإسلام، إذ قد يؤدي إشراكهم إلى ردود فعل في الولايات المفتوحة^(٣). ومهما يكن من أمر، فإن هؤلاء جميعا شاركوا في الفتوحات وإدارة الدولة، لكن المعارضة لم تظهر إلا بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب واتخذت أشكالا متعددة لكن هدفها كان واحدا هو القضاء على الخلافة القرشية.

(١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٩٠ - ١٩١.

(٢) أبو عبيد : كتاب الأموال، ص ٣٢٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ٣٤٧.

وقبل التطرق إلى موقف ثقيف من أحداث الفتنة الخطيرة، لا بد لنا من القاء الضوء على بعض أسباب هذه الفتنة ودوافعها، ولو بشكل مختصر، ومن خلال ذلك لابد من معرفة دور هذه القبيلة وموقفها من الأحداث.

أسباب الفتنة نجملها بما يلي :

أولاً : السماحة واللين اللذان امتاز بهما الخليفة والسماح للمهاجرين والأنصار وبعض المسلمين الذين كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قد حجز عليهم الخروج إلا باذن وأجل بالخروج من المدينة إلى الأمصار، لكن عثمان فك عنهم هذا العقال واذن لهم، ففرقوا في الأرض ورضوا عن الخليفة كل الرضا، ثم لم تمض أعوام حتى ضاقوا به أشد الضيق من جراء سياسته وضعفه وسماحته وتردده وسيطرة أقاربه عليه، فكان ذلك سببا في الفتنة^(١). ثم جاء قراره بنقل الفياء اليهم حيث يقيمون، زاد من رغبتهم في الخروج والاستقرار في الامصار الإسلامية، حيث باعوا أراضيهم وأملاكهم في الحجاز واتجهوا لشراء الأراضي في الامصار وخاصة في منطقة العراق الخصيب والمناطق الأخرى، مما أدى إلى ظهور الاقطاعات الكبيرة^(٢). فاشترى طلحة بن عبيد الله عامة أسهم خيبر من الذين شهدوا فتحها مع النبي أو من ورثتهم، ثم باعها واشترى بها العراق، وقد عمل الخليفة نفسه بهذا المبدأ حيث اشترى أرض ودار عثمان بن أبي العاص الثقفي في الحجاز وأقطع له أراضي كبيرة في البصرة، مما جعله يصبح من ذوى الاقطاعات الكبيرة وأصبح جزء كبير من شط البصرة يعرف باسم شط عثمان وباب البصرة القديمة بباب عثمان^(٣).

ولم يقتصر ذلك على العراق فقط، وإنما شمل بلاد العرب كلها من جهة، والاقاليم المفتوحة من جهة أخرى، وبذلك ظهرت طبقة جديدة من الناس

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٧.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٥٧.

طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٠٣.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٢.

طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٠٤.

امتازت بثرائها وارستقراطيتها، وانعكس ذلك على الحجاز فظهر الترف.. والفراغ في مكة والمدينة والطائف، وكان بين هذه الطبقة طبقة المحرومين من العبيد والأرقاء التي أحسست بهذا الواقع المؤلم بالإضافة إلى عامة المحرومين فنشأ التذمر والسخط اللذان كانا سببا في الفتنة^(١). ثم كان لزيادة العطاء الذي استفاد هؤلاء منه حيث زاد العطاء مائة فوق أعطياتهم فزادت مداخيلهم مما أدى إلى استثمارها في التجارة والزراعة وبذلك تدفقت الأموال عليهم فحولتهم إلى الترف والبلذخ الذي حوّلهم عن هدفهم الأساسي وهو الدعوة ونشر الإسلام^(٢).

ثانيا : سياسة العزل والتولية التي اتبعت في عهده وذلك بتولية أهله وأقاربه في إدارة الأمصار الإسلامية، وعزل ولايتها الذين كانوا فيها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — فقد ولي سعد بن أبي وقاص الكوفة سنة ٢٤ هـ بدلا من المغيرة بن شعبة الثقفي، ويبدو أن هذا التعيين جاء تنفيذا لوصية عمر الذي تقدم بها إليه حين قال: إن أخطأت الخلافة سعدا أن تستعين به^(٣). وولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر سنة ٢٧ للهجرة، بدلا من عمرو بن العاص وعبد الله هذا هو أخو عثمان في الرضاعة ومن الذين أهدر الرسول دمه يوم الفتح فقد كان يكتب للرسول ويحرف في الكتابة. فقد ذكر اليعقوبي أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له: «اكتب عزيز حكيم، فأكتب لطيف خبير، ولو كان نبيا لعلم، فأواه عثمان، وكان أخاه في الرضاع وأتى به رسول الله، فجعل يكلمه فيه ورسول الله ساكت ثم قال لأصحابه: هلا قتلتموه.. فقالوا: انتظرنا ان توميء. فقال: إن الأنبياء لا تقتل بالأيام»^(٤). وقد ذكرت المصادر كذلك أنه ارتد ورجع إلى الإسلام يوم الفتح^(٥). ثم أدى استنثاره بخمس الغنائم إلى سخط الجيش الإسلامي عليه، فأرسلوا إلى الخليفة وفدا يراجعه في

(١) طه حسين : الفتنة الكبرى، ص ١٠٥.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٥.
حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج ١، ص ٣٥٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٣.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٥٩ — ٦٠.

(٥) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٣١٣.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٣، ص ١٧٣.

ذلك^(١). وولي عبد الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس على ولاية البصرة سنة ٢٩ للهجرة، بدلا من أبي موسى الأشعري وعبد الله هذا هو ابن خال الخليفة وكان عمره يوم ولايته خمسا وعشرون سنة تقريبا^(٢). وأبقى معاوية ابن أبي سفيان على ولاية دمشق الذي تولاها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ثم ضم إليه الخليفة عثمان جند فلسطين وحمص وبذلك خلصت له أرض الشام كلها، وأصبح بذلك أعظم العمال خطرا وأعلاهم قدرا أيام عثمان^(٣). وولي عمير بن عثمان بن سعد وهو أموي على ولاية خراسان، وعبد الله بن عمير على سجستان وعاصم بن عمير على كرمان وهما أمويان أيضا^(٤). وكذلك ولي عبيد الله بن معمر على اصطخر وخالد بن عبد الله ابن زهير على هراة^(٥). أما علاقتهم بالخليفة فلم تحدثنا المصادر عنها سوى أنها ذكرت بأنهم من الأمويين.

ولكن رغم كفاءة ومقدرة هؤلاء الولاة مثل معاوية وعبد الله بن أبي سرح وغيرهم فإن الناس رأوا أن عثمان قد فضل أقاربه على غيرهم من المسلمين ومن السابقين في الاسلام، لكن سوء تصرف بعض هؤلاء الولاة أدى إلى ردود فعل عنيفة ضد الخليفة كاتهام عبد الله بالاستحواذ على الخمس وتصرفه فيه بغير مايقضي به الشرع، والوليد بن عقبة لم يكن موضع اطمئنان ورضا المسلمين، لسوء سيرته مع الرسول، حينما أرسله مصدقا في بنى المصطلق فعاد وزعم أنهم منعه، فهتم النبي بغزوهم ثم تبين له كذب الوليد، بالاضافة إلى تولعه بشرب الخمر فكانت الشكوى ضده من المسلمين عامة^(٦).

لقد كان الخليفة حسن النية، قاصدا الخير، لكن القوم كانوا ذوى طموح

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٢٣.

(٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٦٤.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٧٦.

طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١١٨.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢٦٤ - ٢٦٦.

(٦) المصدر ذاته، ص ٢٧٤، ٢٥٦.

أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٣٠٠ - ٣٠١.

ذاتي فأحاطوا بعثمان — رضي الله عنه — وجعلوا من أنفسهم خاصته حتى عزلوه عن كبار الصحابة من أهل الشورى، وقد خالف عثمان بذلك سياسة عمر، فقد كان عمر شديدا على قريش بعامة وعلى أهله بخاصة، وكان استعماله للولاة على الأمصار، لم يخص بها فريقا دون فريق من العرب ثم هو لم يستعمل من عشيرته أحدا، مما أثار ذلك نقدا للخليفة عثمان مازال يشتد حتى تحوّل إلى ثورة عليه فيما بعد وخاصة بعد اتصال الثوار القادمين من مصر بأهل العراق وظهور الخلاف بين عبد الله بن سعد وعمرو بن العاص^(١).

ثالثا : استئثار الأمويين — الولاة بشكل خاص بأموال الدولة، فقد كانوا يتصرفون فيها دون رقيب، مما جعل بقية المسلمين تحقد عليهم، خاصة الذين شاركوهم الكفاح والفتوحات. لذا فإن التذمر أصبح عاما، وهذا واضح من المناقشة التي جرت بين مالك الأشتر وسعيد بن العاص في الكوفة، وكان سبب المناقشة أن بعض وجوه الكوفة كانوا يسمرون عند سعيد بن العاص منهم مالك بن كعب الأرحبي والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان ومالك الأشتر، وقد كانت المحاورة حول منطقة: النشاسيتج وهي ضيعة كانت لطليحة بن عبد الله وكانت عظيمة الدخل ومن خلال المحاورة والمناقشة بينهم قال سعيد: «انما هذا السواد بستان قريش»^(٢)، مما جعل الأشتر يحاوره ويذكره بأن هذا السواد هو ما أفاء الله به للجميع بعد الكفاح والقتال وليس لقومك — ويقصد الأمويين وبذلك فتح المجال لتدخل القوم وبروز النقمة والتذمر. الأمر الذي أدى في النهاية إلى نفيهم إلى دمشق، ثم ارجاعهم إلى الكوفة ثم نفيهم إلى حصص، وبذلك ظهر التمسك بالرأي والمعارضة العلنية ضد ولاة من الأمويين. هذه المعارضة دعت إليها ظروف الحياة الاجتماعية والسياسية حينذاك.

رابعا : كان الخليفة عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يدرك تماما ما قد يحصل للمسلمين بعد وفاته. لذا حصر الخلافة بستة من أهل الشورى وأصحاب السبق في الاسلام والذين وقفوا بجانب الدعوة منذ البداية ودافعوا عنها

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٥٤ — ٢٥٦.

(٢) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١٣٨ — ١٣٩، وانظر كذلك هامش رقم ٣ من ص ١٣٨.

بأموالهم وأرواحهم وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص. خوفاً من انقسامهم أنفسهم وبالتالي انقسام الناس من بعدهم، لأن صورة السقيفة وأحداثها لازالت مرسومة في مخيلته، وكان الخليفة عمر يدرك أبعد من هذا وهو الخلاف بين الستة المختارين أنفسهم فحذّرهم منه، وهذا واضح من قوله: «انى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم، ولكنى أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس»^(١). وهذا ما حصل بالفعل مما جرّ على الدولة الاسلامية الكثير من المشاكل والفتن وما ظهر بعد ذلك من تكتلات وجماعات متخاصمة متنازعة.

خامساً : دور مروان بن الحكم وبعض الأمويين فى الفتنة : استغل الأمويون لين وتسامح الخليفة عثمان — رضى الله عنه — مما أدى إلى ظهور بعض المآخذ عليه، منها اعادة عمه الحكم بن العاص وأهله إلى المدينة، وكان الرسول قد أخرجهم منها بسبب اىذاء الحكم له^(٢). ولم يكن السماح بالعودة لهم فقط، بل بعد ممات الحكم ضرب الخليفة فسطاطاً على قبر الحكم وولي ابنه الحارث سوق المدينة، وعيّن مروان مستشاراً له وزوجه من ابنته وأمر له بخمس مال الغنائم في أفريقيا^(٣)، مما جعلهم أو مهد لهم الوصول إلى مراكز الدولة الحساسة، مما أثار الحقد والكراهية من المسلمين من غير الأمويين عليه، ثم بداية تدخل مروان فى شؤون الدولة وكأنه هو الخليفة، وهذا واضح من المناقشة التى دارت بين مروان ووفد المتذمرين من السلطة أثناء لقائهم الخليفة حيث قال لهم مروان: «إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف، نحن والله وأنتم كما قال الشاعر:

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم معارضكم تبنون فى دمن الثرى

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٦٦.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام، ج ١، ص ٣٥٦.

(٣) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٦.

فقال عثمان: اسكت اسكت، دعنى وأصحابى، مامنطقك فى هذا؟ ألم أتقدم إليك ان لا تنطق.. فسكت مروان، ونزل عثمان»(١).

وكذلك سعيد بن العاص الذى حرّض الخليفة ضد المتذمرين وطالبه بقتلهم جميعا فيذكر الطبري أنه قال: «اطلب هؤلاء القوم، ثم اقتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم»(٢).

لم يقتصر دور مروان بن الحكم على التدخل فى سلطة الدولة حيث تذكر المصادر أنه قد لعب دورا فى اذكاء الفتنة، خاصة بعد اتهامه بتزوير الرسالة لعامل الخليفة فى مصر وما جرت عليه هذه المشكلة من مضاعفات خطيرة أدت فى النهاية إلى قتل الخليفة بيد المسلمين أنفسهم(٣). ولقد حذّرت زوجة الخليفة نائلة بنت الفرافصة من دور مروان فى الفتنة حينما قالت للخليفة: «والله انك متى أطعت مروان قتلك، ومروان ليس له عند الناس قدر ولا محبة»(٤). وقد أكد الخليفة هذا الرأي بنفسه حين قال وهو يخاطب مروان: «لا تذكرها بحرف فأسوء لك وجهك فهي والله أنصح لى منك»(٥). ثم تباطأ معاوية فى نجدة الخليفة حين كتب إليه الخليفة بضرورة نجدة من الثائرين والمحاصرين لكنه أبطأ على الخليفة النجدة مما دعا أن يكتب إلى يزيد بن أسد بن كرز والى أهل الشام يستنفرهم، فلما قرأ يزيد الكتاب حثّ المسلمين على نصر عثمان وقد نصره الكثير وساروا لنجدة الخليفة لكن الأوان قد فات، فقد قتل الخليفة وهم لا زالوا فى وادى القرى، مما حدا بهم أن يرجعوا بعد سماع الخبر(٦).

وكذلك نفى أبى ذر الغفارى إلى الربذة وموته فيها، وقد لعب معاوية دورا كبيرا فى هذه القضية، لأن أبا ذر كان فى نظر معاوية من المحرضين على السلطة

(١) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٤٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٥٥.

(٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٧٥.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٦) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٦٣.

(٦) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٦٨.

في الشام، فقد كان أبو ذر يقول: يامعشر الأغنياء، واسوا الفقراء وبشر الذين يكتنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بكاء من نار تكوى بها جباههم وظهورهم، وبذلك طمع الفقراء في مال الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلحقون منهم وخوفه الفتنة وميل معاوية لهم، مما أدى به إلى أن يكتب إلى الخليفة يشكوه من تصرف أبي ذر ويقول له: إن أبا ذر قد ضيق عليّ وبذلك أقنع الخليفة بضرورة تسفير أبي ذر إلى عثمان، وهناك دارت محاورة بين عثمان وأبي ذر انتهت بخروج أبي ذر إلى الربذة وموته فيها^(١).

سادساً : المعارضة العامة : يذكر الدكتور طه حسين إن عدة أمور تجمعت جعلت المعارضة عامة على الخليفة، منها معارضة محمد بن أبي حذيفة الذي طلب من الخليفة أن يوليّه عملاً فرفض عثمان ذلك لما أخذ عليه، فطلب الخروج إلى مصر ولم يكد يصل إلى هناك حتى أظهر المعارضة السياسية للخليفة، وكذلك محمد بن أبي بكر الذي لم يحفل به الخليفة، مما أثار في نفسه الغيرة والحسد حين آثر فريقاً منهم على آخر. ثم معارضة طلحة بن عبيد الله. هذه المعارضة التي كانت، منذ اليوم الأول للبيعة، حيث تمت وطلحة غائب فظلت في نفسه. ومعارضة عبد الله بن مسعود عامل بيت المال، مما حدا بعبد الله ابن مسعود أن يلقي مفاتيح بيت المال ويعتكف في داره يعظ الناس ويعلمهم. ومعارضة أبي ذر لاعطاء مروان بن الحكم وأخيه الحارث وزيد بن ثابت الأنصاري مائة ألف درهم من بيت المال، فاستنكر ذلك حيث قال: بشر الكائزين بالنار. ثم معارضة عمار بن ياسر واتهامه الخليفة باستغلال بيت المال^(٢). هذا بالإضافة إلى سريان المقاومة أو المعارضة الشعبية الخفية التي أصبحت تجرى على الألسن ولا يعرف لها صاحب، ولا سيما بعد أن وسع الخليفة مسجد الرسول فقبل عنه «يوسع مسجد النبي ويترك سنته».

(١) ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ١١٣ - ١١٥.

الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٢) طه حسين : الفتنة الكبرى، ج ١، ص ١٢٦ وما بعدها.

اليقوي : تاريخ، ج ٢، ص ١٦٢ وما بعدها.

من الثابت أن الأمور قد تجمعت، سواء التي ساهم فيها الأمويون أو غيرهم،
ومما لا شك فيه أن الخليفة كان متسامحاً طيباً، وهذه صفات قد تجعل أي حاكم
يعانى من صعوبات الحكم وبالتالي الفشل، إلا أن مقتل الخليفة قد أدى إلى
تغير كل شيء في حياة الأمة، مما زاد الحالة سوءاً.

هكذا كانت أسباب الفتنة ، فأين تقف ثقيف منها ؟

بعد وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — نفذت وصيته
باختيار واحد من أهل الشورى الستة الذين أوصى بهم. فاستقر الرأي على
مبايعة عثمان بن عفان — رضي الله عنه — فبايعته المدينة، ثم بايعت ثقيف
بعدها، كما بايعت الأمصار الإسلامية والولايات التي تولي إماراتها ثقيفيون مثل
الطائف والكوفة والبحرين وعمان وأصبهان كما أشرنا سابقاً إلى ذلك، ص
٢١٣، وقابلت ثقيف هذه البيعة واختيار الخليفة الجديد بارتياح بالغ، فهو من
مواليد الطائف وله أموال وتجارة فيها، فضلاً عما يربطه بالطائف من صلات
متعددة كصلة النسب وصلة الحلف مع الأمويين، فهو واحد منهم^(١). فقد ذكر
الطبري حيث قال: «لما بويع لعثمان بالخلافة، قال المغيرة بن شعبة لعبد
الرحمن بن عوف: يا أبا محمد قد أصبت إذ بايعت عثمان، وقال لعثمان: لو بايع
عبد الرحمن غيرك مارضينا»^(٢). وذكر ابن كثير محاورة جرت بين عثمان وعبد
الرحمن بن عوف، فيقول: «قال عثمان تأهلت بمكة، فقال له ولك أهل المدينة،
وانك تقوم حيث أهلك بالمدينة. قال عثمان: ولي مال بالطائف»^(٣). إلا أن
استبشار الثقيفين بالخليفة الجديد وأملهم فيه لم يدم طويلاً إذ بدأ يتغير بعد سنة
من خلافته، إذ عزل المغيرة بن شعبة عن الكوفة وعزل عثمان بن أبي العاص
عن البحرين وعمان^(٤). وظل عثمان بن أبي العاص في البصرة حتى مات فيها.
ورغم أن عثمان — رضي الله عنه — قد زاد من أعطيات الناس مائة فوق
أعطياتهم فإن ثقيفا لم تستفد من هذه الزيادة ولأن العطاء كان قد نظم على

(١) ابن حزم : الجمهرة، ص ٨٢.

(٢) الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٣٤.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ١٥٤.

(٤) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٢٤٣.

أساس الأسبقية في الإسلام. فقد ذكر الماوردي أن الديوان كان موضوعا على دعوة العرب في ترتيب الناس فيه معتبر بالنسب وتفضيل العطاء معتبرا بالسابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين^(١). وبما أن ثقيفا دخلت الإسلام متأخرة كما مرّ بنا سابقا، ولذلك كان من الطبيعي أن يتأثر الثقفيون أول الأمر بهذا التصرف، وإن كان أغلبهم في الأمصار والولايات المفتوحة قد عوضتهم عن الزيادة بكثرة أموال الغنائم من جهة، ولأن التفضيل في العطاء أصبح يقاس بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد وخاصة بعد انقراض أهل السابقة في الإسلام^(٢). بالإضافة إلى ذلك فإن الثقفيين رأوا أن عطف عثمان على الأمويين وإسرافه في منحهم المال والسلطة سيدفع بالأمويين إلى الحكم، فقررُوا إحياء الرابطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية القديمة مع حلفائهم وعن هذا الطريق سوف يصلون إلى أهدافهم^(٣). ولذلك تحاشوا أن يدخلوا معهم في أية معاتبة أو تنافس. ولقد رحب الأمويون بهذا الاتجاه ولا سيما أنهم يدركون ما للطائف من أهمية وما لرجالها من مكانة وقدرة. ولربما استطاع الثقفيون أن يدخلوا في سياسة الدولة الجديدة عن طريق إحياء تلك الصلات مع الأمويين.

ورغم أن معارضة الخليفة قد بدأت من مصر والكوفة والبصرة وإن الثقفيين كانوا يسكنون بأعداد كبيرة في هذه الأمصار، فإن المصادر لم تجربنا عن خروج الثقفيين مع المعارضين والثائرين أو انضمامهم إليهم في فتنة المدينة.

وفى بداية الفتنة، وقف الثقفيون بجانب الخليفة حتى في المدن التي بدأت فيها المعارضة مثل البصرة والكوفة ومصر، وذلك تقديرا منهم لما حصلوا عليه أثناء خلافته من امتيازات ومكاسب وخاصة ما حصلوا عليه من أقطاعات واسعة في العراق الخصيب وفي منطقة البصرة بالذات، بالإضافة إلى أن خبراتهم الزراعية والتجارية والإدارية مكنتهم من أن يصلوا إلى الطبقة الأرستقراطية في المجتمع، سواء في الأمصار أو المدينة أو الطائف^(٤). كما أن أهل الطائف استفادوا من

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر والصفحة نفسها.

(٣) البحث نفسه، ص ٣٩ وما بعدها.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان، ص ٤٣٢.

الأموال المتدفقة على الحجاز، حيث بدأ أصحابها باستثمارها في مدينتهم حيث المناخ الجيد والهدوء والراحة والفاكهة المختلفة، وبذلك انعكس ذلك على مستوى معيشة الطوائف وأهلها، ونتيجة لهذا الترف وكثرة الأموال نشأت في الدولة الإسلامية طبقة جديدة مالت إلى الترف والفراغ، فنشأت طبقة الأغنياء في كل من مكة والمدينة والطائف^(١). وبذلك أعادت الطائف مكانتها الاقتصادية الممتازة التي كانت تتمتع بها منذ العصر الجاهلي الأخير، كما مرّ بنا سابقا في صفحة ٢٧.

أما عندما تحوّلت الفتنة إلى ثورة، فقد ابتعدت ثقيف عن معترك الأحداث تنتظر ما تسفر عنه النهاية، وستكون كعادتها مع المنتصر، لذا لم نقرأ في المصادر بأن كان لها دور في مقاومة الثورة، ما خلا دور المغيرة بن شعبة حين خاطب الشائرين لمعرفة ما يريدون — بتوجيه من الخليفة — ومحاولة تهدئتهم، إلا أنه فشل معهم. فقد ذكر البلاذري بأن المغيرة بن شعبة جاء إلى الخليفة وطلب منه أن يأذن بمخاطبة هؤلاء الشائرين. فقال له: «دعني آت القوم فأنظر ما يريدون، ففضى نحوهم، فلما دنا منهم صاحوا به يا أعور وراءك يا فاجر.. وراءك يا فاسق، وراءك فارجع»^(٢). وقد كرر المحاولة عمرو بن العاص لكنها كانت هي الأخرى دون جدوى^(٣). ولذا نرى المغيرة يتجه بدوره ينصح الخليفة أثناء الحصار بمقابلة الشائرين أو الخروج إلى مكة أو الشام، لكن الخليفة لم يأخذ بنصيحته^(٤). وبقي في المدينة حتى قتل وفي الوقت نفسه لم تحدّثنا المصادر عن وجود ثقفي واحد مع الشائرين والمحاصرين، لا بل ذكر الطبري موقفا انفراديا من ثقفي وقف بجانب الخليفة يوم المحنة هو المغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي الذي قتل دفاعا عن الخليفة والذي قتله هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي^(٥). ويذكر ابن حجر بأن المغيرة بن الأخنس ضرب مرة من قبل المنذر بن الزبير عندما هجا أباه

(١) أحمد الشريف : دور الحجاز، ص ٢٨٤.

طه حسين : الفتنة الكبرى، ص ١٠٥.

(٢) البلاذري : أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٦٣.

(٣) المصدر والصفحة نفسها.

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص ١٦١.

(٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٣٨٢.

الزبير بن العوام فبلغ ذلك عثمان فغضب ووقف بجانبه، ولربما لموقف المغيرة هذا وفاء بموقف الخليفة السابق^(١). والمغيرة هذا هو من حلفاء بني زهرة، أموي النشأة، ثقفى النسب، وما لا شك فيه أن لهذه الصلة أثراً في موقفه من الخليفة. كما أن نائلة بنت الفرافصة زوجة الخليفة عثمان بن عفان لم تذكر ثقيفاً مع جملة مذكّرت من القبائل التي اشتركت في قتل الخليفة بالمدينة^(٢).

من هذا يتبين لنا بأن ثقيفاً لم تشترك لا في المعارضة ولا في الثورة ولا في التحريض عليها، ولم تساهم في مقتله ولم تدافع عنه.

وبعد مقتل الخليفة عثمان — رضي الله عنه — بايع الناس علياً كما بويع الخلفاء من قبله بيعة خاصة وعامة، فلم نجد لثقيف ما يوحى بأنها عارضت هذه البيعة أو وقفت ضدها. لكن خلافة علي من حيث ظروفها السياسية تختلف تماماً عن بيعة الخلفاء الذين سبقوه، لأن الخلافة انتقلت إليه، ولا زال هناك من يرفض البيعة محتجاً بالمطالبة بدم الخليفة المقتول ومنهم معاوية بن أبي سفيان بالشام^(٣). إلا أن الثقفين في البصرة والكوفة ومصر لم يبايعوا علياً نتيجة الصراع الجديد حول الخلافة وظاهرة المطالبة بدم عثمان، لكنهم بايعوا بعد ذلك مع من بايع من أهل الحجاز فقد ذكر الطبري هذه البيعة فقال: «جاء الزبير فبايع علي على إقامة كتاب الله في القريب والبعيد، والعزير والذليل، فبايعهم، ثم قامت العامة كلها فبايعت^(٤)». وكان بإمكان الخليفة الجديد أن يضم إليه ثقيفاً لو قبل نصيحة المغيرة بن شعبة إليه، فقد اختلى المغيرة بعلي في داره ونصحه باقرار عمّال عثمان على ولاياتهم، ريثما تهدأ الأمور وتستقر الأحوال، إلا أن علياً رفض تلك النصيحة قائلاً: «والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولي^(٥)». وذكر اليعقوبي مثل هذه النصيحة أيضاً فقال: إن المغيرة بن شعبة قال للخليفة: «ياأمير المؤمنين، أنفذ طلحة إلى اليمن والزبير إلى

(١) ابن حجر: الإصابة، ج ٣، ص ٤٥٢.

(٢) الأصفهاني: الأغاني، ج ١٥، ص ١٦١ - ١٦٢.

(٣) الطبري: الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٤٠.

(٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٣٥.

(٥) الطبري: الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٣٩.

البحرين، واكتب بعهد معاوية على الشام، فاذا استقامت الأمور، فشأنك وما تريد فيهم. فأجابه في ذلك بجواب، فقال المغيرة: والله مانصحت له قبلها، ولا أنصح له بعدها»^(١). وذكر الطبري أن عليا طلب من عبد الله بن عباس الذهاب إلى الشام لاستلام ولايتها، لكن ابن عباس رفض ذلك خوفا من أن يقتله معاوية. فقال لعلي ناصحا له: «اكتب إلى معاوية فنه وعده فأبى علي ذلك وقال والله لا كان هذا أبدا»^(٢). وهكذا فقد رفض علي رأي المغيرة ورأي ابن عباس، الأمر الذي دعا المغيرة إلى قبوله رأي علي وتراجع عن نصيحته ثم خرج إلى مكة والطائف معتزلا^(٣).

وعندما شرع الخليفة بتعيين ولاته الجدد شمل التعيين مدينة الطائف فعزل واليا القاسم بن ربيعة الثقفي وعين عليها قثم بن العباس^(٤). فكان أول من عين عليها واليا غير ثقفي منذ اسلامها سنة ٩ للهجرة، حيث نصت المعاهدة، كما مررنا سابقا في (ص ١٧١ - ١٧٢) على تعيين وال عليها من ثقيف. ولربما أراد الخليفة الجديد، بهذا التعيين، أن يحذر ثقيفا بعد نصيحة المغيرة وذهابه اليها، بأنها مدينة تابعة للدولة كبقية الولايات الأخرى، وقد تغيرت الأوضاع عما كانت عليه في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يصح شرط أو الزام لتعيين ثقفي. لكننا لم نعر في المصادر على مايفيد بأن الخليفة قد وقف موقفا عدائيا من ثقيف خلال فترة ولايته. بل على العكس من ذلك، فاننا نجد عليا قد عين زياد بن أبيه وهو من الطوائف على خراج وبيت مال البصرة ومستشارا لعبد الله بن عباس والي البصرة وطلب منه أن يسمع رأيه^(٥). كما يذكر اليعقوبي أن زيادا عين واليا على فارس في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب^(٦). كما ولي سعد بن مسعود الثقفي، وهو عم المختار بن أبي عبيد الثقفي ولاية المدائن^(٧).

- (١) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٨٠.
- (٢) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٤٠.
- (٣) نفس المصدر، ص ٤٥٣.
- (٤) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ١٧٦.
- ابن الأثير : الكامل، ج ٣، ص ٧٧.
- (٥) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤٣.
- (٦) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٢٠٤.
- (٧) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٦٥.

وعندما أثبت زياد مقدرة وكفاءته وثوقه به عينه على فارس وكرمان معا، مما مكن زياد من اخاد ثورة أهل فارس وأعادهم إلى تأدية خراج الدولة^(١).

ويذكر الدينوري أن الشقيين في البصرة حاربوا بجانب طلحة والزبير في معركة الجمل، ويضيف بأن الخليفة عقد لقيس وعبس وذبيان راية ولي عليها سعد بن مسعود الثقفي، عم المختار ضد الثائرين في البصرة^(٢). بينما تذكر المصادر الأخرى أن ثقيفا لم تحضر موقعة الجمل، وأن زياد بن أبيه ونافع بن الأزرق وعبد الرحمن بن أبي بكر لم يبايعوا عليا إلا بعد معركة الجمل وانهم ظلوا معتكفين في منازلهم^(٣).

في الواقع يصعب التفريق بين المؤيدين والمعارضين من أبناء القبيلة الواحدة في مثل تلك المواقف، كما يصعب الاقرار أيضا بما جاء به الطبري وابن كثير إذ أن اعتزال أفراد من قبيلة لا يمثل ثقيف البصرة كلها.

لم يبق لنا سوى موقفها من الصراع بين علي ومعاوية، حيث طالب معاوية بالثأر من قتلة عثمان ممثلا للعصبية القبلية، لأنه ليس من حق معاوية من الناحية القانونية المطالبة بثأر الخليفة المقتول، فثل هذه المطالبة ومثل هذا الحق هو من اختصاص الدولة. فعهد الأخذ بالثأر انتهى بمجيء الإسلام وقيام دولته، لكن مطالبة معاوية كانت مطالبة سياسية أكثر منها مطالبة بدم قتل حيث توضح ذلك فيما بعد. وحتى في هذا النزاع بقيت ثقيف محايدة، فقد نصح المغيرة الخليفة، كما بينا سابقا، ثم اعتزل وقرر الذهاب لمدينة الطائف كما انه لم يحضر التحكيم الذي جرى في صفين بين جماعة علي ومعاوية^(٤).

لقد لعب المغيرة دورا مهما خلال فترة الخلافة للراشدين واستمر هذا الدور في خلال الصراع بين علي ومعاوية كما أسلفنا. ثم مع معاوية ومن أحسن ما قدم

(١) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٣٧.

(٢) الدينوري : الأخبار الطوال، ص ١٤٦ - ١٤٧.

(٣) الطبري : الرسل والملوك، ج ٤، ص ٥٤٣.

ابن كثير : البداية والنهاية، ج ٧، ص ٢٤٦.

(٤) المسعودي : مروج الذهب، ص ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٧٣.

لمعاوية هو استمالة زياد بن أبيه إليه، وكان هذا النجاح من أعظم ما قدمه لمعاوية في خدمته^(١)، كان زياد شوكة في جنب معاوية كما كان من الصعب على معاوية أن يصل إليه أو يوفق إلى إخضاعه^(٢). ومن خدماته لمعاوية مفاوضته للحسن بن علي ونجاحه في هذه المفاوضة لصالح معاوية مما حدا به إلى تعيينه واليا على الكوفة سنة ٤١ للهجرة وبقي فيها حتى مات، وهذا ما بيناه سابقا.

أما زياد بن أبيه فقد امتاز بذكاء القلب وسعة الحيلة وحزم الأمور وحدة اللسان وشدة وميل إلى العنف بلغ حد الطغيان، وقد ظهرت فيه هذه الخصال منذ شبابه. وقد فطن معاوية إلى هذا الرجل الذي استعان به الخليفة الرابع وجعله مستشارا لأحد ولاته في البصرة واليا لخراج بيت المال في فارس ثم استعان به على اخاد ثورة هناك فأحسن البلاء ووفق إلى ما أراد وبقي وفيا لعلبي حتى النهاية، وهذه عادة الثقيين أن يكونوا مع السلطة حتى النهاية، وبذلك استماله إليه واستلحقه بنسبه بعد أن أشهد أناسا من المسلمين أنه ابن أبي سفيان^(٣). وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان فصار إليه وسلمه ماله من خراج فارس. ومن الأسباب التي مكنت لمعاوية في الملك وبسطت له السلطان ما وفق إليه من حسن اختيار الرجال والولاة أمثال المغيرة وزياد الذي كانت الناحية الادارية ظاهرة البراعة في أعماله.

لكن بعد التحكيم وكيف أن كفة معاوية أخذت بالرجحان، اتجهت ثقيف، كعادتها صوب المنتصر، وبمقتل الخليفة على يد أحد الخوارج قوى مركز معاوية، فالت ثقيف نحوه. ونرى أن معاوية يكلف المغيرة بن شعبة نائبا عنه في مفاوضات الصلح مع الحسن والتي انتهت لصالحه، وبعد أن أدركت ثقيف أن النصر بات للأمويين اتجهت بشكل واضح وصرح نحوهم، وهكذا ظلت،

(١) عمر أبو النصر : معاوية وعصره، ص ٩٧ وما بعدها.

(٢) اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.

(٣) عمر أبو النصر : معاوية وعصره، ص ٩٧ وما بعدها.

البلاذري : أنساب الأشراف، ج ١، ص ٤٩٤ وما بعدها.

اليعقوبي : تاريخ، ج ٢، ص ٢١٨.

كعادتها، تمسك بالعصا من الوسط، تميل حيث يميل الثقل والغلبة، وبذلك لم
تنحز لا إلى الخوارج ولا إلى التيار العصبي، بل انحازت نحو الأمويين وبقيت
معهم حتى النهاية.

== النهاية ==

الخاتمة

عرض عام لأهم نتائج الدراسة

بعد أن انتهينا من التحدث عن مدينة الطائف وقبيلتها ثقيف وأهميتها من حيث الموقع والسكان، وأحوالها المختلفة في العصر الجاهلي الأخير وعصر الرسول والخلفاء الراشدين، لا نستطيع أن نختم هذه الدراسة دون أن نستعرض أهم نتائجها التي توصلنا إليها.

١ - تعتبر الطائف إحدى المدن العريقة في إقليم الحجاز، غرب الجزيرة العربية وإن موقعها المرتفع الحصين فوق جبل غروان قد هَيَّأ لها منعة طبيعية ساعدتها على صدّ الهجمات الخارجية، وزاد من اعتزاز أهلها بها. كما أن ارتفاعها ساعد على اعتدال مناخها، حتى وصفت بأنها قطعة من أرض الشام. لذا أصبحت مصيفاً كبيراً لأغنياء مكة وموسريها والمناطق الأخرى في شبه الجزيرة العربية. زد على موقعها أرضها الخصبة المنتجة للمزروعات المتنوعة واشتغال أهلها بالتجارة والصناعة أدى إلى ظهور الازدهار الاقتصادي فيها، هذا الازدهار الذي كانت مادته منتجاتها الزراعية الثلاث الرئيسية: القمح والزبيب والخشب، المواد التي باتت منذ ذلك الوقت لوازم لا يستغنى عنها، مما أتاح لها أن تنبؤاً هذه المكانة الممتازة بين مدن الحجاز الأخرى. بالإضافة إلى صلات أهلها القوية بالبلاد الخارجية كفارس والشام واليمن وغيرها من المناطق المجاورة. هذا بالإضافة إلى مكانتها الاستراتيجية والدينية والتاريخية مما هَيَّأ لها مركزاً سياسياً مرموقاً وأهلها لكي تلعب دوراً سياسياً كبيراً في مستقبل الجزيرة العربية.

٢ - أما من الناحية السكانية، فقد سكنتها من الأمم البائدة بنو مهلائيل بن قينان وبنو عبد بن ضخم وهي من عبس الأول ثم عدوان التي ظلت بها حتى غلبهم عليها بنو عامر بن صعصعة وثقيف، واستطاعت ثقيف أخيراً أن تستقل بها وتحافظ عليها، وهذا الاستقلال لم يخل من قيام علاقات بين هذه القبيلة والقبائل والتجمعات البشرية الأخرى، رغبة في تحقيق مصالح كل منها

ومحافظة على النفس، وفي النهاية تطوّرت هذه العلاقة بعد قيام الأسواق التجارية في شبه الجزيرة العربية، هذه الأسواق التي ساهمت في توفير مستلزمات الحياة الاجتماعية وزادت من قيمتها الاقتصادية بالإضافة إلى أن التجمع العربي في الأسواق أدى إلى الالتقاء على لهجة واحدة يفهمها الجميع وبها نزل القرآن الكريم بعد ذلك، وبذلك سمت لغتهم وفت وتطوّرت.

٣ - ومن الناحية الاقتصادية، فوقعها الهام وسط منطقة تحيط بها القبائل من جهات مختلفة، ومنتجاتها الزراعية والصناعية المتعددة وفّرت لها مادة الأسواق، فنشأت فيها أوبقرها مثل عكاظ ومجنة وذا المجاز، هذه الأسواق التي وفّرت لها في الأشهر الحرم أمانا عاما واطمئنانا كبيرا جعلها تصبح معرضا عاما في الجاهلية، حيث مكّنها في النهاية من أن تحتلّ مكانة مرموقة حسدها عليها العرب، وأولهم مكة التي مدّت إليها النفوذ في النهاية، مستثمرة رؤوس أموالها في زراعتها وتجارها، مما مكّنها في النهاية من انشاء أفضل العلاقات معها. هذا بالإضافة إلى أهمية سيطرتها على طريق الشام - اليمن المار بالحجاز آنذاك.

٤ - أما علاقات ثقيف مع القبائل العربية الأخرى، فقد امتازت بميزتين رئيسيتين أولاهما العلاقات السلمية، وثانيتهما العلاقات وقت الحرب، ففي وقت السلم امتازت هذه العلاقات بظاهرة الصلات الاجتماعية البحتة مثل المصاهرات والقربى والاجارة، وهذه الصلة واضحة تماما بين ثقيف وقريش والتي أدت إلى قيام المحالفات فيما بينهما. أما وقت الحرب، فالعلاقات تخضع لحل المنازعات باستخدام القوة وفرض الغالب سلطاته على المغلوب لتحقيق أهدافه وأغراضه.

٥ - ولثقيف علاقات مع العالم الخارجي، وخاصة مع فارس والروم، فأننا نجد أن الأحلاف اتجهوا نحو فارس وصنعوا معها أمتن وأوثق العلاقات، بينما اتجه بنو مالك نحو الشام ومصر ولقوا الاهتمام والرعاية هناك. والحقيقة أن الصراع بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية هو الذي انعكس على المتصارعين في الطائف لكسب ومدّ النفوذ إلى داخل شبه جزيرة العرب، فقد كان كل منهم يرغب في شديدة في ذلك.

٦ - أما الناحية الدينية، فان الطائف شهدت عبادة الآلهة منذ القدم، وقد

تشابهت مع مكة في الناحية الدينية وان اللات في الطائف كان لها شهرة واسعة بين العرب الشماليين وعرب الحجاز، ولها معابد كثيرة في مواضع عديدة، ولربما يكون للناحية الدينية دور في توطيد العلاقات بين قريش وثقيف، باعتبار كل منهما يمثل مكانا دينيا مهماً، ومن الجائز أيضاً أن يكون التنافس بينها شديداً حول هذه المكانة الدينية المرموقة عند العرب، باعتبارها تمثل مصدراً لحياتهم الاقتصادية.

٧ - لقد كانت رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم شديدة في ضم الطائف إلى جانبه كمدينة منافسة لمكة، لما كان يدركه من أهمية موقعها وقوة رجالها وأهمية اقتصادها إلا أن الطائف كانت تأمل أن تكون النبوة فيها. لذا وقفت من الدعوة موقفاً سلبياً واضحاً منذ البداية، وقد اتضح ذلك أكثر بعد فتح مكة، طمعاً في تزعم الحجاز والسيطرة عليه اقتصادياً وسياسياً ودينياً. لذا تصدّت للرسول صلى الله عليه وسلم بكل ما أوتيت من قوة، أملاً في السيطرة وقهراً لشوكة الدولة الجديدة إلى أن انتهى الأمر بالتسليم بالأمر الواقع ودخول الإسلام طواعية وعقد معاهدة مع الرسول بهذا الخصوص.

٨ - بعد دخول القبيلة الإسلام، اشتركت اشتراكاً فعلياً في دعم وتثبيت دعائم الدولة الإسلامية والمشاركة في القضاء على المناوئين والمتردين، وساهمت في وقت كان الإسلام بأشد الحاجة لمساهمتها، حيث كانت الاخطار تهدده وأصبح مقصوراً على مدن الحجاز الثلاث: مكة والمدينة والطائف. هذا الموقف الإيجابي لثقيف قد برهن للعرب على حسن ظن الرسول بها وإن مامنحها من امتيازات في معاهدته معها كان حقاً تستحقه كل الاستحقاق، بالإضافة إلى بعد نظر الرسول بها منذ البداية. وبذلك أزال حسد المسلمين لها وشكوكهم التي ساورتهم بها، وبهذه الوقفة أتاحت لرجالها الفرصة وفتحت لهم الطرق للوصول إلى المراكز الحساسة في الدولة، مما مكّنهم أن يلعبوا دوراً بارزاً فيها.

٩ - أما في حركة الفتوح الإسلامية الكبرى، فقد ساهمت هذه القبيلة برجالها الأشداء وظل قوادها يعملون على تدعيم الحكم الإسلامي في البلاد المفتوحة من أمثال أبي عبيد الثقفي والمغيرة بن شعبة وزيايد بن أبي سفيان وعثمان بن أبي العاص وكثير غيرهم.

١٠- أما موقف ثقيف من الصراع على السلطة فقد اتسم بالحياد، فقد بايعت ثقيف الخليفة عثمان - رضي الله عنه - بعد مبايعة المدينة له، وفي محنة الفتنة ضد الخليفة ابتعدت ثقيف عن معترك الأحداث، منتظرة ما تسفر عنه النهاية، لتكون مع المنتصر. وفي مبايعة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب لم نجد لثقيف ما يوحي بأنها عارضت البيعة أو وقفت ضدها، وبالنزاع بين علي ومعاوية وقفت موقفا حياديا واضحا، لكن بعد مقتل الخليفة الرابع وظهور قوة معاوية، أيقنت ثقيف بأن النصر بات له وشيكا فاتجهت نحوه، وهكذا ظلت - كعادتها - تمسك بالعصا من الوسط وتميل حيث يميل الثقل، فلم تنحز لا إلى الخوارج ولا إلى التيار القبلي، بل انحازت نحو الأمويين وبقيت معهم حتى النهاية.



فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
كلمة الناشر	٥
المقدمة	٧
مقدمة جغرافية عامة عن الطائف وأهمية موقعها	
كلمة عامة عن شبه الجزيرة العربية	١٣
تهامة — نجد — العروص	١٤
اليمن — الحجاز	١٥
أصل التسمية لمدينة الطائف	١٦
أودية الطائف	١٩
وادي لج — وادي لية	١٩
وادي العرج — وادي جفن — وادي الشريق	٢٠
وادي نعمان — وادي بسل — وادي لقيم — وادي الجفجف	
وادي الشديق	٢١
قرى الطائف	٢٢
الهدية — الوهط	٢٢
المنشأة	٢٣
موقع مدينة الطائف وتحديد مكانها	٢٣
أهمية مدينة الطائف	٢٦

الباب الأول

الطائف في العصر الجاهلي

الفصل الأول : سكان الطائف وعلاقاتهم الاجتماعية

أولاً : سكان الطائف	٢٩
نسب ثقيف	٣٠
بطون ثقيف	٣٥

أولاً : عوف — الأحلاف ٣٥

١ — بنو متعب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف .. ٣٧

٢ — بنو غيره بن عوف بن ثقيف — بنو عقده بن غيره ٣٨

ثانياً : جشم منهم بنو مالك — بنو حبيب بن الحارث

ابن مالك بن حطيظ ٣٩

بنو اليسار بن مالك بن حطيظ بن جشم ٤٠

انفراد ثقيف بالطائف وعلاقاتهم الاجتماعية ٤١

الأحوال الاقتصادية في الطائف وعلاقتها الاقتصادية بالمدن الأخرى

مع ذكر الأسواق التجارية ومركز الطائف منها ٤٩

العلاقات الاقتصادية بين الطائف والمدن الأخرى والقبائل المجاورة لها ٦١

الأسواق التجارية في العصر الجاهلي الأخير

ومركز الطائف منها ٦٥

أولاً : سوق عكاظ ٦٦

ثانياً : سوق مجنة وذي المجاز ٦٨

أهمية مركز الطائف من الأسواق ٦٨

حروب الفجار : اسبابها ونتائجها ٦٩

علاقة قبيلة ثقيف السياسية بالمدن والقبائل في الحجاز

وشبه الجزيرة العربية ٨١

علاقة ثقيف الخارجية مع الدول القائمة على أطراف

شبه الجزيرة العربية ٨٧

الباب الثاني

مدينة الطائف في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

الفصل الأول : ديانة قبيلة ثقيف وارتباطها بالنشاط الديني العام

للقبائل في موسم الحج ٩٥

الفصل الثاني : موقف ثقيف من الدعوة الاسلامية قبل الهجرة	
ومحاولة النبي (ص) ضمها إلى جانبه منافسة لمكة	١١١
الفصل الثالث : موقف ثقيف من الصراع القائم بين مكة	
والمدينة بعد الهجرة	١٢٣
الفصل الرابع : دخول ثقيف في الاسلام	١٣١
أولاً : معركة حنين	١٣١
ثانياً : حصار الطائف	١٤٥
ثالثاً : العودة إلى الجعرانة	١٥٥
نص المعاهدة كما أوردتها الواقدي	١٧١
نص المعاهدة كما أوردتها أبو عبيد	١٧٢

الباب الثالث

مدينة الطائف في عصر الراشدين	
دور أهل الطائف في عصر الخلفاء الراشدين	
ومشاركتهم في حركتي الردة والفتوح	١٨١
دور الثقفيين في حركة الردة ضد الدولة الإسلامية	١٨١
ولاً : الأسباب السياسية	١٨٥
ثانياً : الأسباب الدينية والاجتماعية	١٨٨
ثالثاً : العوامل الخارجية	١٩١
دور الثقفيين من أهل الطائف في حركة الفتوح الإسلامية	
وإدارة الأمصار	١٩٧
دوافع الفتوح العربية الإسلامية	١٩٩
دور الثقفيين في الفتوح الإسلامية	٢٠٣
دور الثقفيين في إدارة الأمصار الإسلامية	٢١٢
الفصل الثاني : موقف ثقيف من الصراع على السلطة	
حتى قيام الدولة الأموية	٢١٩
الفتنة في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه	
وموقف الثقفيين فيها	٢٢٣

٢٢٥ أسباب الفتنة بالإجمال
٢٣٢ هكذا كانت أسباب الفتنة، فأين تقف ثقيف منها ؟
٢٤١ الخاتمة : عرض عام لأهم نتائج الدراسة
	المخطوطات والمصادر والمراجع
٢٤٩ أولاً : المخطوطات
٢٥٠ ثانياً : المصادر العربية
٢٥٨ ثالثاً : المراجع العربية
٢٦٢ رابعاً : المراجع الأجنبية المترجمة للعربية
٢٦٣ خامساً : المجلات العربية
٢٦٤ سادساً : المراجع الأوروبية

المخطوطات والمصادر والمراجع

أولا : المخطوطات

١- ابن عراق : على بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الكنتاني،
(ت ٩٦٣هـ).

نشر اللطائف في قطر الطائف - مخطوطة بمكتبة وزارة الأوقاف العراقية
ببغداد تحت رقم ٤٧٩٦ تاريخ.

٢- الميورقي : أبو العباس أحمد بن علي بن أبي بكر بن عيسى بن محمد ابن
زياد العيدري الميورقي (ت ٦٧٨هـ).

بهجة البهجة في بعض فضائل الطائف ووج - مخطوطة بمكتبة وزارة
الأوقاف العراقية ببغداد تحت رقم ٤٧٩٦ تاريخ.

ثانيا - المصادر العربية

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - كتب الحديث .
- (أ) البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة الجعفي كتاب صحيح البخاري - دار مطابع الشعب.
- (ب) مسلم : الامام الحافظ أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشات النيسابوري.
- الجامع الصحيح - كتاب صحيح مسلم: من منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت. ٤ أجزاء.
- ٣ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ).
- الامام عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري.
- الكامل في التاريخ - دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٥.
- أسد الغابة في معرفة أحوال الصحابة - نشر المكتبة الاسلامية.
- ٤ - ابن ابي أصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ) أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم ابن خليفة الخزرجي.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء .
- تحقيق : الدكتور نزار رضا - بيروت، ١٩٦٥.
- طبعة دار الفكر - بيروت، ١٩٥٦.
- ٥ - ابن جليل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جليل.
- طبقات الأطباء والحكماء

- تحقيق : فؤاد الأمير — مطبعة الآثار الشرقية القاهرة، ١٩٥٥.
- ٦ — ابن حبيب : (ت ٢٤٥هـ) : أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية ابن عمر البغدادي.
- كتاب المحبر — مطبعة دار المعارف العثمانية، ١٩٤٢.
- ٧ — ابن حجر : (ت ٨٥٢هـ) شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.
- الاصابة في تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب. طبعة مكتبة المثنى — بغداد.
- ٨ — ابن حزم : (٤٥٦هـ) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي. جمهرة أنساب العرب — تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى — دار المعارف المصرية القاهرة.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل — القاهرة ١٣١٧هـ.
- ٩ — ابن حوقل : (ت ٣٦٧هـ) أبو القاسم بن حوقل النصيبى.
- كتاب صورة الأرض — مطبعة بريل — مدينة ليدن، ١٩٣٨.
- ١٠ — ابن خرداذبة : (ت ٢٨٠) أبو القاسم عبيد بن عبد الله.
- كتاب المسالك والممالك — مصور طبعة ليدن ١٨٨٩م.
- ١١ — ابن خلدون : (ت ٨٠٨هـ) أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر — طبعة المغرب ١٩٣٦.
- المقدمة — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٥.
- ١٢ — ابن دريد : (ت ٣٢١هـ) أبو بكر بن محمد بن الحسن.
- كتاب الإشتقاق — تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٥٨.
- ١٣ — ابن دقاق : إبراهيم بن محمد الشهير بابن دقاق.
- كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار — مركز الموسوعات العالمية — بيروت.
- ١٤ — ابن رسته : (ت ٣٠١هـ) أبو علي أحمد بن عمر.
- كتاب الأعلام النفسية — مصور طبعة ليدن، ١٨٩١م.

- ١٥ - ابن سعد : (ت ٢٣٠هـ) : أبو عبد الله محمد.
الطبقات الكبرى - طبعة بيروت، ١٩٦٠.
- ١٦ - ابن الطقطقا : (ت ٧٠٩هـ) : محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن
الطقطقا.
- الفاخرى فى الآداب السلطانية - مطبعة دار بيروت للطباعة والنشر.
- ١٧ - ابن عبد البر : (ت ٤٦٣هـ) : أبو عمر يوسف بن عبد الله المعروف
بابن عبد البر.
- الانباء على قبائل الرواة، طبعة القاهرة، ١٣٥٠هـ.
- ١٨ - ابن عبد ربه : (ت ٣٤٩هـ) : أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي.
العقد الفريد، طبعة القاهرة، ١٩٦٧.
- دار صادر - طبعة بيروت.
- ١٩ - ابن عبد الحكم : (ت ٢٥٧هـ) : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله
ابن عبد الحكم القرشي.
- فتوح مصر والمغرب - تحقيق عبد المنعم ماجد - مطبعة لجنة البيان
العربي.
- ٢٠ - ابن قتيبة : (ت ٢٧٦هـ) : أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري .
عيون الأخبار - القاهرة، ١٩٦٣.
- كتاب المعارف - تحقيق ثروت عكاشة - طبعة دار الكتب القاهرة
١٩٦٠، ١٩٦٩.
- ٢١ - ابن قيم الجوزية : (ت ٧٥١هـ) : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن
بكر الدمشقي الحنبلي.
- زاد المعاد فى هدى خير العباد - القاهرة، ١٩٧٠.
- ٢٢ - ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ) : الامام أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي
الدمشقي.
- كتاب تفسير القرآن العظيم - مطبعة دار احياء الكتب العربية.
- كتاب البداية والنهاية - بيروت ١٩٦٦، طبعة القاهرة ١٩٥٣.

- ٢٣- ابن الكلبي : (ت ٢٠٤هـ) : أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.
كتاب الاصنام - تحقيق أحمد زكي - مطبعة الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٢٤.
- ٢٤ - ابن الجاور : (ت ٦٩٠هـ) : أبو الفتح جمال الدين يوسف بن محمد الشيباني الدمشقي.
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى تاريخ المستبصر - ليدن، ١٩٥١.
- ٢٥ - مسكويه : (ت ٤٢١هـ) : أبو علي أحمد بن محمد.
كتاب تجارب الأمم - طبع سنة ١٩١٩.
- ٢٦ - ابن منظور : (ت ٧١١هـ) : أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن علي.
لسان العرب : اعداد وتصنيف يوسف خياط.
- ٢٧ - ابن هشام : (ت ٢١٨هـ) : أبو محمد عبد الملك بن هشام.
كتاب سيرة رسول الله، مجلدان يحويان ٤ أجزاء. تحقيق مصطفى السقا ورفاقه.
مطبعة البابي الحلبي المصرية، ١٩٥٥.
- ٢٨ - أبو عبيد : (ت ٢٢٤هـ) : القاسم بن سلام.
كتاب الأموال - المطبعة التجارية الكبرى ١٣٥٣. وكذلك طبعة الأزهر، ١٩٦٨.
- ١٩ - أبو الفرج الأصفهاني : (ت ٣٥٦هـ) : علي بن الحسين بن محمد الأموي.
كتاب الأغاني - تحقيق عبد الستار أحمد فراج - دار الثقافة، بيروت ١٩٦٠.
- طبعة الارشاد المصرية .
- طبعة الساسي بمصر .
- ٣٠ - الادريسي : (ت ٣٤٩هـ) : الشريف الادريسي.
كتاب نزهة المشتاق - تحقيق ابراهيم شوكت
مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٧١.

- ٣١ - الأزرقى : (ت ٢٥٠هـ) : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى.
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار.
مطبعة دار الأندلس، ١٩٦٩، وطبعة مكة ١٩٦٥.
- ٣٢ - الاصطخري : (ت ٣٤٦هـ) : ابن اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري.
كتاب المسالك والممالك - تحقيق محمد جابر عبد العال مطبعة الارشاد المصرية، ١٩٦١.
- ٣٣ - البكري : (ت ٤٨٧هـ) : أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي.
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
مطبعة لجنة التأليف والنشر المصرية، ١٩٤٩.
- ٣٤ - البلاذري : (ت ٢٧٩هـ) : أحمد بن يحيى بن جابر.
كتاب فتوح البلدان - تحقيق صلاح الدين المنجد.
مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.
مطبعة الموسوعات، ١٩٠١.
- ٣٥ - الديار بكري : حسين بن محمد بن الحسن.
تاريخ الخميس - المطبعة الوهبية - القاهرة.
- ٣٦ - الذهبي : (ت ٧٤٨هـ) : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان سير اعلام النبلاء، المسمى تاريخ الذهبي
طبعة دار المعارف المصرية، ١٩٦٢.
- ٣٧ - الدينوري : (ت ٢٨٢هـ) : أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري.
الأخبار الطوال - تحقيق عبد المنعم ماجد.
وزارة الثقافة والارشاد المصرية، ١٩٦٠.
- ٣٨ - الزبيدي : (ت ١٢٠٥هـ) : محمد مرتضى الحسيني.
تاج العروس من جواهر القاموس - مطبعة حكومة الكويت.

- ٣٩ - الزبيري : (ت ٢٣٣ - ٢٣٦هـ) :
أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري
كتاب نسب قریش.
مطبعة دار المعارف للطباعة والنشر.
- ٤٠ - الزوزني : الامام أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني.
شرح المعلقات السبع - تقديم عمر أبو النصر
منشورات مكتبة دار الحياة - بيروت.
- ٤١ - السهيلي : (ت ٥٨١هـ) : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن أحمد
بن أبي الحسن الخثعمي.
الروض الأنف - مكتبة الكليات الأزهرية - شركة الطباعة الفنية،
١٩٧١.
- ٤٢ - الشهرستاني : (ت ٥٤٨هـ) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم.
الملل والنحل - ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.
- ٤٣ - تاريخ الطبري : (ت ٣١٠هـ) : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.
تاريخ الرسل والملوك - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف
بمصر، ١٩٦١.
- ٤٤ - العجمي : (ت ١١١٣هـ) : حسن بن علي بن يحيى.
اهداء اللطائف من أخبار الطائف. ط ٢ دار ثقيف للنشر والتأليف،
الطائف ١٤٠٠هـ.
- ٤٥ - القزويني : (ت ٦٨٢هـ) : زكريا بن محمد بن محمود القزويني.
آثار البلاد وأخبار العباد.
دار صادر - بيروت ١٩٦٠.
- ٤٦ - القلقشندي : (ت ٨٢١هـ) : أبو العباس أحمد القلقشندي.
نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - الشركة العربية للطباعة،
١٩٥٩.
- صبح الأعشى في صناعة الانشا - القاهرة ١٩٦٣.
- ٤٧ - الكندي : (ت ٣٥٠هـ) : أبو عمر محمد بن يوسف.
كتاب الولاة والقضاة - نشر روفي جست.

- ٤٨ - الماوردي: (ت ٤٥٠هـ): أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب.
الأحكام السلطانية والولايات الدينية - مطبعة البابي الحلبي -
القاهرة، ١٩٦٦.
- ٤٩ - المبرد: (ت ٣٨٥هـ): أبو العباس محمد بن يزيد النحوي.
كتاب الكامل. جزءان. القاهرة ١٣٢٣هـ.
- ٥٠ - المسعودي: (ت ٣٤٦هـ)، أبو الحسن علي المسعودي.
مروج الذهب ومعادن الجوهر - دار التحرير، القاهرة ١٩٦٩ وكذلك
طبعة دار الأندلس - بيروت، ١٩٦٥.
- ٥١ - المقدسي: (ت ٣٨٠هـ): أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن
أبي بكر.
كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - مصور طبعة ليدن - مطبعة
بريل ١٩٠٩.
- ٥٢ - النويري: (ت ٧٤٢هـ): شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب
النويري.
نهاية الأرب في فنون الأدب - طبعة الارشاد المصرية.
- ٥٣ - الهمداني: (ت ٣٣٤هـ): أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن
يوسف بن داود الهمداني.
كتاب صفة جزيرة العرب.
تحقيق محمد بن عبد الله بن بلهيد النجدي.
مطبعة السعادة المصرية، ١٩٥٣.
- ٥٤ - الواقدي: (ت ٢٠٧هـ): محمد بن عمر بن واقد.
كتاب المغازي - تحقيق مارسدن جونس - مطبعة جامعة أكسفورد،
١٩٦٦.
- ٥٥ - ياقوت: (ت ٦٢٦هـ)، شهاب الدين أبو عبد الله.
كتاب فتوح الشام - الطبعة الرابعة - مكتبة الحلبي، ١٩٦٦.
- ٥٥ - ياقوت: (ت ٦٢٦هـ)، شهاب الدين أبو عبد الله.
كتاب معجم البلدان - نشر دار صادر - بيروت ١٩٥٧.

٥٦ - اليعقوبي: (ت ٢٨٤هـ)، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن
واضح المعروف باليعقوبي.
كتاب تاريخ اليعقوبي.
دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٠.

ثالثا - المراجع العربية

- ١ - ابراهيم: محمد أبو الفضل ابراهيم، وعلي محمد البجاوي.
أيام العرب فى الجاهلية - الطبعة الأولى - دار احياء الكتب العربية
- القاهرة، ١٩٥٠.
- ٢ - الأسد: ناصر الدين الأسد (دكتور).
مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية - مطبعة المعارف المصرية،
١٩٥٥.
- ٣ - الأفغاني: سعيد الأفغاني.
أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام - مطبعة دار الفكر بدمشق،
١٩٦٠.
- ٤ - الألوسي: السيد محمد شكرى الألوسي.
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، القاهرة ١٩٢٤.
- ٥ - أمين: أحمد أمين.
فجر الاسلام - طبعة القاهرة، ١٩٥٥.
- ٦ - حتى: فيليب حتى (دكتور).
تاريخ العرب المطول (جزءان) نشر دار الكشاف للطباعة ١٩٦٥.
- ٧ - الحديثي: نزار عبد اللطيف الحديثي (دكتور).
اليمامة وردة مسيلمة - رسالة ماجستير ١٩٧١، جامعة بغداد.
- ٨ - حسن ابراهيم حسن (دكتور).
تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - الطبعة
السابعة - مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٤.

- ٩ - حسنين : طه حسين (دكتور).
اسلاميات - مطبعة دار الأدب ١٩٦٧.
- كتاب الفتنة الكبرى - الجزء الأول - مطبعة دار المعارف ١٩٥٣.
- ١٠ - خميس : عبد الله بن محمد بن خميس.
المجاز بين الإمامة والحجاز، مطبعة دار الإمامة السعودية، ١٩٧٠.
- ١١ - خورشيد : عبد الله خورشيد.
القبائل العربية في مصر - طبعة القاهرة، ١٩٦٧.
- ١٢ - دروزة : محمد عزة دروزة.
سيرة الرسول - مطبعة الاستقامة المصرية، ١٩٤٨.
- ١٣ - الزركلي : خير الدين الزركلي.
معجم الاعلام - الطبعة الثالثة - بيروت، ١٩٦٩.
- ما رأيت وما سمعت - الرحلة - المطبعة العربية المصرية سنة ١٩٢٣.
- ١٤ - الزواوي : طاهر أحمد الزواوي.
ترتيب القاموس المحيط على طريقة الصباح المنير - مطبعة الاستقامة
القاهرة ١٩٥٩.
- ١٥ - زيدان : جرجي زيدان.
العرب قبل الاسلام: - القاهرة ١٩٦٣.
- ١٦ - سالم : عبد العزيز سالم (دكتور).
تاريخ العرب في العصر الجاهلي حتى قيام الدولة الأموية. مطبعة
دار النهضة العربية، ١٩٧١.
- ١٧ - سعداوي : نظير حسان سعداوي (دكتور).
تاريخ الحضارة الاسلامية - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠.
- ١٨ - الشريف : أحمد ابراهيم الشريف (دكتور).
دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة
- مطبعة دار الفكر العربي، ١٩٦٨.
- مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول - الطبعة الثانية، القاهرة،
١٩٦٧.

- ١٩ - شلبي : أحمد شلبي (دكتور).
تاريخ الحضارة الاسلامية - مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠.
- ٢٠ - الطنطاوي : علي وناجي الطنطاوي.
أخبار عمر وأخبار عبد الله بن عمر.
دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٧٠.
- ٢١ - عاقل : نبيه عاقل (دكتور).
سلسلة تاريخ العرب والاسلام - تاريخ العرب القديم وعصر الرسول.
- ٢٢ - عزّام : عبد الوهاب عزّام (دكتور).
كتاب الرحلة - مطبعة الرسالة، القاهرة - ١٩٥١.
- ٢٣ - علي : جواد علي (دكتور).
تاريخ العرب قبل الاسلام - مطبعة التفيض - بغداد، ١٩٥٠.
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - طبعة بيروت.
- ٢٤ - العلي : صالح أحمد العلي (دكتور).
محاضرات في تاريخ العرب - مطبعة الارشاد العراقية، ١٩٦٨.
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة - طبعة دار الطليعة - بيروت، ١٩٦٩.
- ٢٥ - العمد : احسان صدق العمد.
الحجاج بن يوسف الثقفي: حياته وآراؤه السياسية، دار الثقافة - بيروت، ١٩٧٣.
- ٢٦ - الغلاس : عبد المنعم الغلاس.
جغرافية جزيرة العرب - دار منشورات البصري، ١٩٦٢.
- ٢٧ - كحّالة : عمر رضا كحّالة.
معجم قبائل العرب - مطبعة دار العلم للملايين ١٩٦٨.
جغرافية شبه جزيرة العرب - مطبعة الترقى - دمشق، ١٩٤٥.
- ٢٨ - كمال : أحمد عادل كمال.
الطريق إلى المدائن - مطبعة دار النفائس - بيروت ١٩٧٢.

- ٢٩ - ماجد : عبد المنعم ماجد.
التاريخ السياسي للدولة العربية - عصور الجاهلية والنبوة والخلفاء
الراشدين - مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥.
- ٣٠ - محمد : محمد حميد الله محمد.
مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. دار الارشاد
للطباعة والنشر والتوزيع - الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٦٩.
- ٣١ - نافع : محمد مبروك نافع.
عصر ما قبل الإسلام - مطبعة السعادة المصرية، ١٩٥٢.
- ٣٢ - النص : احسان النص (دكتور).
العصية القبلية وأثرها في الشعر الأموي - بيروت ١٩٦٤.
- ٣٣ - النصر : عمر أبو النصر.
الحضارة الأموية العربية في دمشق - بيروت، ١٩٤٨.
- ٣٤ - هيكل : محمد حسين هيكل (دكتور).
حياة محمد - مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٣.
الصديق أبو بكر - المطبعة المصرية، ١٩٦٨.
منزل الوحي - مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٥٦هـ.
- ٣٥ - ولفنستون : اسراييل ولفنستون (دكتور).
تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية والاسلام - مطبعة الاعتماد
المصرية ١٩٢٧.

رابعاً - المراجع الأجنبية المترجمة للعربية

- ١ - أوليري : مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب - نقله إلى العربية د. تمام حسان - مكتبة الأنجلو المصرية.
- ٢ - بروكلمان : كارل بروكلمان.
- تاريخ الشعوب الاسلامية - مطبعة دار العلم للملايين، ١٩٥٣.
- ٣ - جب : هاملتون جب.
- دراسات في حضارة الاسلام - ترجمة : احسان عباس وآخرين. بيروت، ١٩٦٤.
- ٤ - جلوب : جون باجود جلوب.
- الفتوحات العربية الكبرى - تعريب وتحقيق: خيرى حمّاد.
- ٥ - دائرة المعارف الاسلامية : تصدير وترجمة عبد الحميد يونس وأحمد الشتاوي، مطبعة المعارف، بيروت ١٨٨٢.
- ٦ - سيديو : تاريخ العرب العام.
- نقله للعربية عادل زعيتر - مطبعة الحلبي - القاهرة ١٩٦٩.
- ٧ - فلهوزن : يوليوس فلهوزن.
- تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية.
- ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده - الطبعة الثانية. القاهرة، ١٩٦٨.
- ٨ - وات : مونتجمري وات.
- عمّد في مكّة. تعريب : شعبان بركات - المكتبة المصرية، ١٩٥٢.

خامسا - المجلات العربية

- ١ - مجلة العرب :
دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، سنة ١٩٦٨.
- ٢ - مجلة العربي [الكويتية] :
العدد (٢٣) - مطبعة حكومة الكويت، سنة ١٩٦٠.
- ٣ - مجلة كلية الآداب :
العدد (١٤) - المجلد الأول والثاني ١٩٧٠ - ١٩٧١ - جامعة بغداد.
- ٤ - مجلة المشرق :
المطبعة الكاثوليكية - الجزء (٢٩)، سنة ١٩٢٢.

سادسا - المراجع الأوروبية

1. LAMMENS
LA CITE ARABE DE TAIF ALA VEILLE DE
L'HEIGIRE 1922.
2. WATT - W. Montgomery Watt.
Muhammad at Medina - Oxford - At the Calrendon -
Press first published - (1956).
3. ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM (New Edition)
4. HISTORICAL ATLAS OF THE MUSLIM PEOPLE.